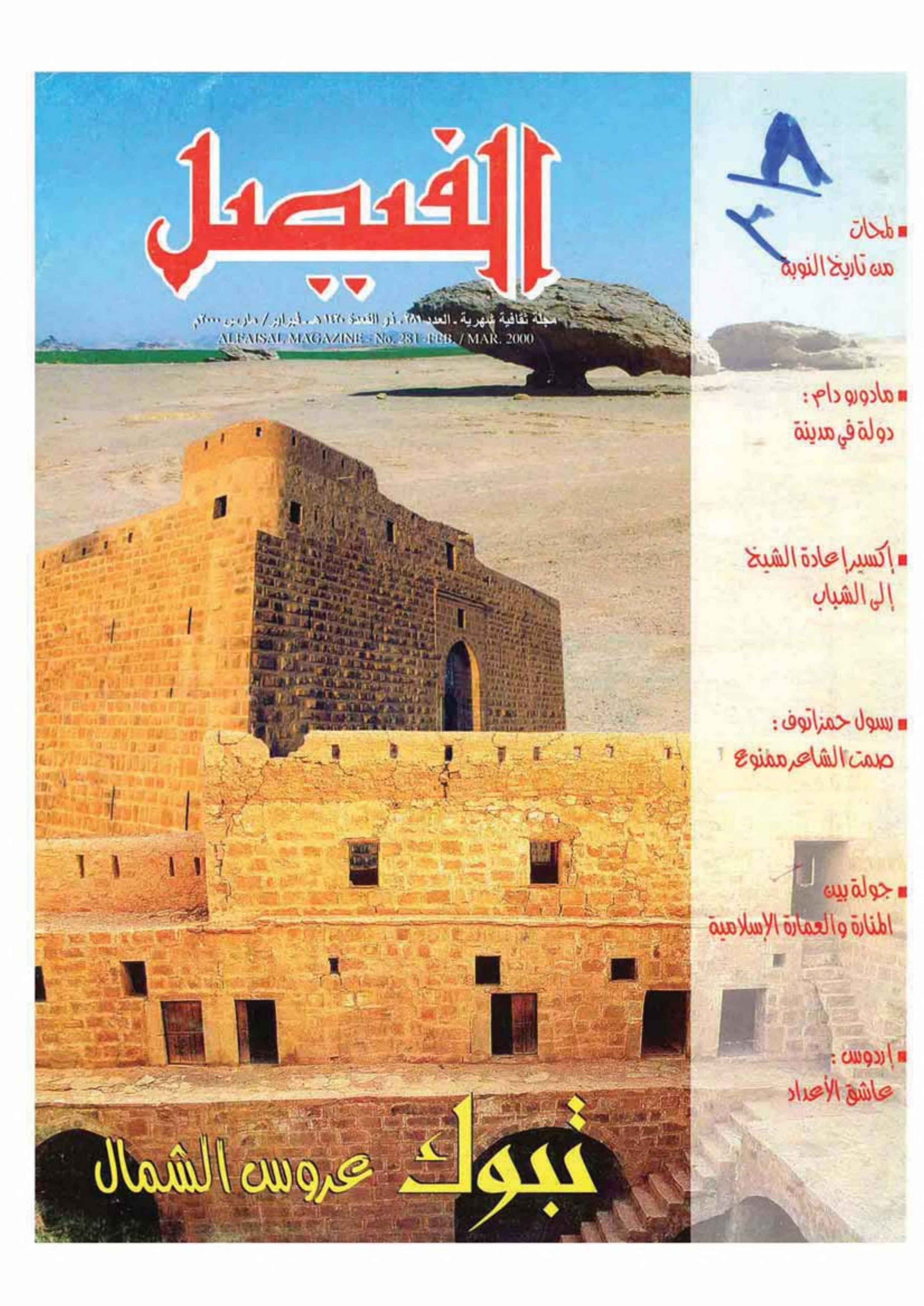

الفيصل
مجلة ثقافية شهرية - العدد ٢٨١ - ذو القعدة ١٤٢٠هـ - فبراير / مارس ٢٠٠٠م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 281 - FEB. / MAR. 2000
■ لمحات من تاريخ النوبة
■ مادورو دام: دولة في مدينة
■ إكسير إعادة الشيخ إلى الشباب
■ رسول حمزاتوف: صمت الشاعر ممنوع
■ جولة بين المنارة والعمارة الإسلامية
■ إردوس: عاشق الأعداد
تبوك عروس الشمال



الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء، والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

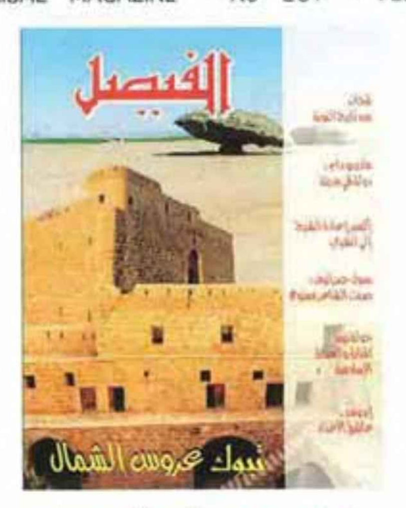
السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع ـ هاتف ٤٧٨٣٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢..، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ ـ ٩٦٣..، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣ نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٢١٦..، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦١٩٨٢ ـ فاكس ٦٦١٨٦٥ ـ ٩٧٤..، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٩٦٢..، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٩٧٣..، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٩٧١..، الجزائر ـ مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة. ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٢١٣..، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٩٦٥..، السودان ـ دار التوزيع العام ـ ص.ب ٣٥٨ هاتف ٧٧٥٥٨٥ ـ فاكس ٧٧٥٧٧٠ ـ ١١ ـ ٢٤٩..، المغرب ـ ٢٤٥٧٤٥ CAS - SOCHPRESS - CAS - CASABLANCA ـ MOROCO TEL: فاكس ٣١/٣٢ ـ ٤٠٤٠٣١ ـ ٢١٢..، باكستان ٥٦٨٣٤٩٤ PARADIS BOOK STALL - KARACHI 3. PAKISTAN TEL: ـ فاكس ٥٦٨٢٧٠٤ ـ ٢١ ـ ٩٢..، الجمهورية اليمنية ـ محلات قائد التجارية ص.ب ٣٠٨٤ الحديدة هاتف ٢١٧٤٤٤ ـ فاكس ٢١١٥٣٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧..، سلطنة عمان ـ المتحدة لخدمة وسائل الإعلام ـ ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت ٧٠٠٨٩٥ / ٧٠٧٩٣٢ ـ فاكس ٧٠٦٥١٢ ـ ٩٦٨..





تبوك: عروس الشمال وبوابته

أهّل الموقع المتميز لتبوك أن تكون موطناً لعدد من الحضارات القديمة مثل البابلية والثمودية والنبطية وغيرها، كما كانت موطن أصحاب الأيكة الوارد ذكرهم في القرآن الكريم، ولا تزال آثار تلك الحضارات باقية إلى اليوم، ومن أهمها قلعة تبوك الشهيرة.
وقد ورد ذكر تبوك في كتب الجغرافيين والرحالين، فماذا قالوا عنها؟وكيف تبدو اليوم؟

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

رسائلكم

قراءة في العدد ٢٧٣

فقد قرأت «الفيصل» عدد ربيع الأول الماضي، واستغرق ذلك مني ليلة ويوماً، كنت خلالهما وبعدهما أشعر بسعادة عظيمة، حملتني على كتابة هذه الرسالة، فعذراً أن حشرت أنفي فكتبت لكم مريداً أن أعبّر للقراء ولكم عن تلك المشاعر.

أدهشني واستنفر بهجتي حسن الطباعة وندرة أخطائها، وأول خطأ طباعي وقعت عليه عيني أو وقع أمام ناظري كان بعد ثلاث وتسعين صفحة، ففي تلك الصفحة عمودها الأول وجدت كلمة «فبيها»، حاولت أن أقلّبها على وجوهها فلم أجد لها وجهاً في مخزون ذاكرتي وعلمي.. فقررت - عفواً - أنها كلمة «فيها» زيدت عليها الباء خطأً غير مقصود.

ووجدت كلمة «في» زائدة فيما كتب تحت صورة المركبة الشمسية المسماة «سوهو».

ووجدت سطرين تكررا في الصفحة التي تحمل الرقم ١١٨ وهما سطران في منتصف العمود الأوسط.

أما الورق المستعمل في المجلة فهو أكثر من ممتاز، حيث إنه غير مصقول. فالمصقول يجعل القراءة صعبة في النور الصناعي.

الموضوعات التي طالعتها غامرة فياضة بالمعلومات وبالثقافة، دسمة الأسلوب، قوية البيان.

إني أستميحكم عذراً بالتعليق على بعض ما قرأت في المجلة..

- **الأبعاد الاجتماعية لنقل التقنية في الوطن العربي:** وأسأل: هل حقاً يحتاج الوطن العربي إلى كل هذه التقنية؟ هل تبنّت مجتمعاتنا الرأسمالية بحذافيرها؟ كم من مالك للحاسوب الشخصي امتلكه واستعمله لسد حاجة ماسة؟

وكثير كثير من مثل هذه التساؤلات، ومع ذلك كله... فالشماغ الذي نفخر به ما كُتب عليه صناعة إنجليزية أصيلة.. وثوبنا الجيد هو ما كان مصنوعاً في اليابان.

وعن قنوات التلفزة الفضائية حدّث ولا حرج، فكم نسبة الذين يتمتعون ببرامج قناة «ديسكفري» ومثيلاتها من المشاهدين الذين يتسمرون أمام قنوات أخرى لاهية ملهية؟

ألم يحن الحين كي تهب «الفيصل» لأخذ الريادة بإنشاء قناة فضائية بالعربية لكل أنحاء العالم.. فتعرض فيها على مدى اليوم والليلة هذه المواضيع المنشورة بالمجلة أعداداً وراء أعداد.

لقد لاحظت أن هناك ثلاثة إعلانات فقط على صفحات المجلة وأيقنت أن دخل الإعلانات ليس أهم ما في ميزانية المجلة.. وكذلك وجب أن تكون القناة الفضائية المقترحة.

- **التكويخ:** لله درّ العرب ما أعظمنا! لله دركم ما أروعكم في المجلة.. فالموضوع الأول تقنية والثاني «تراث»، إني أشدّ على أيديكم.. فخوراً بكم.. صغيركم والكبير فيكم...

- **الحشرات:** كم وددت لو أن المقال تضمن الإشارة إلى النفس الإنسانية السوية تنفر من منظر الحشرات.. ناهيك عن فكرة أكلها.. وإن تكن الحشرات دواء لداء العوز.فلم غفل المترجم عن أنه يمكن أن نحصل على مبتغانا صناعياً.. فمن منا - غير الأطباء والصيادلة - يعلم مم تتكون الأدوية؟

أليس للحشرات دورها في توازن عناصر الطبيعة بقدر مقدور من الله سبحانه وتعالى.. فإذا أكلت فما الذي سوف يحل محلّها؟

وقد يقول قائل: إننا نبيدها.. فأكلها أولى من إبادتها؟ أقول: لو تغيّر الحال.. وكان لابد مما ليس منه بد.. لصارت تربية الحشرات من أوائل اهتماماتنا، ولأنشأنا لها المزارع.

- وأرجو أن تقوم المجلة بتقديم الكاتب بين يدي ما كتب، فالقارئ - حينها - يكون على بيّنة، ويكون صورة عن الكاتب تساعده على إدراك أفكاره.

ولكم وافر الشكر.

محمد خميس حمد

ص.ب ١٩٨٨ - الرياض ١١٣٤٢ - المملكة العربية السعودية.

التحرير:

قراءتك للعدد (٢٧٣) دليل اهتمامك بالمجلة، وبما يطرح فيها من آراء، ومع أنك أشرت إلى قلة الأخطاء، إلا أننا نأمل ألا يكون هناك خطأ من أي نوع، ولكن هيهات أن ينجو عمل بشري من الخطأ والسهو.

أما التنويع في المواد وفي جنسيات كتّابها فهو ضروري لإرضاء أذواق القراء الذين تختلف اهتماماتهم، أما اقتراحكم بإنشاء قناة فضائية، فهو محل تقديرنا ولكن نرى أن هذا الدور تقوم به جهات أخرى مختلفة، نتمنى أن تحقق طموحات المثقف العربي، حيث تتكامل وسائل الإعلام في أداء دورها في تعميق الوعي الثقافي.

هل توقفت عن الصدور؟

أرسل إليكم عن قرّاء المجلة بالسودان سائلين عن مجلتنا: هل توقفت عن الصدور؟ أم أن هناك مشكلة في التوزيع؟ وأيّاً ما كان سبب غيابها فنرجو من سيادتكم العمل على إعادة الحياة إلى أعيننا بقراءتها مرة أخرى. علماً بأن آخر عدد وصل إلينا كان في رمضان ١٤١٩هـ الموافق ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٨م يناير/كانون الثاني ١٩٩٩م. ولكم منا كريم التحيات والدعوات بالتوفيق.

آمال هاشم أحمد البرير

السودان - جامعة أم درمان الإسلامية

كلية اللغة العربية - مركز الطالبات - ص.ب ٣٨٢

التحرير:

نشكر لك اهتمامك بالمجلة وسؤالك عنها، وهي - بحمد الله - مستمرة في الصدور، ومن العجيب أن يكون السؤال عنها من قارئة في العاصمة السودانية؛ لأن مشكلة التوزيع دائماً تكون في الأقاليم، وعموماً هذه المشكلة في طريقها إلى الحل. كما ستتم دراسة زيادة الكميات المخصصة للسودان إن شاء الله.

منهج واع

اطلعت على مجلتكم الغراء فقد أعجبني المنهج الواعي والتبويب الرائع لمجمل القضايا التي تفيدنا في سياق تفاعلنا الحضاري مع الكلمة المسؤولة في مجالات عملنا الإعلامي والثقافي، ودمتم موفقين.

خزعل غازي

قم - ص. ب: ٦٨٩/ ٣٧١٨٥، إيران.

التحرير:

نقدر رأيك في المجلة، ونأمل أن نكون عند حسن ظنكم ونتمنى أن تجدوا فيها ما يفيد.

لغتنا العربية إلى أين؟

إن ما شد انتباهي وأعجبني في مجلتكم الغراء مجلة الفيصل حرصُكم الشديد على المحافظة على اللغة العربية أدباً وشعراً ونثراً وما هذا إلا دفاع عن هذه اللغة لغة القرآن الكريم، التي للأسف الشديد أصبحت دفينة في هذا العصر؛ إذ لم يُعد يُتحدث بها إلا في بعض المحافل، وهذا أمر يحز في نفس كل عربي يحب لغته، وغيور عليها. وليت الأمر وصل إلى هذا الحد بل إلى ما هو أبعد منه. فقد غزا كثير من المفردات الإنجليزية وغيرها لغتنا العربية فأصبح الناس وللأسف الشديد يؤثرون استخدام مفردات أجنبية على المفردات العربية، فعلى سبيل المثال لا الحصر «تلفون TELEPHONE» و«باص BUS» و«تاير TYRE». وغيرها كثير، ومقابلاتها على التوالي هاتف - حافلة - إطار. فهذه الكلمات وغيرها من الكلمات الأخرى تغزو لغتنا العربية يوماً بعد يوم ونحن في سبات عميق عن ذلك.. وقد صعدت يوماً إحدى الحافلات، وقبل شروع الرحلة صعد أحد الأولاد يبيع لباناً «علكاً» فكان يقول: «تشونق قم - CHENING GUM» وهي كلمة إنجليزية، فعندما دنا مني قلت له: هلاّ قلت «علك» أو«لبان» بدل هذه الكلمة فرد قائلاً: لكنهم يعرفون ما أعني، وأدبر يردد كلمته دون أن يأبه لما قلت له، فأسفت كل الأسف لما بدر من هذا الصغير لشيء حزّ في نفسي تجاه لغتنا العربية، وما ذكرته غيض من فيض، فهناك الكثير من الكلمات الأجنبية ولاسيما الإنجليزية غزت وتغزو لغتنا العربية في مجالات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال الجانب الرياضي «خاصة في مصر»، فجل كلمات المعلقين المصريين إنجليزية، فهم يقولون: الكرة في النت NET أي الشباك، وسجل قول GOAL أي هدف، والكرة في السنتر CENTRE أي في المنتصف، وكورنر CORNER أي ضربة ركنية، والكرة مع القول كيبر GOAL KEEPER أي مع حارس المرمى، وشات الكرة SHOT أي ركل الكرة، والكرة مع الكابتن CAPTIEN أي مع قائد الفريق، وضرب الكرة أفر

أي أعلاها، هذا وما خفي أعظم. فحري بنا أن نحافظ على لغتنا؛ وذلك بترك OVER مثل هذه الكلمات غير العربية وعلينا أن نتحدث بها دون تكلف أو تقعر، وقد قال الشاعر:

ولست بنحوي يلوك لسانه

ولكن سليقي أقول فأعرب

فكيف لانحافظ على لغتنا وهي لغة القرآن الكريم، وكلام أهل الجنة، وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أحب العربية لثلاث: لأنني عربي، ولأن القرآن عربي، ولأن كلام أهل الجنة عربي».

إن مهمة المجامع اللغوية اليوم جسيمة جداً، فما دام الناس يؤثرون استخدام كلمات أجنبية لها مقابلات في لغتنا العربية، كما ذكرنا بعضها، فكيف بالمصطلحات الجديدة؟ إن تلك المهمة تكمن في التعريب المباشر لهذه المصطلحات، وهذا يجرني إلى أن القول: ليست مهمة المجامع اللغوية اليوم حمل الناس على استخدام المقابلات العربية بقدر ما تكون مهمتها مواكبة التطورات، ومن ثم مباشرة التعريب بعيد خروج الصناعات من عند غير العرب بمسمياتها غير العربية إلى العالم العربي في شتى المجالات.

أبو عمر عبدالله عامر محمد الجعيدي

موجه مادة اللغة الإنجليزية بالمعاهد العلمية

حضرموت - اليمن

التحرير:

نشكر لك إطراءك، وآراءك القيمة حول ضرورة المحافظة على اللغة العربية، وجميل أن يأتي مثل هذا الرأي من متخصص في اللغة الإنجليزية.

مجلات راقية

بداية أود أن أشكركم جزيل الشكر على الجهد المبذول في سبيل إنجاح هذه المجلة الراقية التي تضم بين طياتها ما لذ وطاب من طيب الكلام وجميل العلوم وراقي المعارف والأعلام، وأتمنى لهذه المجلة الغراء دوام التقدم والتألق، وأتمنى لهذا البلد المعطاء دوام الخير ليعم على وطننا العربي الكبير النور والعلم والهدى والإيمان.

ففي كل فترة تغمرنا السعودية بمجلاتها الراقية، والتي - يا للأسف - معظمها لا يصل إلينا ونتعرف إليها من خلال أشقائنا في السعودية.. لهذا أتمنى من كل أشقائنا العرب السعوديين ألا يبخلوا علينا بتعريفنا بالمجلات التي تصدر في المملكة؛ لأنها حازت على ثقة كبيرة عندنا في سورية، نتتبع كل جديد فيها أنا ونخبة من المثقفين.

كما أشكر لكم عودة زاوية المسابقة، وإن كنت حديثة المشاركة، لكني لست حديثة المتابعة للمجلة.

كل عام وأنتم بألف خير. كما أن الأيام تتسارع معلنة قدوم شهر الهدى والغفران، شهر ذي الحجة فإنني أدعو المجلة أن يكون استطلاعها القادم عن المدن حول مكة المكرمة.

آملين من الله أن يكتب لنا ولكل المسلمين زيارة بيت الله الحرام ومسجد نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وتقبلوا فائق احترامي.

هديل عادل حاضري

حلب - سورية - ص.ب ٧٨٥٦

التحرير:

نشكر لك هذا الإطراء، ونفيدك أن هناك استطلاعاً مصوراً قد نشر عن مكة المكرمة في عدد ذي الحجة الماضي، وعموماً ستجدين في المجلة مقالات تناسب جلال هذا الشهر الكريم، وكل عام وأنت وجميع القراء بخير.

ردود سريعة

الأخ د. خير الله عصار - عنابة - الجزائر:

مهرجان الجنادرية هو المهرجان الوطني للتراث والثقافة الذي ينظمه الحرس الوطني، ويقام سنوياً، ويعنى بإبراز الثقافة الوطنية، وبالقضايا الثقافية والفكرية على المستوى الوطني والعربي والإقليمي والدولي، إذ يشارك في طرحها ومناقشتها أدباء ومفكرون وعلماء من مختلف دول العالم من خلال محاضرات وندوات وأمسيات شعرية وعروض فلكلورية. وانطلاقه في هذا العام في يوم ٢٦ شوال ١٤٢٠هـ الموافق/ ٢فبراير/شباط ٢٠٠٠م، وهو المهرجان الخامس عشر.

وتتم المراسلات على العنوان التالي (ص.ب ٦٨١٨ - الرياض١١٤٥٢ المملكة العربية السعودية).

الأخت لينا محمد أحمد صالح - تعز - اليمن:

بيع «الفيصل» في بعض المناطق بأكثر من سعرها شكوى وردت إلينا من أكثر من جهة، ولذا، فإننا نتجه إلى زيادة الكميات المخصصة للدول التي بها هذه الشكوى؛ لأن توافر المجلة يمنع مثل هذا الاستغلال، كما أن الأمر مرفوع لجهات الاختصاص في تلك الدول.

وسوف تصل إليك بعض الأعداد السابقة التي فاتك اقتناؤها إلى جانب بعض الإصدارات، واقتراحاتك بخصوص تطوير المجلة محل تقديرنا، لكن لا نرى الآن فائدة من استحداث باب خاص للكلمات المتقاطعة؛ لأن هناك وسائل كثيرة لتحقيق ما يحققه مثل هذا الباب من فائدة كما ترين.

الأخوان فضل الله خان سعيدي ومحمد أنعام الرحمن خان - سدهارته نغر - يوتربراديش - الهند:

نشكر لكما اقتراحكما بمد فترة قبول إجابات المسابقة من شهر إلى شهر ونصف الشهر حتى تتمكنا وغيركما في الهند والدول الأخرى من المشاركة فيها، وسوف نأخذ به - إن شاء الله - آملين أن يكون لكما وللإخوة القراء حظ في الفوز بإحدى الجوائز، ومرحباً بكما صديقين للمجلة.

الأخ حبيشي حسن حسين - طنسا - بيا - مصر:

نأسف إذا كان بعض ما أرسلته غير مناسب للنشر، ولكن - كما تعلم - للمجلة معاييرها الموضوعية التي تحكم من خلالها على ما يرد إليها من مقالات، وما نوده هو أن تثق في أن كل ما يرسل إلى المجلة يجد العناية والاهتمام، ونأمل أن تجد إحدى مقالاتك منشورة في المجلة إذا تمت إجازتها وفق ما هو متبع في التقويم.

الإخوة معاذ محمد القريضي - تعز - اليمن، تركي بن عبدالله محمد اليحيا، حميد مصلح الأسد - صنعاء - اليمن:

سوف تصل إليكم الأعداد التي لم تتمكنوا من الحصول عليها، واقتراح الأخ معاذ بإعادة بعض الأبواب سيكون محل نظر، كما أن مشكلة التوزيع في اليمن تمّ حلها، مع العلم أنه لا توجد في المجلة سلة مهملات لرسائل القراء؛ لأننا نحترم كل من يمسك قلماً ليخاطب المجلة، مهما كانت آراؤه.

تبوك
عروس الشمال وبوابته

هاشم الشريف
الرياض - السعودية

يلفت نظر القادم إلى منطقة تبوك - جوا أو برا - من أي جهة كانت تلك المسطحات الخضراء، الممتدة على رقعة شاسعة، التي تحيط بمدينة تبوك إحاطة السوار بالمعصم. وتتخذ تلك المسطحات الخضراء أشكالاً هندسية متنوعة فمنها ما هو على شكل دوائر، ومنها ما هو على شكل مربعات أو مستطيلات؛ مما يبعث في النفس مشاعر مختلفة تتفاوت بين الإعجاب بهذه الإنجازات الرائعة والإكبار للأيادي التي أنتجتها وأوجدتها.

أما المار بقرب هذه المشاريع الزراعية أو بينها فإنه يستغرق بمشاعر وأحاسيس تملأ نفسه بالنشوة والارتياح، وهو يشاهد الرشاشات المحورية تدور بحركة دائرية بطيئة، والماء ينبثق منها رذاذًا ليسقي المزروعات وكأن علاقة حميمية تنشأ بين المزروعات وتلك المحاور التي تمدها بماء الحياة.

والداخل إلى تبوك لابد أن يشعر في أثناء مروره في شوارعها الواسعة الكثيفة الأشجار الوارفة الظلال



أحد ش



وسط تبوك

بملمس تلك النسمة الباردة المنعشة على بشرته، فتنشط روحه، وترهف أحاسيسه.

أما إذا ما تجولت في منطقة تبوك فسترى الماضي بكل ما فيه من أسرار عُرف بعضها ولا يزال أكثرها بحاجة إلى كشفه ودراسته. كما سترى الحاضر بنشاطه وحيويته وتنوعه، وتستشرف المستقبل بما فيه من طموح كبير وآمال عريضة.

الموقع

تقع مدينة تبوك على خط طول ٣٠َ ٤٤ْ وخط عرض ٥٩َ ٢٩ْ. وبهذا فطقسها قريب من طقس حوض البحر المتوسط، حيث الشتاء القارس، والصيف المعتدل.

تضاريس المنطقة

تنقسم منطقة تبوك إلى خمس مناطق رئيسة هي:

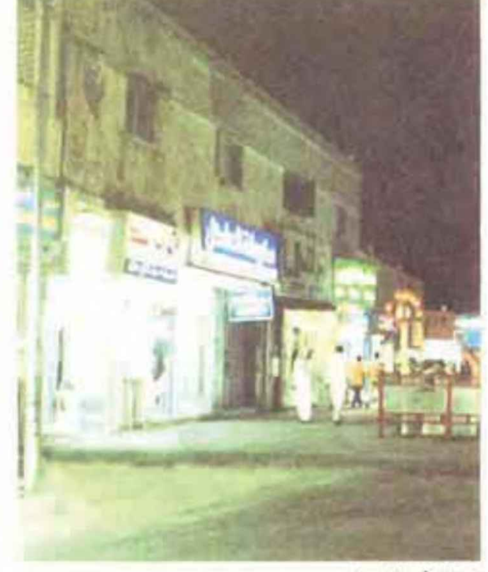
- **تهامة (السهل الساحلي):** وتقع على ساحل البحر الأحمر بعرض يراوح بين ١كم و٥٠كم.
- **جبال الحجاز:** وهي الامتداد الشمالي لجبال السروات الممتدة من جنوب الجزيرة العربية، ومن أشهرها في المنطقة جبل «دبية» بارتفاع يبلغ ٢٣٥٠م، وجبل «جو» البالغ ارتفاعه ٢٥٨٠م. ومن أشهر أوديتها: - وادي عفال، ووادي دوما، ووادي الحمض، وهذه الأودية تصب في البحر الأحمر. أما الأودية المتجهة إلى الداخل فأهمها: الوادي الأخضر.
- **هضبة حسمى:** وتقع إلى الشرق من جبال الحجاز وترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو ١٠٠٠م.
- **الأحواض الداخلية والهضبة المحيطة:** وهي تغطي نصف مساحة المنطقة تقريبًا ويراوح ارتفاع الهضبة بين ١٠٠م و١٠٠٠م. أما الأحواض، وأهمها حوض تبوك، فهي منخفضات تُصرّف فيها مياه السيول والأمطار الداخلية، ولهذا فإنها ذات إمكانات زراعية وفيرة.
- **صحراء النفود الكبرى:** وتقع في شرقي المنطقة.

لوحة على طريق المدينة المنورة تبين المسافات بين تبوك وبعض المدن السعودية

وتتوسط تبوك جغرافيًا منطقة من أهم المراكز الحضرية والتجمعات البشرية منذ أقدم العصور، علاوة على أنها تحتل موقعًا بالغ الإستراتيجية على طريق التجارة قديمًا وحديثًا.

شيء من التاريخ

وبالنظر إلى توافر العناصر اللازمة للإقامة والاستيطان البشري (وفرة المياه، وخصوبة التربة،



تبوك في المساء



مسجد الأمير فهد بن سلطان

والطقس المناسب، وطرق المواصلات السالكة)، فإن تبوك أصبحت مستوطنة بشرية ومركزاً حضرياً ومقراً لبعض الديانات القديمة منذ فجر التاريخ. وكانت جزءاً من حضارات متعددة مثل الحضارات البابلية والثمودية والنبطية وغيرها من الحضارات البائدة. كما كانت تبوك موطن أصحاب الأيكة الوارد ذكرهم في القرآن الكريم والذين بعث الله إليهم النبي شعيباً عليه السلام. وقد ورد اسم تبوك عند بطليموس حيث ذكر اسم موقع يعرف بتباوا THAPAUA تقع عند الحدود الشمالية الغربية لبلاد العرب السعيدة «جغرافيا ٦ «٢٧:٧» ولعل هذا الاسم تحريف لكلمة تبوكا THAPUCUA أو تبوك. ومما يؤيد هذا الرأي انطباق المكانين على الموقع ذاته.

محطة السكة الحديدية الحجازية

وإضافة إلى الأهمية التي تميزت بها تبوك منذ القدم فقد اكتسبت أهمية إستراتيجية بالغة الخطورة مع بزوغ نور الإسلام لوقوعها على التخوم الشمالية الغربية لشبه جزيرة العرب؛ ولقربها الكبير من مناطق النفوذ الروماني في الشام وفلسطين والأردن؛ ولقربها من سيناء حيث بوابة إفريقية (مصر والسودان وشمال إفريقية)؛ ولأن تبوك تتحكم في طرق التجارة بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب؛ ولكونها موقعاً مناسباً لإقامة الجيوش وتجمعها، لهذا كله قرر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم غزو تبوك لما علم بتجمع بعض أعداء الدين الجديد بها بغية الانقضاض على المدينة المنورة عاصمة المسلمين، فكانت غزوة العسرة الشهيرة في السنة التاسعة من الهجرة.

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجد أحداً من أعدائه، فعسكر بها، وبعث الحملات إلى المناطق المحيطة بتبوك لضمها إلى الإسلام، مثل الحملة التي ذهبت إلى دومة الجندل.

ويقال: إن تبوك أخذت اسمها في أثناء إقامة الرسول صلى الله عليه وسلم بها حيث وجد اثنين من الصحابة يدخلان سهميهما في عين ماء تنز بقليل منه بغية توسيعها لتجود بالمزيد. فقال لهما صلى الله عليه وسلم، ما زلتما تبوكان منذ اليوم. فسميت بذلك «تبوك».

وهذا القول ضعيف حيث ورد اسم تبوك عند الأوائل قبل هذا التاريخ.. وكانت تبوك في ذلك العهد تقع ضمن ديار بني عذرة القضاعيين. وقد صالح أهلها الرسول صلى الله عليه وسلم على الجزية مما يعني أنهم كانوا من أهل الكتاب. وقد بقيت تبوك تزداد أهمية عبر العصور الإسلامية المتتالية، فمنها عبرت الجيوش العربية الإسلامية التي فتحت الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقية، وبها مرت تجارة الحجاز واليمن والشام ومصر، وبها استراح الحاج القادم من الشمال. ومما يدل على تزايد أهمية تبوك قيام العثمانيين ببناء إحدى أكبر محطات سكة حديد الحجاز في تبوك. وقلّ أن تجد محطة على امتداد سكة حديد الحجاز بهذا الحجم.

تبوك عند الجغرافيين والرحالين

بينما تعرف تبوك بنهاية حدود الحجاز شمالاً عدّها بعض الجغرافيين آخر أرض الشام جنوباً.

وقال عنها ياقوت في (معجم البلدان): «تبوك موضع بين وادي القرى والشام.(١) وقيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة».

وتبوك بين جبلي شروى شرقاً وحسمى غرباً. وجاء في معجم ما استعجم «أن تبوك أقصى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أدنى أرض الشام»؛ ولهذا فتبوك تعد الحد الفاصل بين الحجاز جنوباً والشام شمالاً.



جادة الأمير فهد بن سلطان (المركز التجاري)

أما أغسطس والن وهو أول الرحالين الغربيين الذين زاروا تبوك وكان ذلك في عام ١٨٤٥م فذكر أن تبوك كانت قرية صغيرة لا يزيد عدد سكانها على (٦٠) بيتًا، نصفهم من العرب من قبيلة الحميدات القرشية بينما كانت البقية تتألف من خليط من الأتراك وغير العرب.

وقال دوتي الرحالة الإنجليزي الذي زار تبوك عام ١٨٧٦م: إن تبوك قرية صغيرة لا يتجاوز عدد بيوتها (٤٠) بيتًا. وكانت حالة سكانها وحاميتها التركية تثير الأسى، لوقوعها في مناطق نفوذ القبائل.

وقد زارها ابن بطوطة في عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م وسمع من الحجاج أن كثرة الماء في عين تبوك إنما جاءت من بركة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويذكرون أن



أحد الشوارع الحديثة في تبوك

النبي صلى الله عليه وسلم دخل هذه الواحة على رأس حملة حربية. فمن عاداتهم إذا وصلوا منزل تبوك يأخذون أسلحتهم، ويجردون سيوفهم، ويحملون على المنزل، ويأبرون النخيل بسيوفهم. ويقيم الحجاج في تبوك أربعة



قلعة تبوك

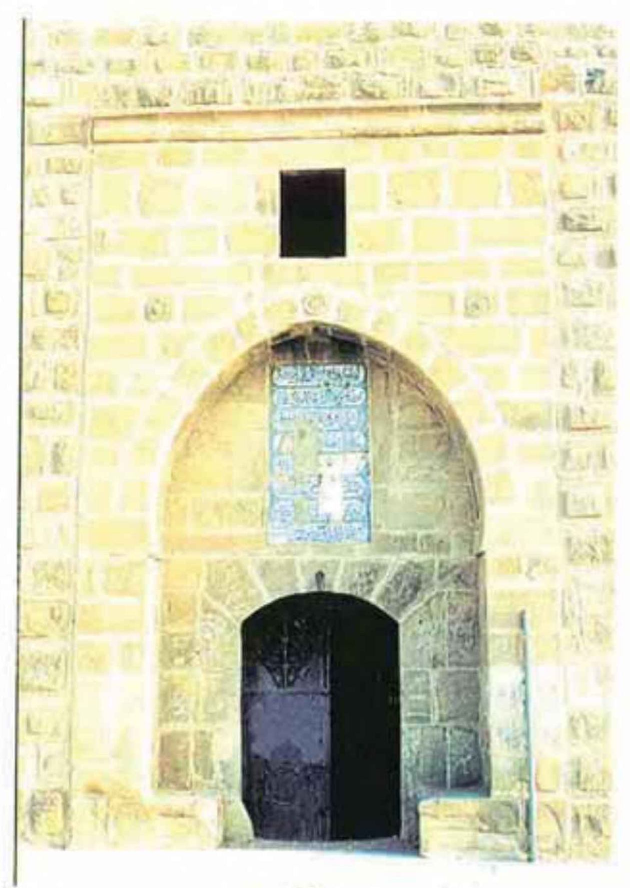
أيام للراحة وإرواء الجمال والاستعداد للرحلة التي بين تبوك والعلا(٢).

بعض المواقع الأثرية في تبوك

في مدينة تبوك وفي نهاية جادة الأمير سلطان (السوق التجاري ومركز المدينة) تقع قلعة تبوك التي يرى الدارسون أنها تعود إلى عصور موغلة في القدم، وهي تقع على مرتفع من الأرض ومبنية من الحجر، وقد جدد بناؤها في العهد العثماني.

ويقول بعض الباحثين: إنها تقع في مكان أصحاب الأيكة الوارد ذكرهم في القرآن الكريم. وتطل على مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي جُدد بناؤه في عهد الملك فيصل رحمه الله بأمر منه عندما زار تبوك. وتطل القلعة كذلك على حوائط عين السكر، وهي العين التي نزل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم في أثناء غزوة تبوك (العسرة) وعلى حوائط النخيل.

ويرجع تاريخ موقع القلعة إلى نحو ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد. والقلعة مربعة الشكل ومكونة من طابقين يحيطان بساحة داخلية. وتحتوي على مصلى وأجنحة وغرف ومستودعات. وقد تهدمت بعض أجزائها وانهارت بعض سقوفها. وهي في حالة مهترئة وتحتاج إلى ترميم وإصلاح. ولعل المسؤولين عنها يولونها ما



باب قلعة تبوك

تستحقه من عناية إما بتحويلها إلى متحف خاص أو مشروع استثماري.

محطة السكة الحديدية وقلاعها

تشغل المحطة مساحة كبيرة وبها ١٢ مبنى سكنيًا وإداريًا إضافة إلى ورشة صيانة خاصة بالقطار، وبئر ماء وخزانات، وقد أصاب مباني المحطة بعض التلف، ولا تحتاج إلى كثير عناء لإصلاحها وإعادتها إلى حالتها الأولى. وقد سمعنا مؤخرًا: أن المحطة قد سلمت إلى مجموعة استثمارية بغية تحويلها إلى مركز نشاط اجتماعي (متنزهات وأسواق وملاه...إلخ) بغية المحافظة عليها والاستفادة منها في الوقت ذاته.

وعثر خلف ملعب الاستاد الرياضي بتبوك على نحو ٩٦ نقشًا نبطيًا تعود إلى الفترة الواقعة بين القرنين الثاني قبل الميلاد والأول الميلادي، وعثر أيضًا على نحو ٦٤٠ نقشًا في أماكن متفرقة حول مدينة تبوك تعود إلى الفترة ما بين القرنين الثالث والأول قبل الميلاد.

أما جبل شرورى فيعد أهم المعالم الأثرية في مدينة تبوك، وهو يقع إلى الشمال الشرقي منها، وقد اشتهر هذا الجبل شهرة واسعة في التاريخ.

وقال الأصمعي: شرورى لبني سُليم. ومما قيل فيه من الشعر:

سقوني وقالوا لا تغنّ ولو سقوا
جبال شرورى ما سقيت لغنت

مدينة تبوك وتوسعها

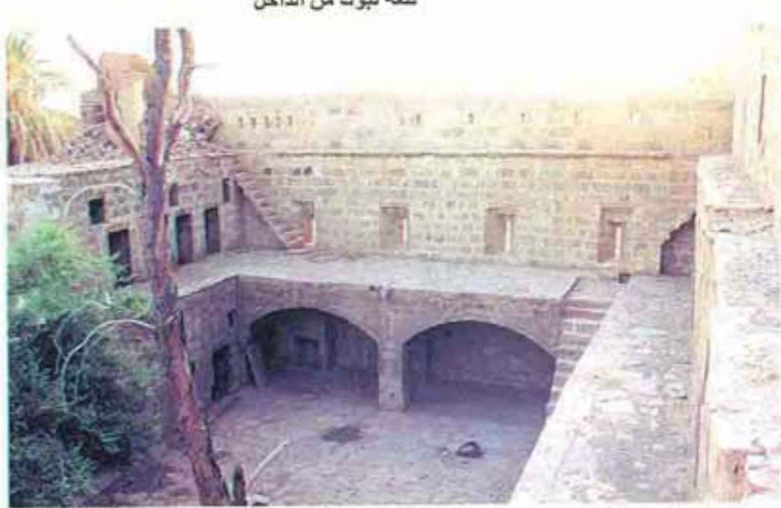
كانت تبوك حتى (٣٠) سنة مضت تتألف من أحياء قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وأهم أحيائها في ذلك الوقت كانت: حي المنشية، وحي الخالدية، وحي العزيزية، وحي أم درمان، وسمي هذا الأخير بهذا الاسم نسبة إلى قاطنيه، حيث كانت غالبيتهم من الجالية السودانية خصوصًا والجاليات الإفريقية عمومًا، إضافة إلى المدن والأحياء العسكرية.

أما اليوم فقد تمدد العمران في تبوك بشكل كبير جدًا، وانضمت عشرات الأحياء الجديدة إليها، ولاتزال المدينة تتوسع بوتيرة متسارعة تجاوبًا مع تسارع نمو النشاطات التجارية والزراعية والصناعيه والاجتماعية وغيرها.

وهي تشهد اليوم تطورًا كبيرًا بوجود المدينة العسكرية، وتعدد الفرص الاستثمارية المتنوعة فيها، خاصة بعد اكتشاف النفط فيها منذ نحو سبع سنوات، فقد اكتشف



قلعة تبوك من الداخل



منظر آخر لقلعة تبوك من الداخل

أول حقل نفط على اليابسة في الجزء الشمالي من ساحل البحر الأحمر في منطقة مدين على بعد ١٥٠كم شمال غربي مدينة تبوك. ويحتوي هذا الحقل على الغاز الحلو والزيت الخام الخفيف(٣).

التعليم في تبوك

للتعليم في تبوك قفزات نوعية يدركها كل من عايشها، وهو آخذ في الانتشار والتوسع وكانت أول مدرسة

حكومية في تبوك قد أسست عام ١٣٥٦هـ، وهي مدرسة ابتدائية سميت باسم «المدرسة السعودية»، ولم يتجاوز عدد طلابها الـ (٤٠) طالباً، ثم أخذ التعليم يتوسع ويتنوع نوعياً واجتماعياً. فنوعياً أخذت المدارس تتنوع فأصبح التعليم الأولي بمراحله المختلفة (ابتدائي ومتوسط وثانوي) إضافة إلى المعاهد والكليات المختلفة التخصصات الدنية والعسكرية. وأما اجتماعياً فقد أخذ تعليم البنات مكانته المرموقة ضمن هيكلية التعليم العام. وأصبح هناك معاهد المعلمات، وكليات البنات، ومعاهد متخصصة، مثل معاهد التمريض وغيرها.



من خيرات تبوك

وفي تبوك الآن أكثر من (٢٥٨) مدرسة خاصة بالبنين يدرس فيها أكثر من (٦٥) ألف طالب. أما مدارس البنات فقد بلغت نحو (٣٠٠) مدرسة تضم أكثر من (٧٠) ألف طالبة.

ومن أهم الكليات والمعاهد الموجودة في تبوك نجد كلية التربية للأولاد وكذلك كلية التربية للبنات، إضافة إلى المعاهد المهنية مثل المعهد الصحي والمعهد الصناعي ومدرسة المدرعات وغيرها.

تجارة عريقة

تبين لنا مما سبق أن موقع تبوك جعل منها مركزاً تجارياً تمر به القوافل من وإلى جميع الاتجاهات داخل الجزيرة العربية وخارجها.

وقد ثبت أن بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا في أثناء غزوة تبوك (العسرة) يمارسون التجارة. ففي رواية خارجة بن زيد أنه قال: رأيت رجلاً يسأل عن رجل يغزو فيشتري ويبيع ويتجر في غزوته. إلى أن قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك نشتري ونبيع وهو يرانا.

وكان للإسلام وقيام كيان موحد في الجزيرة العربية أكبر الأثر في نمو تجارة تبوك، وذلك من خلال مواسم الحج حيث يتاجر الحجيج ويتزودون بالمؤن في ذهابهم وإيابهم، كما كانت الجيوش الإسلامية المغادرة والعائدة تفعل الشيء ذاته.

وبقيت التجارة تنمو وتزدهر، أو تركد وتكسد تبعاً للظروف السائدة على مر الأيام إلى أن جاء خط سكة حديد الحجاز الذي أسهم بشكل واضح في إنعاش تجارة تبوك خاصة والمنطقة عامة. ولكن حدثت النقلة



مشاتل زراعية



زراعة الأعلاف والحبوب في تبوك


عوامل التعرية في الصخور


إنتاج العنب في مزارع تادكو


زراعة الزيتون بمزارع تادكو

الكبرى في العهد السعودي؛ إذ أصبحت تبوك أهم المنافذ البرية في المملكة تمر عبرها تجارة المملكة ودول الجزيرة الأخرى مع بلاد الشام وفلسطين وتركيا ومصر وغيرها. وكان لميناء جبة (ضباء حاليًا) دور بارز في ذلك.

ولعل أحد أهم العناصر التي ساعدت على إنماء التجارة في تبوك هو تأمين الطرق. فبعد أن كانت قوافل التجارة وقوافل الحجيج عرضة للسلب والنهب من قبل الأعراب أصبحت الطرق آمنة الآن، لايتعرض فيها أحد لأحد بأي أذى.

زراعة متطورة

كانت الزراعة في تبوك حتى أواخر القرن الهجري السابق أشبه بمزارع ذات ملكية فردية تزرع وتنتج بعض المحاصيل الضرورية دون أن تكون قادرة على تخطي أسواق المنطقة. ولكن، ومع نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي، أخذت الزراعة نصيبها من النماء والتطور أسوة بالقطاعات الأخرى كافة، فانتشرت الوسائل الحديثة شاملة جميع مراحل الزراعة ابتداء من إصلاح التربة وتجهيزها للزراعة وحفر الآبار، مرورًا بالبذار والغرس، وانتهاء بالحصاد والتوزيع ونقل المحاصيل إلى الأسواق المحلية والخارجية، كما تنوعت



شارع مشاة في سوق تجاري

هذه المحاصيل تنوعاً كبيراً. فمن المنتجات الغذائية إلى أشجار الظل وأشجار الزينة والزهور بأنواعها، إضافة إلى أن بعض المشاريع الزراعية تحولت إلى نشاط مزدوج، فبالإضافة إلى الإنتاج الزراعي اتجه بعضها إلى الإنتاج الحيواني، مثل مؤسسة (أسترا) التي تنتج لحوم الدواجن وطيور المائدة (السُّمان) واللحوم والألبان ومشتقاتها، حيث دخلت تبوك عصر المشروعات الزرعية والحيوانية الكبيرة، نذكر منها - على سبيل المثال - شركة تبوك للتنمية الزراعية (تادكو)، والمؤسسة العربية للتموين والتجارة(أسترا)، ومزارع السيرة.. فهذه المشاريع وغيرها تقوم بدور بارز في ضمان الأمن الغذائي للبلاد جنبًا إلى جنب مع مثيلاتها في المناطق الأخرى، بل وصلت منتجاتها إلى الأسواق العالمية، فأصبحت لاتذكر تبوك إلا ويتبادر إلى الذهن الزهور والمنتجات الزراعية، كالحبوب والفواكه والأعلاف، وكذلك المنتجات الحيوانية، مثل طيور السمان واللحوم والألبان ومشتقاتها.

الصناعة في تبوك

أصبحت الصناعات الحديثة ومنها الصناعات الغذائية ظاهرة ملموسة في تبوك، وهذا شيء بديهي، فإذا ما توافرت المواد الإنتاجية الأساسية أصبح من اللازم قيام صناعات خاصة تعمل على تجهيز المحاصيل الزراعية بدءاً بفرزها وتعقيمها، ثم تعليبها وتغليفها، وانتهاءً بتصديرها.

ومن فروع هذه الصناعات هناك تصنيع المواد الغذائية نفسها كالعصائر والمخللات وغيرها، إضافة إلى تصنيع الأدوات اللازمة لها، كالصناديق

تبوك

تبوك: بالفتح ثم الضم، وواو ساكنة، وكاف: موضع بين وادي القُرى والشام، وقيل بركة لأبناء سعد من بني عُذرة؛ وقال أبوزيد: تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويقال: إن أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم شعيب، عليه السلام، كانوا فيها، ولم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مدين، ومدين على بحر القلزم على ست مراحل من تبوك، وتبوك بين جبل حسمى وجبل شروري، وحسمى غربيها وشروري شرقيها؛ وقال أحمد بن يحيى بن جابر: توجه النبي، صلى الله عليه وسلم، في سنة تسع للهجرة إلى تبوك من أرض الشام وهي آخر غزواته، لغزو من انتهى إليه أنه قد تجمع من الروم وعاملة ولخم وجُذام، فوجدهم قد تفرقوا فلم يلق كيدًا؛ ونزلوا على عين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن لا أحد يمسّ من مائها، فسبق إليها رجلان وهي تبض بشيء من ماء فجعلا يدخلان فيها سهمين ليكثر ماؤها، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما زلتما تبوكان منذ اليوم، فسميت بذلك تبوك؛ والبوك: إدخال اليد في شيء وتحريكه، وركز النبي، صلى الله عليه وسلم، عنزته فيها ثلاث ركزات، فجاشت ثلاث أعين، فهي تهمي بالماء إلى الآن، وأقام النبي، صلى الله عليه وسلم، بتبوك أيامًا حتى صالحه أهلها، وأنفذ خالد بن الوليد إلى دومة الجندل وقال له: ستجدُ صاحبها يصيد البقر، فكان كما قال، فأسره وقدم به على النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال بُجير بن بجرة الطائي يذكر ذلك:

تبارك سابقُ البقرات، إني ... رأيتُ الله يهدي كل هاد
فمن يك حائدا عن ذي تبوك، ... فإنا قد أمرنا بالجهاد

وبين تبوك والمدينة اثنتا عشرة مرحلة، وكان ابن عريض اليهودي قد طوى بئر تبوك لأنها كانت تنطمّ في كل وقت، وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أمره بذلك.

معجم البلدان لياقوت الحموي

دار صادر - بيروت - ج٢ ص١٤.

والحاويات الخاصة بها، إلى جانب الصناعات الخاصة بالإنتاج الحيواني.

كما يوجد في تبوك مصنع خاص بإنتاج الأدوية تم افتتاحه في عام ١٤١٦هـ/١٩٩٦م لتلبية الاحتياجات المحلية والإقليمية من الدواء.

ولهذا المصنع أثر واضح في تأهيل الصناعات ذات العلاقة بالصناعات الدوائية مثل صناعات البلاستيك والورق وصناعات التعبئة والتغليف والصناعات الفنية المتعلقة بأبحاث خطوط الإنتاج وتطويرها.

وتوجد كذلك بعض الصناعات الحيوية بمنطقة تبوك، مثل مصنع الإسمنت في ضباء، إضافة إلى مشروع تربية الأسماك بأملج، في أقفاص عائمة في البحر تنتج (٦٠٠) طن سمك إضافة إلى (٤٠٠) طن روبيان. وهذا المشروع هو الأول من نوعه في المملكة.

وينتظر تبوك مستقبل زاهر حيث الخطط بإيجاد مجالات نشاط متنوع، وتوسيع ما هو موجود وقائم منها، نذكر منها التطلع إلى تطوير السياحة في المنطقة عامة، خاصة أن المنطقة تمتلئ بكثير من المواقع الأثرية، والمستوطنات البشرية المتعاقبة التي لاشك في أن دراستها ستسد فراغًا في التاريخ البشري للمنطقة عمومًا، إضافة إلى طقسها الماتع، وهذان العاملان من أهم عوامل الجذب السياحي.

وإذا ما وجدت السياحة فسيتبعها مشاريع الخدمات السياحية من طرق وفنادق وشاليهات ومتاحف...إلخ.

المراجع

١ - معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.
٢ - الشرق الأوسط، عدد يوم ٦/١٢/١٤١٦هـ.
٣ - الشرق الأوسط، عدد يوم ١٧/١١/١٤١٥هـ.



كاتب التاريخ وقارئه

أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
الرياض ـ السعودية

إن مادة التاريخ هي التسلسل الزمني للأحداث على الأرض، وما يؤثر فيها.. ويشمل ذلك الأحداث الكونية التي لا يد للإنسان فيها، والأحداث التي جعلها الله بوساطة الإنسان. والتاريخ إنما هو تسجيلها كما وقعت، وتفسيرها، والتعليل لها، وتصنيف المواقف والوقائع، واستنباط الحقائق والقيم منها..

ونحن ندرس التاريخ بعامل الشوق وحب الاستطلاع، وندرسه لأنه رافد لكل ذي علم من حقول المعارف البشرية، وندرسه لأنه مرجع لتقويم الحاضر والناظر، وندرسه محايدين في تمحيص وقائعه توثيقاً للثبوت أو النفي، وندرسه غير محايدين في تعليله واستنباط قيمه، بل نكون مشدودين بديننا الذي يعني الإيمان بصدق وعد الله وخبره، وأن ما يجري في التاريخ خلق الله وملكه، وأن صلاح التاريخ مرهون باستقامة سلوكنا؛ لأننا مستخلفون في الأرض؛ و لهذا فالفساد يظهر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، كما أن الساعة وفساد الكون جملة لا يكون إلا بعد نزع الخير كله من جنس الإنسان، وغلبة المسخ عقيدة وقولاً وسلوكاً.. وندرسه بروح المحايدة حقيقة إذا أخذنا كل وجهات النظر، وأقوال وأحداث أطراف النزاع على اختلاف مللهم ونحلهم، وفسرناها، وحكمنا فيها بالعدل.

بحث عن حقيقة غائبة

وفكرة إعادة تدوين التاريخ تعني فكرة إعادة قراءته(١) من كل المراجع المتضاربة؛ لنبحث عن حقيقة غائبة لا يتم التصور بدونها ، ولنمحص نقلاً مستفيضاً قد يمرضه دقة النظر، وينحله كثرة الحك.. هذا هو المعنى لكيفية دراسة التاريخ.

ودور التاريخ قائم أبداً في كل لحظة، وإنما نطلب دوره إذا احتجنا لشاهد حقائقه في أربعة ميادين:

أولها: إذا أردنا أن نسلك في حاضرنا سلوكاً تاريخياً في مواقف يكون فيها التاريخ حجة وأسوة كاستحياء سير الأنبياء عليهم الصلاة و السلام والصالحين والمربين.

وثانيها: إذا أردنا أخذ حكم الحاضر من الغابر عند اتحاد ظروف وأحوال الوقائع.

وثالثها: إذا أردنا أحكام السنة الكونية لنسير بها توقعنا للناظر.

ورابعها: إذا أردنا الاستشهاد بكينونة واقعة لنا أو علينا.. وهاهنا دور التوثيق (مصطلح التاريخ)؛ لمعرفة صحة الواقعة من جهة حدوثها، وهاهنا أيضاً دور الفكر العلمي (الفقه التاريخي)؛ لمعرفة صحة دلالتها على المراد.

وقبل التاريخ المدون منذ خمسة آلاف سنة فاتنا معرفة معظم الوقائع إلا ما صح من خبر شرعي أخبر به معصوم ، أو شاهد حسي منظور يعطي يقيناً أو رجحاناً.. ودعك من «الميتافيزيقيات» التاريخية التي فاتت التجربة كتقدير أعمار بعض الموجودات ببلايين السنين: مما لا تقره الأديان الإلهية، ولا يعتبر علماً تجريبياً.. وفاتنا كثير من وقائع الأمم البدائية البدوية التي كان التدوين فيها نزراً.. وأما الأمم الحضارية ذات التاريخ المدون كعصور


ابن خلدون

التاريخ الإسلامي الجهورية: فيفوت منها وقائع جزئية، ولكن الاهتمام الجماعي بما يقبل الحصر يدل على أن جمهرة التاريخ محفوظة وإن كانت مفرقة في كتب التخصصات المختلفة ، متدافعة بين أهل المذاهب والأهواء، غير مستعصية على التحقيق عند ذوي الأهلية. وأهم شيء يجب العلم بأنك لن تعرفه في التاريخ هو العلم بأن الحقائق ليست جاهزة في مرجع واحد، أو عند أهل مذهب واحد.. بل حقيقة التاريخ

موجودة لكنها موزعة تُجمع بالمناقيش من بين المذاهب و الأهواء؛ حيث يوجد مؤرخون يحلو لهم الافتيات على التاريخ وتزييف حقائقه وأحداثه بانتقائه دون وعي بعملية الإنتاج التاريخي!. والمزيف يملك بحريته غير الخلقية تسويد الورق، ولا يملك عقول البشر الذين سيقرؤون.

والتاريخ فن له علومه وأصوله ومنطقه المأخوذ من الفكر والحس واللغة.

علم سهل وصعب تقبله

إن التاريخ وقائع منقولة، وعلاقات بين الوقائع بتنصيص نقلي أو استنباط عقلي.. والتاريخ تفسير للأحداث ببيان مدلولها، وتعليل لوجودها بالبواعث والغايات.. ثم إن التاريخ بعد ذلك حكم في الأحداث و أصحابها، والمؤرخ يشمل مدون التاريخ وقارأه(٢) إذا استمد منه في تدوين معارفه أو في تحديثه بها. والتاريخ في قراءته علم يسهل يستمتع به السمار، ولكن الصعب تقبله.. وتقبله أو رفض تقبله عن علم وجهد هو القراءة النقدية ، ولا يصمد لذلك إلا تشمير عالم مؤهل علمياً وفكرياً.

والميدان الرابع الذي ذكرته آنفاً هو أجل الميادين؛ لأنه توثيق للواقعة قبل البناء عليها.. والعلماء مجمعون على أن التاريخ دخلته الأهواء، وفيه الكذب من أجل السمر، وفيه الوهم والخطأ.. كما أنهم يؤمنون بأن ما نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك.. ولكنهم أيضاً مؤمنون بوجود المعايير التوثيقية التي تجعل الإيمان بوقوع الحدث يقيناً، أو رجحاناً، أو احتمالاً متكافئاً يقتضي التوقف.. وهكذا تكون درجة الإيمان بنفي وقوعه.

يوضح الإيمان الأول بقابلية التاريخ للتزوير وجود دواعي التزوير من أهل الأهواء والكذب والخطأ، وهو وجود من طبيعة البشر ماثل في حياتهم إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم الساعة؛ فقدر الله الكوني قضى باختلاف الخلق، ومع الاختلاف تكون دواعي التزوير.

ويوضح الإيمان الثاني عن وجود المعيار أمران:

أولهما: وجود ثمار هذه المعايير ظاهرة كونية دائمة، وقد فسرها الإمام أبو محمد ابن حزم بقوله: «ومن الملوك من يشتد عليهم وصف أسلافهم بالجور والظلم والقبائح، ويحمي هذا الباب بالسيف فما دونه؛ فما انتفعوا بذلك في كتمان الحق.. وقد نقل ذلك كله، وعرفت (٣) فضائل من تغضب ملوك الزمان من مدحه كفضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.. ما قدر قط ملوك بني مروان على سترها وطيها.

وقد رام المأمون والمعتصم والواثق (على سعة ملكهم لأقطار الأرض) قطع (٤) القول بأن القرآن غير مخلوق فما قدروا على ذلك.

وكل نبي فله عدو من الملوك والأمم يكذبونهم ؛ فما قدروا قط على طي أعلامهم، ولا على تحقيق ما زادوا على ذلك لمن يغضب له من لا دين له»(٥).

وثانيهما: أن للمؤرخين مصطلحاً في كتابة التاريخ وقراءته(٦) كمصطلح علماء الحديث في توثيق النقل.. إلا أنهم لم يلتزموا الإسناد المتصل إذا كان الحدث عن أشياء لأبناء عصر المؤرخ، أو عن أشياء سبقت عصر المؤلف إلا أن أبناء وحفدة معايشي الحدث موجودون، والنقل عندهم موجود بإسناد متعدد استغنوا عنه بالاستفاضة والتواتر؛ فما لم يدفع الحدث معاصرو المؤلف ومن هم قريبون من عصره فالأصل فيه الصحة.

ومهمة القراءة التاريخية النقدية أشد مشقة من كتابة التاريخ؛ لأنه لا بد من استيعاب المصادر متفقة أو متعارضة، ولا بد من استيعاب المصادر المساعدة مما ليس تاريخاً محضاً مع طرد مقاييس نقد المتن من أجل نقد النقل مما تكفل به علم مصطلح الحديث رحم الله من ألفه.

معايير المؤرخ قارئاً وناقداً

وأطرح هاهنا مسألة نكبة البرامكة؛ لتسفر عن بعض معايير المؤرخ قارئاً ناقداً؛ فحدث النكبة نفسها واقعة يقينية لم يختلف الناس في ثبوتها ، وإنما الخلاف في تعليلها.. وادعاء وقوع أحداث أخر تسوغ هذا الحدث: فتلك الأحداث حصل الاختلاف في صحة وقوعها، أو في صحة ارتباطها بحدث النكبة؛ فمن تلك الأسباب المسوغة لوقوع الحدث الأول (حدث النكبة) زواج جعفر البرمكي من العباسة، أو ثبات أن لهم أبهة أثارت غيرة هارون الرشيد، أو أنهم مستمرون على زندقة لإفساد الدين، أو أنهم مستمرون على تدبير للإطاحة بالحكومة العربية الإسلامية.. إلى غير ذلك من تعليلات.

وتعليل النكبة معلوم مسبقاً أنه عرضة للهوى وترك الحياد، ولكن القراءة النقدية لا يحرجها الخوف من طرح الحياد في التعليل ؛ لأن النقد يفترض غياب الحياد؛ ولذلك نعمل معايير التوثيق عن وقوع تلك الأحداث إثباتاً أو نفياً؛ فإذا صح وقوع الأحداث أعملت معايير الفكر (الفقه التاريخي) في التفسير.. وأمور الفكر مستدركة بين المفكرين.

وعلى افتراض صحة وقوع الأحداث التي عُلل بها وقوع النكبة يكون مجال الفكر التاريخي التحقيق في صحة العلاقة بين تلك الأحداث وحدث النكبة؛ فينظر: هل هارون الرشيد ممن يغار على الدين فيبطش بالبرامكة جملة من أجل ذلك، وهل أنفة الرشيد الهاشمي من مصاهرة غير العربي تدفعه إلى البطش بجميع الأسرة، ولماذا أرجأ البطش بهم؟.

ويدخل في التعليل الحكم والتقويم؛ فيتساءل القارئ الناقد: هل كان الرشيد مصيباً في فعلته بالبرامكة، وهل عاقبهم بأكثر مما يستحقون؟.. فإذا جاء قارئ يبكي بكاء رومانسياً على البرامكة، ثم صح التوثيق التاريخي أنهم أخذون بأطراف الخلافة الإسلامية؛ لسحب البساط من تحت هارون وإعادتها كسروية ، وأن الخليفة ما علم إلا بعد تمكنهم واستبدادهم: فسيتحول البكاء الرومانسي عليهم إلى أناشيد ثناء على هارون، وسيعلم سر تأجيل النكبة؛ ليقتنصهم بأناة وحذر قبل أن يفاجؤوه، وقبل أن تنقسم الدولة إلى راية إسلامية عربية وراية فارسية لا يدري أيهما الغالب.

وهذا النقد حق متاح للعلماء على اختلاف مللهم ونحلهم ليس ملكاً لمؤرخ غير محايد؛ وفي هذا يسقط أثر عدم الحياد المدعى أنه آفة تاريخية.. إلا إن كان الحياد عن ضرورات الفكر كما يفعل السوفسطائيون الحسيون:

فهؤلاء لهم تعامل في المنطق أعمُّ من معايير النقد التاريخي. وإذا كان كاتب التاريخ منهماً بأنه غير محايد فالتهمة أيضاً واقعة على قارىء ذي أهواء.. ولكن الفاصل معايير علمية مشتركة بين ذوي العلم والفكر.

الخلاف في الحكم بين القارئ والكاتب

ويتسع الخلاف في تفسير الحدث وتعليله -وإن كان التفسير والتعليل بطرق التوثيق التاريخي، وقوانين الفكر المشتركة -: لأن المفكر قد تضعف لاحيته؛ فيرجح أحدهم المرجوح.. وربما رجح المرجوح عمداً لأمر خارجي داخل في عقائده ومسلماته.

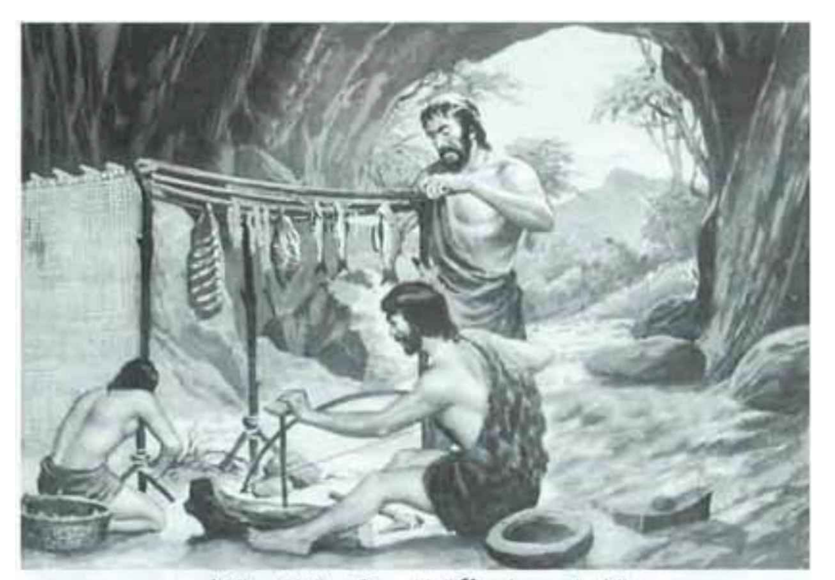
وهكذا الحكم التاريخي يتسع الخلاف فيه بقدر هوة الخلاف ديناً أو نحلة بين قارئ التاريخ وكاتبه؛ فالقارئ المجوسي أو الشعوبي لن يحكم للرشيد بالرشد إذا قرأ قصة نكبة البرامكة بقلم عالم فقيه أصولي محدث مفسر كالقاضي أبي بكر ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم (٧).. ويظل الخلاف ملياً ونحلياً في حكم ما وقع، والخلاف هنا ليس معطى تاريخياً من الواقعة وتفسيرها إلا بقدر ما يشهد به المشترك من التوثيق النقلي، والفكر التاريخي.. أما الأمر التاريخي الصريح فهو ما وقع، وذلك هو نكبة البرامكة؛ فهي واقعة باعتراف المسلم والمجوسي.

والأمر التاريخي الصريح تفسير النكبة بالسعي إلى هدم الخلافة؛ فالفاصل بين الطرفين طرق التوثيق التاريخي.. أما تضليل الرشيد بعد صحة سعي البرامكة في هدم الخلافة فأمر مرتقب من كل عدو للخلافة؛ فإن حصل عكسه فهو من التَّقِيَّة، أو الإنصاف النادر.

والثنائية بين قارئ التاريخ وكاتبه تضع في نصابها المعادلة بين أهل دين أو نحلة من طبعهم الصدق والإنصاف، وبين أهل دين أو نحلة من طبعهم الكذب والجور.

ومن طرق التوثيق الداخلة في نقد المتن لنقد الرواية النظر في قابلية الظرف للحدث، وللمؤرخ ابن خلدون استقراء في هذا الجانب أخذه عن الإمام ابن حزم رحمهما الله.. قال ابن خلدون «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جمُّ الفوائد، شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم؛ حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا؛ فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب: فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق. وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع؛ لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار؛ فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط؛ ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات؛ إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر؛ ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد.. وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل، وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمئة(٨) ألف أو يزيدون.. ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش.. لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها.. تشهد بذلك العوائد المعروفة، والأحوال المألوفة.

ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها، وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد؛ فكيف يقتتل هذان الفريقان، أو تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر.. والحاضر يشهد لذلك؛ فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء(٩).



التاريخ مرجع لمعرفة الماضي وتقويم الحاضر والناظر

ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير.. يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم، والتهامه بلادهم، واستيلائه على أمرهم، وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس.. يقال: إنه كان مرزبان المغرب من تخومها، وكانت ممالكهم

بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والأبواب أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير.. ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه، وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مئة وعشرين ألفاً كلهم متبوع على ما نقله سيف.. قال: وكانوا في أتباعهم أكثر من مئتي ألف. وعن عائشة والزهري: أن جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفاً كلهم متبوع.

وأيضاً فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم؛ فإن العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك من الكتاب الأول. والقوم لم تتسع ممالكهم إلى غير الأردن وفلسطين من الشام، وبلاد يثرب وخيبر من حجاز على ما هو المعروف.

وأيضاً فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون؛ فإنه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث (بفتح الهاء وكسرها) بن لاوي (بكسر الواو وفتحها)، بن يعقوب (وهو إسرائيل الله).. كذا نسبه في التوراة. والمدة بينهما على ما نقله المسعودي.. قال: دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً؛ وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مئتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة.. ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد. وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضاً؛ إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً؛ فإنه سليمان بن داوود بن إيشا بن عوفيذ (ويقال: ابن عوفذ) بن باعز (ويقال: بوعز) بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب (ويقال: حميناذاب) بن رم بن حصرون (ويقال: حسرون) بن بارس (ويقال: بيرس) بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام.. ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم إلى المئين والآلاف فربما يكون، وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد.. واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً، ونقلهم كاذباً.

والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة، وأن مقرباته كانت ألفاً وأربعمئة فرس مرتبطة على أبوابه.. هذا هو الصحيح من أخبارهم، ولا يلتفت إلى خرافات العامة منهم.. وفي أيام سليمان عليه السلام وملكه كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم(١٠).

ولوع النفس بالغرائب

وقال: «هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه، وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى، أو أخذوا في: إحصاء أموال الجبايات، وخراج السلطان، ونفقات المترفين، وبضائع الأغنياء الموسرين: توغلوا في العدد، وتجاوزوا حدود العوائد، وطاوعوا وساوس الإغراب.. فإذا استكشف أصحاب الدواوين عن عساكرهم، واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم، واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم: لن تجد معشار ما يعدونه.. وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب، وسهولة التجاوز على اللسان، والغفلة على المتعقب والمنتقد؛ حتى لا يحاسب نفسه على خطإ ولا عمد، ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة، ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش؛ فيرسل عنانه، ويسيم في مراتع الكذب لسانه، ويتخذ آيات الله هزواً، ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله.. وحسبك بها صفقة خاسرة.

قدر الله الكوني قضى باختلاف الخلق، ومع الاختلاف تكون دواعي التزوير

ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب: أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب، وأن إفريقش بن قيس بن صيفي من أعاظم ملوكهم الأول (وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل) غزا إفريقية وأثخن في البربر، وأنه الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم، وقال: ما هذه البربرة.. فأخذ هذا الاسم عنه، ودعوا به من حينئذ.. وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها، ومنهم صنهاجة وكتامة.. ومن هذا ذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبيلي إلى أن صنهاجة وكتامة من حمير.. وتأباه نسابة البربر، وهو الصحيح.

وذكر المسعودي أيضاً أن ذا الإذعار من ملوكهم قبل إفريقش (وكان على عهد سليمان عليه السلام) غزا المغرب ودوخه، وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده، وأنه بلغ وادي الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكاً لكثرة الرمل؛ فرجع.

وكذلك يقولون في تبع الآخر وهو أسعد أبو كرب، وكان على عهد يستاسف من ملوك الفرس الكيانية: إنه ملك الموصل وأذربيجان، ولقي الترك فهزمهم وأثخن، ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك، وإنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه: بلاد فارس، وإلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر، وإلى بلاد الروم؛ فملك الأول البلاد إلى سمرقند، وقطع المفازة إلى الصين؛ فوجد أخاه الثاني الذي غزا سمرقند قد سبقه إليها؛ فأثخنا في بلاد الصين، ورجعا جميعاً بالغنائم، وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير؛ فهم بها إلى هذا العهد.. وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها(١١) ودوخ بلاد الروم ورجع.

وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة.. وذلك أن ملك التبابعة إنما كان في جزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها؛ فبحر الهند من الجنوب، وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من المشرق، وبحر السويس الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصور الجغرافيا؛

فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقاً من غير السويس، والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما: ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله.. هذا ممتنع في العادة. وقد كان بتلك الأعمال العمالقة و كنعان بالشام والقبط بمصر.. ثم ملك العمالقة مصر، وملك بنو إسرائيل الشام؛ ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال.

وأيضاً فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة، والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة؛ فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا إلى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه، ولا يكفي ذلك للأزودة وللعلوفة عادة.. وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله؛ فلا بد أن يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها؛ لتكون الميرة منها.

وإن قلنا: إن تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة: فذلك أبعد و أشد امتناعاً؛ فدل على أن هذه الأخبار واهية أو موضوعة.

وأما وادي الرملة الذي يعجز السالك: فلم يسمع قط ذكره في المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طرقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة .. وهو على ما ذكروه من الغرابة تتوافر الدواعي على نقله(١٢). وأما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك(١٣) وإن كانت طريقه أوسع من مسالك السويس إلا أن الشقة هنا أبعد، وأمم فارس والروم معترضون فيها دون الترك. ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم (وإنما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الأعمال، وقد وقع ذلك بين ذي الإذعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية، وبين تبع الأصغر أبي كرب ويستاسف منهم أيضاً ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم) (١٤) بمجاوزة أرض فارس بالغزو إلى بلاد الترك والتبت، وهو ممتنع عادة من أجل الأمم المعترضة منهم، والحاجة إلى الأزودة و العلوفات مع بعد الشقة كما مر؛ فالأخبار بذلك واهية مدخولة.. وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحاً فيها (١٥)، فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح.

وقول ابن إسحق في خبر يثرب و الأوس والخزرج: إن تبعاً الآخر سار إلى المشرق: محمول على العراق وبلاد فارس. وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم إليها بوجه لما تقرر؛ فلا تثقن بما يلقى إليك من ذلك، وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه.. والله الهادي إلى الصواب»(١٦).

قال أبو عبد الرحمن: وقبله الإمام ابن حزم قال: «وفي السفر الرابع ذكر: أن عدد بني إسرائيل الخارجين من مصر، القادرين على القتال (خاصة من كان ابن عشرين سنة فصاعداً) كانوا ستمئة ألف مقاتل وثلاثة آلاف مقاتل وخمسمئة مقاتل، وخمسين مقاتلاً.. وأنه لا يدخل في هذا العدد من كان له أقل من عشرين ولا من لا يطيق القتال ولا النساء جملة، وأن عددهم إذ دخلوا الأرض المقدسة ستمئة ألف رجل، وألف رجل، وسبعمئة رجل وثلاثون رجلاً.. لم يعد فيهم من له أقل من عشرين سنة، وأن على هؤلاء قسمة الأرض المغنومة، وعلى النساء وعلى من كان دون العشرين أيضاً.

وفي كتبهم أن داود عليه السلام أحصى في أيامه بني إسرائيل فوجد بني يهوذا خاصة خمسمئة ألف مقاتل، ووجد التسعة الأسباط الباقية (حاشا بني لاوي وبني بنيامين فلم يحصهما) ألف ألف غير ثلاثين ألفاً سوى النساء، وسوى من لا يقدر على القتال من صبي أو شيخ أو معذور.. وكل هؤلاء إنما كانوا في فلسطين والأردن وبعض عمل الغور فقط، والبلد المذكور بحالته كما كان لم يزد باتساع ولا نقص.

وفي كتبهم أيضاً أن إبيا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام قتل من العشرة الأسباط من بني إسرائيل خمسمئة ألف رجل، وأن ابنه اثنيا بن إبيا كان معه من بني يهوذا خاصة ثلاثمئة مقاتل ومن بني بنيامين خاصة اثنان وخمسون ألف مقاتل. قال أبو محمد رضي الله عنه: البلد المذكور باق لم ينقص ولا صغرت أرضه، وحده بإقرارهم في الجنوب غزة وعسقلان ورفح وطرف من جبال الشراة بلد عيسو.. ولا خلاف بينهم في أنهم لم يملكوا قط قرية فما فوقها من هذه البلاد، وأنهم لم يزالوا من أول دولتهم إلى آخرها محاربين: مرة لبني إسرائيل، ومراراً عليهم.

وحد ذلك البلد البحر الشامي، وحده في الشمال صور وصيدا وأعمال دمشق التي لا يختلفون في أنهم لم يملكوا قط منها مضرب وتد، وأنهم لم يزالوا من أول دولتهم إلى آخرها محاربين لهم ـ فمرة عليهم، ومرة لهم ـ وفي أكثر ذلك يملكون بني إسرائيل،

حقيقة التاريخ موجودة لكنها موزعة تُجمع بالمناقيش من بين المذاهب و الأهواء

ويسومونهم سوء العذاب.. ومرة يخرج بنو إسرائيل عن ملكهم فقط.

وحد البلد المذكور في الشرق بلاد مواب وعمون وقطعة من صحراء العرب التي هي الفلوات والرمال.. ولا خلاف بينهم في أن نص توراتهم: أن الله تعالى قال لموسى وبني إسرائيل: إلى هنا لا تحاربوا بني عيسو، ولا بني مواب، ولا بني عمون؛ فإني لم أورثكم من بلادهم وطأة قدم فما فوقها؛ لأني قد ورثت بني عيسو وبني لوط هذه البلاد، كما ورثت بني إسرائيل تلك التي وعدتهم بها.. وأنهم لم يزالوا من أول دولتهم إلى آخرها يحاربونهم؛ فمرة يملكهم بنو عمون و بنو مواب، ومرة يخرجون عن رقهم فقط.

وطول بلاد بني إسرائيل المذكورة بمساحة الحلفاء(١٧) المحققة من عقبة أفيق (وهي على أربعة وخمسين ميلاً من دمشق إلى طبرية) ثمانية أميال، (وهي جبل

أفرايم).. إلى الطور اثنا عشر ميلاً.. إلى اللجون اثنا عشر ميلاً. إلى علمين.. عندها ينقطع عمل الأردن.. ومبدأ عمل فلسطين ميل واحد.. إلى الرملة نحو أربعين ميلاً.. إلى عسقلان ثمانية عشر ميلاً.. وموضع الرملة هو كان آخر عمل بني إسرائيل؛ فذلك ثلاثة وسبعون ميلاً. وعرضه من البحر الشامي إلى أول عمل جبل الشراة، وأول عمل مواب، وأول عمل عمون: نحو ذلك أيضاً. وعمل صغير شرقي الأردن يسمى الغور فيه مدينة بيسان يكون أقل من ثلاثين ميلاً في ثلاثين ميلاً ولا يزيد.

وكان هذا العمل الذي بشرقي الأردن بزعمهم وقع لبني رؤوبين وبني جاد ونصف بني منسى بن يوسف عليه السلام؛ لأنه كان يصلح لرعي المواشي، وكان هؤلاء أصحاب بقر وغنم.. فاعجبوا لهذا الكذب الفاحش المفضوح، وهذا المحال الممتنع: أن تكون المساحة المذكورة تقسم أرضها على عدد يكون أبناء العشرين منهم فصاعداً خاصة أزيد من ستمئة ألف؛ فأين من دون العشرين، وأين النساء.. والكل(١٨) بزعمهم أخذ سهمه من الأرض المذكورة ليعيش من زرعها وثمرتها؟.

واعلموا أنه لا يمكن ألبتة أن يكون في المساحة المذكورة - على أن تكون مساحة كل قرية ميلاً في ميل مزارعها ومشاجرها - إلا ستة آلاف قرية ومئتا قرية.. هذا على أن يكون جميع العمل المذكور عمراناً متصلاً: لا مرج فيه ولا شجر، ولا أرض محجرة لا تعمر، ولا أرض مرملة كذلك، ولا سبخة ملح كذلك.. وهذا محال أن يكون. فعلى هذا يقع لكل قرية من الرجال المذكورين مئة رجل أو نحو ذلك سوى من هو دون العشرين منهم، وسوى النساء.. ولا سبيل ألبتة على هذا أن يدركوا فيها المعاش، وهذا كذب لا خفاء به.. ولا سيما إذ بلغوا ألف ألف مقاتل وخمسمئة مقاتل سوى من لا يقاتل، وسوى النساء. أين هذا الكذب البارد من الحق الواضح في قوله تعالى حاكياً عن فرعون أنه قال إذ تبع بني إسرائيل: إن هؤلاء لشرذمة قليلون: الشعراء: ٥٤. هذا الذي لا يجوز غيره، ولا يمكن سواه أصلاً. وكذبة أخرى، وهي أنهم ذكروا في كتاب يوشع: أن البلد المذكور كان فيه من المدن في سهم بني يهوذا مئة مدينة وأربع مدن، وفي سهم بني شمعون سبع عشرة مدينة، وفي سهم بنيامين ثمان وعشرون مدينة، وفي سهم بني زبلون اثنتا عشرة مدينة، وفي سهم بني نفتالي تسع عشرة مدينة، وفي سهم بني دان ثماني عشرة مدينة؛ فذلك مئتا مدينة، واثنتان وست وثلاثون مدينة. قال الكتاب المذكور: سوى قراها... لا يحصيها إلا الله عز وجل. وذكر فيه: أنه وقع لنصف بني منسى بن يوسف بشرق الأردن بثنان

إذا كان كاتب التاريخ متهماً بأنه غير محايد فالتهمة أيضاً واقعة على قارئ ذي أهواء.. ولكن الفاصل معايير علمية مشتركة بين ذوي العلم والفكر

وعملها، وأن مدائنهم المحصنة ستون مدينة سوى قراها.. لا يحصيها إلا الله.. فالمجتمع من هذه المدن المذكورة ثلاثمئة مدينة غير أربع مدن.. ولم يذكر عدد مدائن بني رؤوبين ولا عدد مدائن بني جاد، ولا عدد مدائن نصف بني منسى الذي بغرب الأردن، ولا مدائن بني أفرايم.

وهذه الأسباط التي لم تذكر مدنها تقع على ما توجبه توراتهم في الربع من جميع بني إسرائيل.. يقع لهم على هذا الحساب نحو مئة مدينة.. إذا ضمت إلى العدد الذي ذكرنا فتمام الجميع نحو أربعمئة مدينة؛ فاعجبوا لهذه الشهرة أن تكون البقعة التي قد ذكرنا مساحتها على قلتها وتفاهتها تكون فيها هذه المدن. وقد ذكر أن نصف سبط بني منسى الذين وقعوا بشرقي الأردن، ووقع في حظهم ستون مدينة: كانوا ستة وعشرين ألف رجل مقاتلين كلهم ليس فيهم ابن أقل من عشرين سنة.. والعمل باق إلى اليوم لعله اثنا عشر ميلاً في مثلها.. ما رأيت أقل حياء من الذي كتب لهم تلك الكتب المبدولة، وسخم بها وجوههم.. ونعوذ بالله من الضلال»(١٩).

قال أبو عبدالرحمن: وبقية النقاط التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته يمكن تتبع أكثرها من الفصل (٢٠).

الوقوع في مهواة من الغلط

ويدخل في قابلية الحدث ما روي من الإزراء بالحجاج؛ لأن أباه معلم صبيان!.. وقد رفض ابن خلدون هذا الحدث بأسلوب بليغ، ولماحية تاريخية أصيلة؛ لأن الظرف الزماني لا يقبل هذه الدعوى.. قال: «فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين، ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها؛ فيجريها لأول وهلة على ما عرف، ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيراً؛ فيقع في مهواة من الغلط؛ فمن هذا الباب ما ينقله المؤرخون من أحوال الحجاج، وأن أباه كان من المعلمين.. مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية، والمعلم مستضعف مسكين، منقطع الجذم؛ فيتشوف الكثير من المستضعفين - أهل الحرف والصنائع المعاشية - إلى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل، ويعدونها من الممكنات لهم؛ فتذهب وساوس المطامع، وربما انقطع حبلها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف، ولا يعلمون استحالتها في حقهم، وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش.. وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك، ولم يكن العلم بالجملة صناعة، وإنما كان نقلاً لما سمع من الشارع وتعليماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ؛ فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا وجه التعليم الصناعي؛ إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم، وبه هدايتهم، والإسلام دينهم.. قاتلوا عليه وقتلوا، واختصوا به من بين الأمم وشرفوا؛ فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للأمة.. لا تصدهم عنه لائمة الكبر، ولا يزعهم عاذل

الأنفة.. ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين.. بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم؛ فلما استقر الإسلام، ووشجت عروق الملة؛ حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدي أهلها، واستحالت بمرور الأيام أحوالها، وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص؛ لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج(٢١) ذلك القانون لمن يحفظه من الخطإ، وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم؛ فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما سيأتي ذكره في فصل العلم والتعليم.. واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان؛ فدفع للعلم من قام به من سواهم، واختص انتحاله بالمستضعفين، وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية والملك.. والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم، ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت، ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش، وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام»(٢٢).. وإلى مناسبة أخرى، والله المستعان.

الهوامش والمراجع

(١) [illegible]

(٢) قال أبو عبد الرحمن: من [illegible] في الرسم الإملائي [illegible] الهمزة [illegible] على الألف [illegible] الكلمة [illegible] الرسم والترقيم [illegible] الطابع العصرية.

(٣) [illegible]

(٤) [illegible]

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل [illegible] الكلام [illegible]

(٦) قال أبو عبد الرحمن: [illegible] لا مسوغ لكتابة [illegible] الهمزة في وسط السطر [illegible]

(٧) [illegible]

(٨) [illegible]

(٩) [illegible]

(١٠) تاريخ ابن خلدون [illegible]

(١١) [illegible]

(١٢) [illegible]

(١٣) [illegible] علامة [illegible] الجملة المعترضة [illegible]

(١٤) [illegible]

(١٥) [illegible]

(١٦) تاريخ ابن خلدون [illegible] ١٣.

(١٧) [illegible]

(١٨) قال ابن درستويه [illegible]: كل وبعض معرفتان [illegible] الألف واللام [illegible] معنى الإضافة أضفت أو لم تضف.. [illegible] الجوهري في الصحاح، وفي العباب قال أبو حاتم: قلت للأصمعي: [illegible] ولا تدخل الألف واللام [illegible] لأنهما معرفة بغير ألف ولام.. قال أبو حاتم: وقد استعمله [illegible] من كلام العرب [illegible].. قال: والذي يسامح في ذلك من المتأخرين يقول: فيهما معنى الإضافة أضفت أو لم تضف [illegible] الألف واللام (أي أداة التعريف) لأنهما في الأصل مضافة فهي معرفة بالإضافة لفظاً أو تقديراً، فلا تقبل تعريفاً آخر خلافاً لابن درستويه والزجاجي؛ [illegible] في العباب: وقد خالف ابن درستويه الناس قاطبة في عصره، وقال النادي:

فتى درستوي إلى خفض
أخطا في كلٍّ وفي بعض
دماغه عفّنه نومه
فصار محتاجاً إلى نقض

قال أبو حاتم: قلت للأصمعي: رأيت في كتاب ابن المقفع: العلم كثير [illegible] ولا تدخل الألف واللام [illegible] لأنهما معرفة بغير ألف ولام.. وفي القرآن العزيز: وكل أتوه داخرين. النمل: ٨٧. قال أبو حاتم: لا تقول العرب الكل ولا البعض [illegible] فإنه ليس من كلام العرب.. انتهى.. قال شيخنا: [illegible] قلت: وقال الأزهري: النحويون أجازوا الألف واللام في بعض وكل [illegible] الأصمعي [illegible] عوض عن المضاف إليه [illegible] مؤول بالجزء، وهو يدخل عليه «ال» فكذا ما قام مقامه، وعرف [illegible]

قال أبو عبد الرحمن: من التعليل في منع دخول «ال» على كل وبعض أنهما معرفتان بغير الألف واللام [illegible] الإضافة [illegible] الألف واللام. ومن التعليلات: أن تعريفهما أصلاً لا يحصل بغير الإضافة؛ لأن فيهما معنى الإضافة [illegible] أضفت أو لم تضف.

قال أبو عبد الرحمن: أما أن فيهما معنى الإضافة على التقديرين فصحيح؛ لأنه لا معنى الكل إلا [illegible]

وأما أن التعريف لا يحصل بمعرّف ينوب عن الإضافة، وهو «ال» [illegible] محصورة [illegible] ثابت «ال» عن الإضافة. ومن التعليلات: أن التعريف بال لم يسمع من العرب.

قال أبو عبد الرحمن: [illegible] وليس كل كلمة [illegible] معنى الإضافة [illegible] الألف واللام [illegible] نظره، وأما المجيز فحجته أن معنى الإضافة باق وإن عرفت بالألف واللام؛ لأن الألف واللام عوض عن الإضافة [illegible] صحيح [illegible] فيهما معنى الإضافة أضفت أو لم تضف.

ومن التعليل أن القرآن جاء بالإضافة. قال أبو عبد الرحمن: جاء تعبير القرآن الكريم [illegible] في القرآن الكريم [illegible] القرآن جمع كل كلام العرب، وما أخبره الله سبحانه بأن القرآن الكريم ضامن لذلك.

(١٩) الفصل ١/٢٦١ـ٢٦٤، وانظر ١/٢٦٧ـ٢٧٣/ تحقيق عميرة، [illegible] فيه فصول كثيرة [illegible]

(٢٠) قال أبو عبد الرحمن: بدل أن يرجع ابن خلدون إلى التوراة رجع إلى المسعودي في سرد الأحداث، ثم أخذ [illegible] ابن حزم [illegible]

(٢١) طبعات تاريخ ابن خلدون غير محققة، ولعل الصواب: احتاج، بدون [illegible] لأن الجملة جواب [illegible]

(٢٢) تاريخ ابن خلدون ١/٣٠ـ٣١.

العلماء والبحث العلمي

خيري عبدالغني محمود
الشرقية - مصر

إن البحث العلمي هو أحد الأنشطة الفعالة والبالغة التأثير في حياتنا، ويتزايد هذا التأثير باطراد نتيجة الترابط المتنامي بين العلم والتقانة (التكنولوجيا)، وذلك بتطبيق نتائج البحوث البحث لإنشاء تقنيات جديدة وتطويرها لتسهم في إعادة رسم أسلوب حياتنا.

ومن المفارقات العجيبة أن العلماء يسلكون دروبا ومسالك مختلفة ومتباينة جدا، وقد يبدو أول وهلة أنها عقيمة، ولكن الاكتشافات العظيمة كثيرا ما تتبدى في الوقت الذي يظن فيه الباحث أن بحوثه قد أشرفت على النهاية، ومن هنا يوضح جيمس واطسون أحد مكتشفي تركيب DNA أن تقدم العلم نادرا ما يتم بالطريقة المستقيمة المنطقية التي يتخيلها من لا يعمل في حقل العلم، ولكن خطواته أماما أو خلفا في بعض الأحيان، هي حوادث إنسانية تماما تؤدي فيها الشخصيات والتقاليد والثقافة أدوارا مهمة(١).

ولما كانت وسائل الاكتشافات العلمية هي متباينة جدا فإن من المنطقي أن يكون القائمون على هذه الاكتشافات مختلفي الميول والنزعات والدوافع. ويمكن تمييز أربعة أصناف متباينة من المكتشفين والباحثين على النحو التالي:

- الصناع المهرة الذين تتبدى لهم الاكتشافات عرضا في أثناء عملهم اليومي، وبوحي من خبراتهم الشخصية أو المكتسبة يتمكنون من تحسين أدواتهم.

وقد استقى الإنسان الكثير من معارفه بهذه الطريقة، ولا تزال بعض فنون الزراعة مثلا كما هي منذ آلاف السنين كما توارثناها من أجدادنا.

وفي عصرنا الراهن يقوم المهندسون بهذا الدور، فالمهندس يجمع في مهنته بين المعرفة النظرية والخبرة العملية نتيجة طبيعية لتكوينه العلمي وعمله المهني، ومعنى ذلك أن المهندسين لم يظهروا إلى حيز الوجود إلا في ظل اقتران العلم بالتقانة. ومنذ ذلك الحين وهم يؤدون دورا بالغ التأثير في حياتنا، ولنضرب على ذلك مثالا بالمهندس كارل بوش من شركة الأصباغ البافارية، الذي استمع في عام ١٩٠٩م إلى فكرة نظرية للكيميائي الألماني هابر بشأن تصنيع النشادر، وفي عام ١٩١٢م كان بوش ينتج النشادر بانتظام في مصنعه الذي أنشأه لهذا الغرض(٢).

- علماء يشتغلون بالعلم لكونه يتيح لهم فرصة إظهار مواهبهم الخاصة إضافة إلى كونه وسيلة للتسلية الذهنية، حيث تكتشف الظواهر الجديدة على أيدي هواة أثرياء غالبا، سعيا إلى مكانة مرموقة، أو لإشباع حبهم للاستطلاع، ونهمهم للمعرفة، مثل أول الكيميائيين العرب خالد بن يزيد بن معاوية الذي زهد في الخلافة لشدة ولعه بالكيمياء، ومثل الماركيز ورشستر في القرن السابع عشر الذي أجرى بحوثا جديدة آنذاك عن الاحتراق وطبيعته.

- علماء يعدون العلم وسيلة للمعيشة، كما يكشف عن ذلك سلوك عدد منهم، على الرغم من نفيهم القاطع لذلك، حتى الفيزيائي الإنجليزي الشهير إسحاق نيوتن الذي كان كثيرا ما أظهر أن الرغبة في العلم هي حافزه إلى العمل، ما ان حصل علي وظيفة مرموقة نتيجة لشهرته العلمية حتى توقف عن إجراء أية بحوث وتجمد إنتاجه العلمي(٣).

وفي عصرنا الراهن تزايد عدد العلماء والباحثين الذين يرون العلم مهنة مستقلة أنشئت لها الهيئات والمصالح الخاصة بها.

- علماء يقصرون أنفسهم على العلم كلية، وهم قلة، ولكنهم يساهمون بنصيب وافر في الإنجازات العلمية يفوق قلتهم العددية. ومن هؤلاء أبو الريحان البيروني الذي وصفه مؤرخ العلم القديم جورج سارتون بأنه أعظم أكابر الحضارة الإسلامية، فبعدما أنهى البيروني تأليف كتابه «القانون» الموسوم بالمسعودي، أهداه السلطان حمل ثلاثة جمال من القطع الفضية تقديرا لمجهوده في الكتاب، غير أن البيروني اعتذر عن قبول الهدية لكونه ألف كتابه من أجل العلم لا المال(٤).

وحينما حضرته الوفاة، عاده أحد الفقهاء، فسأله البيروني عن مسألة، فقال له الفقيه إشفاقا عليه: أفي هذه الحالة؟! فرد عليه البيروني: يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها؟!

فأجابه الفقيه عن سؤاله، ولم يكد يخرج من عنده حتى سمع الصراخ!!(٥).

وكذلك رفض بنيامين فرانكلين تسجيل حقوق اختراعاته لمصباح الأمن؛ لأن غايته الوحيدة كانت خدمة الإنسانية.

وكان الفيزيائي الإنجليزي هنري كافندش يتحاشى الناس قدر جهده، فيتناول طعامه من فتحة في جدار حجرته حتى لا يضطر للتحدث مع أحد، وحتى يقل توقفه عن العمل إلى أقل حد. وقد تمكن من اختراع المكثفات الكهربائية، وبها تمكن من اكتشاف السعة الكهربائية وقياسها، ولكنه عزف عن نشر نتائج أبحاثه حتى أعاد فاراداي اكتشافها(٦).

وقد أسهم كل صنف من هؤلاء العلماء بنصيب وافر في تقدم العلم بحيث أنه لو أقصينا إنجازات بعضهم لوجدنا أن الصرح العلمي الضخم الذي نحيا في ظلاله قد حال إلى بناء مهدم، فاقدا كثيرا من أعمدته.

دور الخيال في العلم

لقد تمتع أبرز العلماء على مر الأزمان بالخيال الخصيب الذي مكنهم في الكثير من الأحيان من إكمال الأجزاء المفقودة من الصورة التي قدمتها لهم تجاربهم وأبحاثهم. لقد أكد ذلك الفيزيائي والفيلسوف الأمريكي توماس كون، ورأى أن مدى النتائج المتوقعة سلفا من إجراء أي تجربة هو مدى ضئيل بالقياس إلى المدى الذي يمكن أن يرسمه الخيال(٧).

كما يرى الفيزيائي الإيرلندي جون تيندال أن انتقال نيوتن من تفاحة ساقطة إلى قمر ساقط، هو عمل من أعمال الخيال المتأهب. ومن بين الحقائق الكيماوية استطاع خيال دالتون البناء أن يشيد النظرية الذرية(٨).

ولكن ينبغي الحذر من الخيال الشارد، فليس كل ما يطرأ على أذهاننا صحيحا، وعلى حد تعبير عالم الإحياء الإنجليزي تشارلز داروين فإن الطبيعة سوف تكذب علينا أكذوبة مباشرة إذا استطاعت ذلك(٩).

ومن هنا يحذر عالم الطبيعة الفرنسي رينيه أنطوان ريمور من أن علماء الطبيعة، بما في ذلك المخلصون منهم، بإمكانهم غش المشاهدات بما يتلبسها من تخيلات. وهو يضرب مثالا على ذلك ببعض مشاهدات جودبير التي أفضت به إلى استنتاج أن بعض الحشرات يمكنها تفريخ حشرات من أنواع مختلفة(١٠). ويرى الفيزيائي التجريبي جوهان رينر مكتشف الأشعة فوق البنفسجية أن أجمل الأفكار غالبا ما تكون مجرد فقاعات مملوءة بغاز الهيدروجين الذي يضفه خيالنا الجامح لتعلو وترتفع بسرعة قبل أن ندرك أن كل ما تظهره من ألوان بهيجة ليس إلا انعكاسا لمحتواها الخادع(١١).

ونجد أن باحثا حصيفا مثل هيكسلي يرسم أسلوب عمله بقوله: إن مهمتي هي تدريب الأماني على التكيف مع الواقع، لا محاولة تنسيق الوقائع حسب هذه الأماني، وعلى الإنسان أن يجلس بين يدي الواقع كطفل صغير، وأن يكون على استعداد تام للتخلي عن جميع أفكاره السابقة، وأن يتبع الطبيعة بتواضع حيثما تقوده، وإلا فلن يتعلم شيئا(١٢).

لقد أدى الركون إلى الأفكار الشائعة في الكثير من الأحيان إلى تعطيل ظهور الحقائق العلمية. فعلى سبيل المثال رفض بعض معارضي جاليليو مشاهدة الأقمار الأربعة التي رصدها بالتلسكوب وأعلن أنها تدور حول كوكب المشتري! لأنهم كانوا يعرفون من التراث الإغريقي - وفقا لنموذج بطليموس الفلكي - أن كل الكواكب والنجوم تدور حول الأرض فقط، ومن ثم فإن ما يظهره هذا التلسكوب لابد أن يكون محض خداع!!

كما أن مذهب كوبرنيكوس عن النظام الشمسي لم يحول غير عدد قليل من العلماء عن معتقدهم في صحة النظام البطلمي على مدى نحو قرن من الزمان بعد وفاته. وفي بعض الأحيان لم تقتصر معارضة الأفكار الجديدة على مجرد رفض هذه الأفكار، بل تعدت ذلك إلى أبعاد خطيرة، كما حدث مع جيوردانو برونو الذي كان قد أعلن أن الكون لا نهائي، ويحتوي على كواكب لا حصر لها مثل كوكب الأرض، فما كان من السلطة الكنسية في روما إلا أن حكمت عليه سنة ١٦٠٠ بالإعدام حرقا بتهمة «السحر والكفر»!!

وقبل ذلك بعدة قرون تعرضت هيباتيا لمثل هذا الاضطهاد.



تشارلز داروين



بنيامين فرانكلين

وهيباتيا هي ابنة «ثاون» أحد علماء الإسكندرية المبرزين الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي، وهو الذي شرح كتاب بطليموس الشهير «المجسطي». ثم راجعت هيباتيا شرح أبيها على المقالة الثالثة وما يليها، وربما يرجع إليها طريقة جديدة في القسمة الستينية أقرب إلى طريقة البابليين، وهي بصفة عامة أول من اشتغل من النساء بالرياضيات.

وكانت هذه العلوم المستمدة من التراث الإغريقي تعد آنذاك من الوثنيات. وعندما تولى القديس كيرلس أسقفية الإسكندرية سنة ٤١٢م عزم على إنهاء التعاليم الوثنية بالمدينة، وفي عهده، وبالتحديد سنة ٤١٥م، جرر جمع من الغوغاء المسيحيين هيباتيا إلى الكنيسة، وهناك عروها تماما ومزقوها إربا!!(١٣).

والواقع أن تاريخ العلم زاخر بعدد من هذه الأمثلة المأساوية لمعارضة الأفكار الجديدة، أو التعصب الأعمى للمفاهيم الشائعة أو المتوارثة جيلا عن جيل. ولكن، بفضل قدرة الحقيقة العلمية على إثبات نفسها من دون اللجوء إلى السلطة، ومن دون الحاجة

الشخصية، وإنما ببراهينها الواضحة، وحججها الداحضة، فإن أمثال هذه المعارضات تذهب أدراج الرياح، سواء عن طريق إقناع خصومها، أو بمقدم جيل جديد يكون على ألفة مع الحقيقة الجديدة.

وجهان من الصعوبات

وعلى خلاف معارضة السلطة أو عوام الناس للعلم، فإنه يتعين على الباحث مواجهة وجهين آخرين من الصعوبات التي تعوق تقدم العلم، وهما واقعان داخل إطار الممارسة العلمية ومؤسساتها المرجعية:

أولهما: صعوبات تعترض الباحث في أثناء إجراء بحوثه، مثل القدرة على اقتناص بوادر الاكتشافات الجديدة التي تكون على قدر من المراوغة بحيث يصعب اقتناصها.

ثانيهما: صعوبات متعلقة باعتراف المجتمع العلمي بالاكتشافات الجديدة التي تبدو غير متوائمة مع النماذج القياسية لمعرفتنا العلمية، وفيما يلي نجمل هذه الصعوبات:


اسحق نيوتن — رونتجن

- اقتناص الاكتشافات الجديدة:

إن العناية بأبسط البوادر، وملاحظة أدنى انحراف في سلوك الطبيعة عما هو متوقع، لهي إحدى سمات أفضل العقول الباحثة؛ فكم من الاكتشافات كان من الممكن أن تتسرب من بين أيدي العلماء لو لم يكونوا متأهبين لاقتناص البوادر التي سنحت لهم، وبحث ما يبدو منها مبشرا.

لقد كانت هناك على الأقل سبع عشرة فرصة سانحة أمام الفلكيين لاكتشاف كوكب أورانوس - فيما بين عامي ١٦٩٠ و ١٧٨١ - حيث شاهد عدد من أبرز الفلكيين آنذاك «نجما» في موقع يفترض الآن أن أورانوس كان يشغله آنذاك بالضرورة، دون أن يفطن أحد منهم إلى حقيقة ما يرى. وبعد نحو اثني عشر عاما شاهد الفلكي الإنجليزي وليم هرشل النجم ذاته فحدس على وجود شيء غريب بين النجوم، وأرجأ حكمه ريثما يجري المزيد من المراقبة الدقيقة لهذا النجم مما أفضى به إلى اكتشاف حركته وسط النجوم الثابتة من حوله، ولينتهي له بذلك اكتشاف الكوكب الجديد آنذاك «أورانوس»(١٤).

وكان الكيميائي الفرنسي لويس باستور يتمتع بقدرة مرهفة على دقة الملاحظة، وقد استرعى انتباهه أن مرض الجمرة Antharx وهو مرض بكتيري معد يصيب الماشية والأغنام، وينتقل منها بالملامسة إلى الإنسان، فيصيبه ببثور خبيثة تتميز عصياته البكتيرية بالقدرة على الكمون عدة سنوات، بحيث تعود إلى الحقول نفسها بعد فترات انقطاع عدة سنوات صامدة بذلك للمؤثرات الجوية المختلفة طوال هذه المدة.

وبينما كان لويس باستور يقوم بجولة بين الحقول لاحظ وجود بقع في التربة يختلف لونها عن لون التربة المحيطة بها، ولما استفسر عن ذلك من الفلاحين علم أن الأغنام التي ماتت بالجمرة في العام السابق قد دفنت في هذه المواضع.

ولاحظ باستور أيضا وجود عدد من نفايات ديدان الأرض فوق سطح هذه التربة، وهنا طرأت على ذهنه فكرة مضمونها أن هذه الديدان في أثناء تجوالها المتواصل بين الأعماق والسطح تحمل معها الجراثيم الكامنة للمرض. وللتحقق من هذا الفرض، قام بتلقيح أحد الأرانب بمادة مستخلصة من الطين الموجود به الديدان، فأصيب الأرنب بالجمرة. وكان هذا تفسيرا حاسما للغز كمون المرض، بفضل الملاحظة الثاقبة للعالم الفذ(١٥).

ولا يمكن أن نعزو هذا الكشف إلى المصادفة فقط، لأن هذه المصادفة سنحت لكثيرين غير باستور الذي كان يتمتع بالملاحظة الثاقبة، والقدرة العلمية اللتين قادتاه إلى هذا الكشف. ويؤكد عالم الأحياء الأسترالي وليم بيفردج أنه من أنصاف الحقائق أن يشار إلى الاكتشافات غير المتوقعة على أنها نتاج المصادفة، فلو كانت هذه الاكتشافات قد تمت بطريق المصادفة فحسب لأمكن لأي باحث غير متمرس أن ينتج بقدر ما أنتج باستور أو بيكريل(١٦).

وعلى حد تعبير باستور: فإن المصادفة لا تخص بمآثرها سوى العقل المتأهب. ويرى شارل نيكول: أن المصادفة لا تقبل إلا على من يعرف كيف يغازلها(١٧).

وعندما اكتشف فلهلم رونتجن الأشعة السينية - مستخدما أجهزة الأشعة المهبطية Cathod Rays التي كانت منتشرة في عدد من معامل أوربا في نهاية القرن التاسع عشر، فلابد أن عددا من الباحثين قد مرت عليهم الظاهرة نفسها التي حدت بيرونتجن إلى الكشف، دون أن تسترعي انتباههم، ومن هؤلاء وليم كروكس الذي أزعجه رؤية لوحات التصوير وقد تضببت على غير ما هو متوقع (نتيجة لأشعة X) لدرجة أنه أعاد بعضها إلى المصنع شاكيا من عدم صلاحيتها(١٨).

وبعد ذلك بخمسة عشر عاما وجد رونتجن في هذه الظاهرة ما هو جدير بالمتابعة والدراسة، وبذا تم له الكشف المهم الذي كان من الممكن أن ينساب من بين أصابعه كسابقيه، لولا تمتعه بهذه القدرة المرهفة على اقتناص الفرص السانحة.

- معارضة المجتمع العلمي:

يزخر تاريخ العلم بالأفكار والاكتشافات التي ماتت لحظة ولادتها نتيجة لعدم اعتراف المجتمع العلمي بها، ذلك لأن العلم ليست له صفة الفردية التي يتمتع بها الفن، بل هو في حاجة إلى

اعتراف المجتمع به، ويعبر عن ذلك عالم الفسيولوجيا التجريبي كلود برنار بإيجاز بليغ [الفن هو أنا، أما العلم فإنه نحن](١٩).

ولذلك يرى توماس كون «أن الحقيقة والنظرية العلمية غير قابلتين للانفصال بصورة مطلقة إلا داخل إطار خاص للممارسة العلمية القياسية التي رسخ بنيانها على إنجازات الماضي العلمية، التي يعترف بها مجتمع علمي محدد فترة زمنية، بأنها تشكل الأساس لممارسته العلمية القياسية(٢٠).

ولذلك فإن الاكتشافات الجديدة غير المتوائمة مع هذه النماذج القياسية للعلم تحظى بمعارضة هائلة، وكما يصرح شيللر فإنه عندما يحظى كشف ما - في النهاية - باعتراف متأخر، يتضح عادة أنه قد اسنبق، وأن استباقه كان في كثير من الأحيان مدعما ببراهين قوية وتفاصيل متعددة(٢١).

ففي عام ١٨٤٥م كتب ووتر ستون بحثا عن النظرية الجزيئية للغازات مستبقا به عددا من أبحاث جول وكلوزيوس وماكسويل، ولدى عرضه على الجمعية الملكية علقت عليه بأنه «محض هراء».

وظل البحث مطمورا في زوايا النسيان إلى أن بعث بعد ذلك بخمسة وأربعين عاما. أما ووتر ستون فقد اعتزل الحياة قانطا، واختفى دون أن ينم عليه أثر(٢٢).

ولقد تعرض جيمس واطسون وفرانسيس كريك للإخفاق مرارا في أثناء عملهما في كامبردج في البحث عن تركيب DNA - مادة الوراثة الأساسية - فقد تم فصل واطسون من منحته بسبب تغييره لمجال بحثه، وبعد حصوله على منحة أخرى، سارع وكريك إلى إعلان نتائج مبكرة عن تركيب DNA سرعان ما تبين أنها نتائج خاطئة؛ مما أدى إلى إقصائهما عن البحث في مجال تركيب DNA. وبعد أن استقرت أحوالهما من جديد، عاودا البحث في المجال نفسه ولكن خفية؛ وذلك على الرغم من أنه لم يكن من المؤكد آنذاك مدى أهمية DNA، لذلك فقد كان إصرارهما على البحث فيه بالذات مخاطرة كبيرة، كان من الممكن أن تكلفهما - حال إخفاقهما - مستقبلهما المهني كله، فقد كان تقدم كريك في بحثه لنيل درجة الدكتوراه عن البروتينات يسير بمنتهى البطء، كما كانت بحوث واطسون عن التزاوج في البكتيريا لا تحظى برضا لجنة المنح؛ وذلك نتيجة لانشغالهما بموضوع تركيب DNA(٢٣).

إذن كان الإخفاق يحيط بهما من كل ناحية، لدرجة أنهما وصفا بأنهما «مهرجا العلم» ولكن قبيل ربيع ١٩٥٣م تمكنا من تحقيق قصب السبق لمعرفة تركيب لولب DNA المزدوج.

ولو لم يتحليا بالقدرة على تحمل استخفاف الآخرين بهما، لما تمكنا من تحقيق هذا الكسب العلمي المهم الذي قادهما في عام ١٩٦٢م إلى السويد حيث تسلما جائزة نوبل، وسجلا اسميهما في سجل رواد العلم بسطور من ذهب.



باستور

المراجع

١. جيمس واطسون: اللولب المزدوج/٩. ترجمة د. أحمد مستجير. د. محمود مستجير. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢م. القاهرة.
٢. ج.ج. كراوثر: صلة العلم بالمجتمع. ج٢/١٥٢. ترجمة حسن خطاب. سلسلة الألف كتاب ٢٢١ب. القاهرة.
٣. كراوثر / ١٦٨
٤. عبدالحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب / ٥٧. دار المعارف ١٩٩٠م. القاهرة.
٥. أحمد سعيد الدمرداش: البيروني / ٨. دار المعارف. ١٩٨٠م. القاهرة.
٦. كروثار /١٦٧.
٧. توماس كون: بنية الثورات العلمية/٧٣. ترجمة/شوقي جلال. سلسلة عالم المعرفة. كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٢م. الكويت.
٨. وليم ايان بيفردج. فن البحث العلمي/ ١٠١. ترجمة زكريا فهمي. سلسلة الألف كتاب ٤٥٤ . ١٩٦٣ . القاهرة.
٩. بيفردج / ٤٧.
١٠. لورين داستون. الخوف والنفور من الخيال في العلم. مجلة الثقافة العالمية ٩٠. أيلول . تشرين الأول . سبتمبر / أكتوبر ١٩٩٨م. الكويت. (عن مجلة DEADALUS عدد ربيع ١٩٩٨م)
١١. داستون.
١٢. بيفردج / ٨٩.
١٣. جورج سارتون: العلم القديم والمدنية الحديثة/٢٠٧. ترجمة د. عبدالحميد صبرة. مؤسسة فرانكلين. ١٩٦٠. القاهرة.
١٤. كون/ ١٧٠.
١٥. بيفردج/١٥٦.
١٦. بيفردج/٦٣.
١٧. بيفردج/٥١.
١٨. جراهام فارميلو: اكتشاف الأشعة السينية. مجلة العلوم (ترجمة SCIENTIFIC AMERICAN) المجلد ١٢. عدد ٩. أيلول/سبتمبر ١٩٩٦م. الكويت.
١٩. داستون.
٢٠. كون/ ٣٧.
٢١. بيفردج/ ١٧٩.
٢٢. بيفردج/ ١٨٢.
٢٣. واطسون/ ١٨٦.

النقد.. لماذا؟

إبراهيم الناصر الحميدان
الرياض - السعودية

عندما نتصفح أي عمل إبداعي، أو نزعم بأننا استوعبنا مراميه بعمق يواجه المتلقي بعض الأسئلة التي تثور من خلال السطور، وكأنما هي تكملة تثب في هامش العمل. وهذه الأسئلة الرمزية يراها المتلقي نهاية أو حتى متسربلة، حرية بأن ترفعه إلى منزلة أفضل تقترب به من الكمال. وقد نسي ذلك القارئ الواعي الحالة الشعورية أو ربما اللاشعورية التي تمخضت عن ذلك العطاء، وهي بمنزلة ولادة إبداع لم يكن له من وجود في محيط الواقع قبل تلك المعاناة. المبدع يتعرض وهو في حالة المخاض إلى مشاعر شتى متضاربة تسوقه ذات اليمين وذات الشمال تماماً مثل أن تضع بعض الحبوب والتوابل فوق صفيحة للتسخين أو المقلاة فسوف ترى أن بعضها يتقافز مضطرباً، بينما بعضها الآخر في مكانه لايريم، وربما يحترق بفضل اللفح والهجير، فلماذا تتقافز هذه، وتهجع الأخرى؟ إن ذلك لايحدث بسبب الحرارة وحدها وإنما نتيجة لما يحدث في داخل الحبة من استجابة وتأثر وتفاعل لا نكتشفه بالحواس، وإنما بأجهزة علمية دقيقة! ذلك هو في تقديري وضع أي عمل يخرج إلى الوجود، أو يتفاعل بتأثير خارجي، بما في ذلك ركلة اللاعب للكرة في موقف حاسم. هناك تيارات.. حقائق.. عواصف.. صراع الانفعال.. الانعكاس.. لهيب الشعور.. صراع المضادات من الداخل!! هذه الحالة من الوعي واللاوعي التي تتصارع مع مرور أي كلمة أو لمسة أو حركة لاتتوالد بسهولة كما يبدو لنا بإدراكنا أنها تخضع لتحكم ذلك السيل المنهمر من الصراعات الحبيسة وعندما تمرق كعمل إبداعي تكون قد تحررت من تلك الألغام خلال العبور.

والناقد «الفنان» الذي عانى من هذه التجربة هو وحده الذي يدرك هذه الحقيقة؛ لأنه يعاني مثلها حين يتأمل العمل الإبداعي بالضربة الأخيرة أو بالتشكيل النهائي الذي مازال مشتبكاً في مخيلة المبدع الذي حين يتأمل عن قرب يتذكر احترام الانفعال في داخله إبان فترة المخاض. إذن فالسؤال لماذا؟ غير ذي جدوى، بل هو ضد حقيقة الولادة. المبدع لا يستطيع أن يوافق من يتساءل لماذا؟ حتى وإن سايره أو جامله؛ لأن المبدع نفسه يحتاج إلى من يقول له لماذا!! أي من يحاول أن يجيب عن السؤال نيابة عنه وهو مخادع بالتأكيد. فالسؤال الفعلي والحاسم هو لماذا خرج هذا العمل أصلاً، وما دوافعه، انفعالات المخاض، رسالته إن كانت له رسالة. أسئلة حائرة لا يعرفها سوى الله. فإذا أجبت بكل الصدق لا أدري، نظر إليك المتلقي بدهشة واستغراب، وكأنما أنت تسخر منه أو تترفع عن إجابة سؤاله، بينما تلك هي الحقيقة. تماماً مثل أن تقول أشعر بالظمأ لأن العمل الفسيولوجي لا علاقة لك بإخضاعه أو السيطرة عليه. إنها تفاعلات لا تقع تحت سيطرتك العقلية ولا الحسية إنك تسقي الشجرة، وتدفع لها بالغذاء فوق تربة صالحة وهواء جيد. إنها لا تعلم شيئاً عن أسلوب نموها أو تفاعلاته. تماماً مثل أن ترى الأبناء في منزلك وقد خرجوا من وعاء واحد، وعانوا الظروف والبيئة الواحدة نفسها بما أفرزته من عوامل ومسببات ولكن يتجه كل واحد إلى منحى آخر؛ فبينهم الذكي والخامل والناجح والخائب، بل قد يأتي من بينهم مجرم قاتل. إن عمليات الاستنساخ الجيني تتجه إلى تلمس ذلك السبيل؛ إذ الروحي والمادي لا يمكن تفاعلهما في هذه الحالة. حتى امتزاج الألوان إنه وهم، وليس حقيقة؛ إذ لا يوجد ما يؤكد ذوبانهما كلية إنما تبقى تأثيراتهما متصلة بدليل أنك لو أضفت لاحقاً مادة كيماوية معينة لعادت كل الألوان إلى طبيعتها الأولى؛ وهذا بالضبط ما يسعى العلم إلى تجاوزه عن طريق الاستنساخ في محاولة يائسة لإعادة الخيار إلى ما نريده نحن مع أن التركيب العقلي لن يخضع لذات الاستنساخ مهما اقتربنا من الشكل الخارجي؛ لأن السجين في المعتقل ليس سجيناً بالمعنى الحرفي مادام أن عقله بقي طليقاً يجوب الدنيا، ويتجول كيف يشاء. ولو أردنا أن نضرب مثالاً حسياً لوقفنا أمام شخصيتي هتلر وأينشتاين، فما موقف أسرتيهما منهما لو كانوا يعرفون ما ستنتهي إليه أفعالهما؟ هذا يزرع ألغاماً للقتل، وذاك يزرع جذوراً للمعرفة. سؤال محير أليس كذلك؟ إذن عبارة «لماذا» غير ذات جدوى أصلاً؛ لأن جوابها عند الله وحده. وشكراً للنقاد من البراعم.



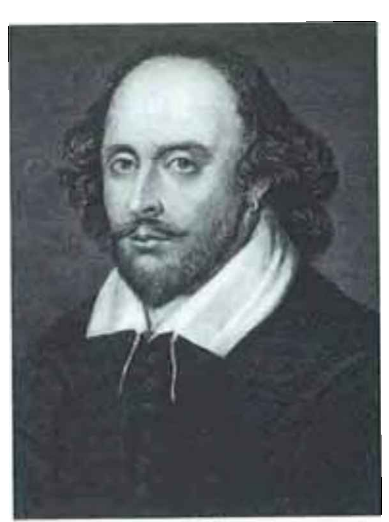
الترجمة علم أم فن؟

محمد يحيى الخراط
أبها - السعودية

لا ريب أن الحضارات والثقافات العالمية تتفاعل وتتلاقح فيما بينها. ولا يخفى على أحد أهمية إدراك مفاتيح هذا التفاعل والتلاقح، ومعرفة أوجه التعامل معها. ولعل أهم سبيل مثمر يساهم في الإفادة من رقي الفكر البشري، واستثمار بعض عطاءاته، هو عالم الترجمة الرحيب TRANSLATION، حيث يعكف المتخصصون بآلياته على تحقيق المزيد من التواصل الحضاري بين الشعوب، وتعزيز هذا التواصل بما تفرزه العقول اللامعة والأقلام المتألقة في مجالات العلوم المختلفة.

وما أوسع الحقول الخصبة التي حققتها الترجمة في مجال الدعوة إلى الله على بصيرة، وفي مجال التعريف بأوجه حضارتنا السالفة، وأشكال عطائنا المعرفي المتعدد، وما أجدرنا أن نعلم كذلك الكثير عن فكر الغرب وثمار حضارته وعلومه، ومدى فهمه لثقافتنا، وما موقعنا في منظوره. وكل هذه المقولات والتساؤلات لا يجادل أحد في أهميتها، وفي ضرورة رعاية أقسام الترجمة في جامعاتنا لتكون مسيرتها فاعلة جادة وفق مناهج مدروسة لتغذ السير في تحقيق أهدافها المنوطة بها.

ويسوق المتخصصون في صناعة الترجمة سؤالاً عريضاً عن العناصر اللازمة للقائم على شؤونها؟ وهل هي علم أم فن(١)؟ فيرجح فريق منهم طرفاً على طرف. والحق أن هذين العنصرين لا ينفك أحدهما عن الآخر، ولا يطير طائر الترجمة المتوازن بجناح واحد منهما، فهي، من جانب، علم يستلزم من العاكف عليه معرفة المرتكزات التي ارتكز عليها النص الذي بين يديه، وكذلك الإحاطة بأسرار اللغة المستهدفة التي يجتهد في الوصول إليها. فإذا كانت العربية هي المستهدفة مثلاً كان عليه



شكسبير

أن يعرف قواعد الجملة الاسمية والجملة الفعلية، ومكان كل من الرفع والنصب والجر والجزم في كل لفظة، ويميز بين التعبير الفصيح والمولد والعامي، ويكون لديه ثراء عريض بالمفردات ومعانيها ومرادفاتها، ويحيط باستعمالات المجاز والاستعارة والكناية Allegorical، figurative، and metaphoric uses ويدرك أبعاد الخصائص الأسلوبية للغة الأصلية واللغة المستهدفة، ولا يجوز له أن يسير وفق تماثل معاني الألفاظ، ثم يغفل دلالة الكلمة ضمن سياقها التعبيري الخاص، فما أسوأ أن يربط كل لفظة في النص الأصلي بما يقابلها في اللغة المستهدفة، كما تلقفها من القاموس الثنائي اللغة Bilingual Dictionary.

ويبقى بعض المترجمين(٢) ملتزمين المعنى الأول الذي اكتسبته الكلمة في فكرهم، ومن هنا يتعثرون في عملية إخراج المعنى المحدد في السياق للكلمة المجردة. وهذا يقودنا إلى إدراك الخطأ الكبير الناجم عن السير وراء الترادف التام بين لفظة إنجليزية مجردة وما يقابلها في العربية، فقد يكون هناك فروق دقيقة بين المعاني المختلفة للكلمة الواحدة في السياقات المتعددة. وهذا معناه أن على المترجم أن يحيط بمعطيات علم اللغة التاريخي Diachronic Linguistics في مجال تغير دلالة اللفظة من عصر إلى آخر، فقد يحكم العرف على لفظة معينة بدلالة معينة، فيدرك المستخدم لهذا اللفظ ارتباطها بهذا العرف، حتى إذا ما تغيرت أعراف هذا العصر، وفقد اللفظ دلالته السابقة أدرك المترجم هذه الحقيقة؛ لأنه يتعامل مع مستوى زمني محدد لهذه اللغة(٣). إن

الأمانة العلمية تقتضي منه أن يدرك الفرق بين الدلالتين Connotations من ناحية، وأنه يتعامل مع لغة العصر الذي يعيش فيه ويعيش مع جمهوره المتلقي لعلمه. وهنا يجب أن نفرق بين اللغة الفصحى العلمية التي يستهدفها؛ ويطمح إلى التعامل معها، واللغة التراثية التي تتضمن بعداً عرفياً لا يعرفه العصر، وإنما هو استعمال قاموسي سالف لم يعد إنسان العصر يتعامل معه، فالمطلوب من المترجم، والحالة هذه، أن يحافظ على قواعد اللغة ومنطوقها السليم، ولكنه في الوقت نفسه عليه أن يميز بين الدلالات التاريخية للألفاظ؛ لأن اللغة المستهدفة - وهي العربية مثلاً - لم تعد تطلب هذه الدلالة التاريخية السالفة لهذه الألفاظ.

والأمر نفسه يمكن أن يقال في لغة النص الأصلي - وهي الإنجليزية مثلاً - فعليه أن يدرك ما طرأ على ألفاظ النص من دلالة الألفاظ والتراكيب واللواحق والأصوات فلا يقيس لغة الأدب التي كتب بها شكسبير نصوصه على اللغة المعاصرة بأية حال من الأحوال. وهنا يؤكد المتخصصون أن على المترجم أن يكتسب القدرة على الانتقال بسهولة ويسر بين عمليتي الترجمة الأساسيتين، وهما الفهم الذي ينشد تفسير النص، والصياغة Formulation التي قد يلزمها إعادة الإبداع(٤) Recreation.

حدود التصرف في النص

وثمة حالة ينبغي للمترجم أن يحسب لها حساباً - وهذا من قبيل مستلزمات الفن اللازم لهذه الصناعة - وهي حالة التصرف Adaptation في النص الذي يتعامل معه للوصول إلى اللغة المستهدفة، ولكن ثمة درجات في هذا التصرف بحسب موضوع الترجمة. فإن كان النص يعالج موضوعاً علمياً محضاً فالهدف الأول للمترجم هو نقل المعنى الذي تحمله الألفاظ Translation Equivalence فلا يملك الخروج عن حرفية النص الأصلي خشية تشويه المعلومات الواردة، وهذا ما يسمونه بالإحالة Transference، أي: نقل المعنى الذي ترمي إليه الألفاظ، والأمانة تقتضي

> يبقى بعض المترجمين ملتزمين المعنى الأول الذي اكتسبته الكلمة في فكرهم، ومن هنا يتعثرون في عملية إخراج المعنى المحدد في السياق للكلمة المجردة

منه المحافظة على النص من ناحية والإلمام بمصطلحاته، وتقديم القطعة المترجمة بمضمون القطعة الأصلية نفسه(٥). وقد يستخدم المترجم اللفظ الأجنبي كما هو دون ترجمته Transliteration ولكنه يعقبه بتوضيح مقابل يحس معه أنه أقرب تعبير عن المصطلح الأجنبي، وهو في هذا الموطن مجتهد في هذا التوضيح المقابل، وعمدته التعبير عن كل معنى في مجال العلوم مهما كابد في سبيل ذلك، وكل هذا يدفعه إلى الإحاطة الدقيقة بخلفية العلم الذي يجول في ساحته، ومن جوانب هذه الإحاطة أن يدرك معنى الرموز Symbols والمختصرات Aronyms المستخدمة في النص الأصلي، ولا يجوز له التخمين واختزال بعض المعلومات. إن التصرف في النص هنا مقصور على التوضيح اليسير، كما تبدو صعوبة الترجمة متمثلة في فهم الموضوع على نحو واسع قبل الشروع في ترجمته.

وأما إذا كان موضوع النص يتصل بالأدب وقضاياه فلا أحد يسعى إلى ما يسمى بالترجمة المثالية(٦)، لأن العمل المترجم هو محصلة جامعة التقى فيها إبداع المؤلف ومفهوم المترجم له في ضوء خبرته باللغتين: الأصلية والمستهدفة وفي إطار ثقافته. ومن هنا فإن همّ المترجم الأدبي لا ينحصر في عملية إيجاد ألفاظ بديلة عن النص الأصلي، بل يتعدى ذلك إلى التأثير الذي يفترض فيه أن المؤلف قد صح عزمه على إحداثه في نفس المتلقي، فالمعرفة اللغوية هنا ضرورية، بيد أن استيعاب جو النص وما يرتبط به يدفعه إلى ألا يقتصر على تقديم المعنى فحسب، ولكنه ينشئ من الألفاظ التي يستخدمها والتراكيب التي يبنيها قناة تواصل للوصول إلى عقل القارئ وقلبه. وقد يفكر المترجم بطريقة ما لإعادة إنتاج التأثيرات الصوتية.

المترجم أديب مبدع

إن أسوأ ما يمكن أن يفعله المترجم أن يقدم محاكاة باردة Analogue لألفاظ النص الأصلي مقابل اللغة المستهدفة. بينما تعني ترجمة أسلوب القطعة الاحتفاظ بروح النص وأغراضه وشحنة تأثيره التي رغب صاحبه في إحداثها، والمترجم إذا

أطفأ هذا الوهج الذي كان يغشى النص فإن عليه جناية كبيرة تعني إخفاقه وقيامه بمهمته على نحو آلي جاف. ومن هنا يأتي تعريف الترجمة(٧) بأنها عملية تتكون من محاولة استبدال تعبير مكتوب بلغة ما إلى لغة أخرى، وفي كل مرة نترجم فيها، يحدث ضياع شيء من المعني نتيجة لعوامل عدة، فالترجمة تحدث توترا مستمرا أي جوا للمناظرة Debate بناء على متطلبات كل من اللغتين.

إن بعض الأعمال الروائية الأدبية لم يكتب لها النجاح العظيم والسيرورة إلا بعد ترجمتها، ويضربون على ذلك مثالا(٨) برواية «ذئب الأحراش» للأديب الألماني هيرمان هسه التي ترجمت للإنجليزية، ومن هنا قالوا: إن المترجم أديب مبدع، وهذا كله لا يعني أن هناك أكثر من مادة لغوية نستخدم في الترجمة، وإنما يعني أن المترجم لابد أن يكون متسلحا بآليات فنية تجعله مستوعبا للجو العام للنص، ومستوعبا كذلك لإيحاءاته المتعددة Inspirations؛ وذلك لتكون اللغة المستهدفة امتدادا للنص الأصلي بإيقاعاتها وتدفقها ومواطن تأثيرها.

وإذا كنا قد اتفقنا على أهمية التسلح بـ... اللغتين، وهضم أساليبهما التعبيرية، وإدراك خصائص الاختلاف بينهما، واتفقنا كذلك على مراعاة روح النص، وعوامل التأثير فيه. وإذا كنا قد أبحنا للمترجم أن يتصرف في الحدود التي تضمن له المحافظة على مقولة النص، ولكن ليس بأعضائه الجامدة، وإنما بالروح المبدعة التي تصاحبه.. إذا كنا قد اتفقنا على هذين العنصرين، فإن هناك عنصرين آخرين لابد من إقرارهما، وهما: الموهبة الإبداعية الفطرية لدى المترجم الذي يمتلك الاستعداد لعملية التحليل والتركيب، والحذف والإضافة، والتقديم والتأخير، وإيجاد العناصر التي تكفل للنص امتداد الحياة السابقة، والعنصر الأخير هو الثقافة العريضة اللازمة. فالمترجم الذي سبق نظره في النص الأدبي قرارات ومتابعات ومشاركات، وعرف آفاق النقد، وفروع علم اللغة، وكانت له خبرة حقيقية بالآداب



هيرمان هيسه

وصنوف البلاغة، وكون لنفسه آلية فهم التيارات الثقافية المختلفة، هذا المترجم يدفع بعمله إلى الأمام؛ لأنه ليس مجرد حافظ للمفردات بل هو قائم على عملية بناء شاملة لا تقل شأنا عن عملية التأليف الأولى التي قام بها مؤلف النص الأصلي، ومن أمثلة تمتع المترجم بخلفية ثقافية عريضة في الموضوع الذي يعمل فيه إذا كان متوجها لترجمة نص ديني له لوازمه ومرتكزاته، فقد يخطئ المترجم في فهم الفكرة، ثم يضطرب في نقلها، مما يجعل جهده ضائعا أو مشوها للنصوص التي يتعامل معها، فيكون قد أضاع فرصة ثمينة لتوصيل الدعوة إلى الآخرين بلغاتهم المستهدفة.

فن صعب المراس

وإذا اعتمد المترجم على هذه المرتكزات: العلم والفن والموهبة والثقافة، فإن اللفظة الواحدة التي يتوارد عليها عدد كبير من المرادفات Synonyms في اللغة المستهدفة يختار لها ما يناسبها من معان، وهو الذي يدرك المواطن التي يطالب نفسه بالتدخل فيها والخروج عن حرفية النص الأصلي، ومن هنا ليس غريبا أن يحكم الكثيرون على عملية الترجمة بأنها فن صعب المراس(٩)، ولا يتأتى ذلك إلا بالدربة والمران والممارسة، فلا يكفي في هذه الصناعة رأس المال الوافر من الألفاظ، وإنما ينبغي توظيفه بالخبرة في معالجة النصوص ومعايشتها.

ومسألة الخروج عن حرفية النص الأصلي Literalism مسألة تشغل ذهن المترجمين كثيرا؛ لأن الفكرة التي يعالجها هذا النص قد تكون غامضة أصلا في ذهن صاحبها، أو عمد فيها إلى الاختصار المخل، أو تراه يعتقد أنه يخاطب صفوة مختارة من المتخصصين.

وفي هذه الحالة لن يغفر القارئ للمترجم(١٠) تقديم النص باللغة المستهدفة على حرفيته وثقله. ومع إيماننا التام بأن موقف المترجم موقف صعب دقيق؛ لأن نقل أفكار الآخرين أعسر من التعبير عن فكرة جديدة، فالكاتب الذي يصوغ فكره بنفسه حر في تطويع اللغة، وهو حر كذلك في تطويع الفكر، ليصبه في وعاء اللغة. والمترجم ليس له شيء من كل هذه

الحرية الإبداعية؛ لأنه مقيد بنص تمتع فيه صاحبه بهذا الحق من قبل، وهو مكلف الآن بنقل هذه الفكرة من لغة لها حدودها ووسائلها التعبيرية إلى لغة جديدة لها أيضاً عالمها الآخر، والمترجم قبل كل شيء مكلف بتقديم نص كأنه مكتوب أصلاً باللغة المستهدفة، ومن هنا يقول بيتر مارك(١١): «لابد للمترجم أن يلجأ إلى التفسير Interpretation حينما يكون جزء من النص مهماً للتعبير عن قصد المؤلف، ولكنه ليس واضحاً دلالياً Semantically بدرجة كافية».

أسرار النص وروحه

إن هناك فرقاً بين الالتزام الحرفي والأمانة، فالأمانة تقتضي من المترجم أن ينقل لنا روح النص، وإعادة سبك العبارات لمحاكاة روح المثيل وشحنات تأثيره؛ وبذلك يضع هذا المترجم نفسه مكان صاحب النص، فلم تعد القضية تقديم مرادفات باردة للألفاظ، وإنما في استخدام اللغة التي تستوعب روح النص، فلا حساب لعدد الكلمات المستخدمة إضافة Addition أو اختزالاً Abbreviation. ولأن لكل لغة خصائصها الأسلوبية Stylistic Features فهذا يدفعه إلى عدم التقيد بالحرفية التي قد تقوده إلى نص بارد لا روح فيه.

أسوأ ما يمكن أن يفعله المترجم أن يقدم محاكاة باردة Analogue لألفاظ النص الأصلي مقابل اللغة المستهدفة

وتبرز في هذا الخصوص قضية مهمة أمام المشتغلين بمتابعة التواصل الحضاري بين الشعوب، فقد يترجم متخصصان نصاً واحداً، ولكننا نلاحظ أن ترجمة الأول تختلف عن الثاني في الكم والكيف Quantity & Quality، وسبب ذلك الاختلاف يعود إلى تباين Discrepancy مفهوم العبارة في النص الأصلي في ذهن كل منهما، فقد يكون الواحد منهما ذا خلفية ثقافية وتعمق ومران في موضوع النص المترجم على نحو مختلف عن الآخر، فاستطاع من يمتلك أدوات هذا الحقل وأساليبه ومرتكزاته أن يقدم عملاً فيه روح المؤلف الأصلي، وكان امتداداً طبيعياً له، بينما كان المترجم الآخر محدود الخبرة والإمكانات الثقافية والتجربة، فغفل عن كثير من أسرار النص، وكانت ترجمته أقرب إلى الحرفية المعجمية والتماثل اللفظي الغث، وقد تختلف الترجمتان باختلاف الجمهور المتلقي. فإذا اعتقد المترجم أنه يخاطب جمهوراً ذا مستوى ثقافي عال عمد إلى اختيار أسلوب فصيح جزل إن كانت العربية هي المستهدفة، واجتهد في إغفال الأخطاء الأسلوبية الشائعة، ونحا في ألفاظه منحى التراث المتين، كما نحا في طريقة معالجته منحى التصرف الذي يرضي ثقافة جمهوره، ويريح اتجاههم المحافظ.

وأخيراً فليس عيباً بالنسبة إلى المترجم إذا شطب على أوراقه وتهيأ لإعادة النظر في الصفحة التي لم تلق قبولاً عنده Reconsideration، وكلما استحضر قلم المبدع الأصلي وقلبه وما يريد أن يشيعه في النص كان عمله امتداداً للعمل الأول ومتابعة له، ولا أجد تعبيراً أدل من تعبير بيتر مارك فيما يلزم لصناعة الترجمة حيث قال(١٢): «الترجمة حرفة تتطلب مهارة مدربة، ومعلومات متجددة في اللغة وغير اللغة، وقدراً من الخيال بالإضافة إلى الذكاء، ثم فوق كل ذلك الذوق والإحساس العام».

المراجع

1- TRANSLATION AND TRANSLATING: THEORY AND PRACTICE. P.9. ROGER T. BELL. LONGMAN 1992

٢. فن الترجمة: محمد العناني. ص ١٢. الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ١٩٩٦م.

3- LINGUISTICS: AN INTRODUCTION TO LANGUAGE AND COMMUNICATION. P.362. A. AKMAJIAN et al. THE MIT PRESS 1990

٤. اتجاهات في الترجمة. ص٣٩.

5- A TEXTBOOK OF TRANSLATION. P.81. PETER NEWMARK. PRENTICE HALL 1988

٦. الترجمة الأدبية. د. محمد العناني. ص٤. الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان ١٩٩٧م.

7- LONGMAN DICTIONARY OF APPLIED LINGUISTICS. [illegible] JACK RICHARDS et al. LONGMAN 1985

٨. الترجمة الأدبية. د. محمد العناني. ص ٨٧. الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان. ١٩٩٧م.

٩. الترجمة أصولها ومبادئها وتطبيقاتها. ص٢. عبدالعليم منسي وآخرون. دار المريخ للنشر ١٩٩٥م.

١٠. فن الترجمة. محمد العناني. ص٤. الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان. ١٩٩٦م.

11- APPROACHES TO TRANSLATION. P.17. PETER NEWMARK. PERGAMON PRESS 1984

12- APPROACHES TO TRANSLATION. P.136. PETER NEWMARK. PERGAMON PRESS 1984



الإبلُ

بعضُ معجزاتِ العلي الكبير

رمضان عبدالعال
الجيزة - مصر



في خضم ثورة المعلومات والتقدم التقني (التكنولوجي) المذهل وتزاحم الرؤى والأفكار في عصر العولمة، يكاد يفقد العقل واحدةً من أسمى مزاياه ألا وهي التأمل في كون الله وتدبر آياته وإمعان النظر فيما حوله من مخلوقات تدل على أنه الواحد، فالحياة بمادياتها التي طغت على كل شيء قد شغلت لبّ الإنسان عن التدبر والتفكر، ومن ثمة قد تصبح بعض المخلوقات الدالة على قيمة معينة في حياة الإنسان في عصر من العصور مجرد ذكرى لا يؤبه لها إلا لماماً، ولو نظر إليها المرءُ بموضوعية وحاول سبر أغوارها لاستبان له وجهُ الخطأ، ولرجع إلى رشده وصوابه.

وما أحوجنا أن نفر إلى الله في هذه الأيام المدلهمة وذلك بتأمل مخلوق عجيب في إبداعه ودقة صنعه، يدلُّ دلالة واضحة على قدرة الملك تبارك اسمه، ولا يملك المرءُ إزاء تدبر خلق ذلك المخلوق إلا أن ينحني إجلالاً وهيبة للكبير المتعال، وقد ورد ذكر ذلك المخلوق في كتاب الله العزيز يقول تعالى: *أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت، وإلى السماء كيف رُفعت، وإلى الجبال كيف نُصبت، وإلى الأرض كيف سُطحت*. الغاشية:١٧-٢٠ فانظرْ كيف قُرنت الإبل برفع السماء، وما ذلك إلا دلالة على عجيب الإبداع في هذا المخلوق!! إذ هو شيءٌ بديعٌ في تكوينه الجسماني، ومع قوته ينقاد للصبي الصغير والشيخ الكبير، ولا يمل حمل الأثقال ولا يئن أو يشكو كما يفعل بنو آدم!! وقد ورد في لسان العرب «أن الإبل والإبْل لا واحد لها من لفظها. قال الجوهري وهي مؤنثة لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيثُ لها لازم، وإذا أدخلت عليها التاء بقصد التصغير تقول أُبَيْلة، وأقل ما يقع عليه اسمُ الإبل الصِّرْمة وهي التي جاوزت الذَّوْد إلى الثلاثين، ثم الهَجْمة أولها الأربعون إلى ما زادت، ثم هُنيدة: مئة من الإبل، وتأبَّل إبلاً اتخذها»(١).

أصل الإبل وأنواعها

أما أصلها فقد «دُجنت الإبل وتأنست في حقبة الحجر المصقول كالبقر والضأن والمعز، ومهدها الأصلي في آسيا ولم تنتقل إلى إفريقية إلا في أوائل النصرانية، وهي اليوم منتشرة في أقاليم الشرق العربي ووسط آسيا وفي فارس والأناضول، وشمال إفريقية حتى أقصى حدها الجنوبي، وهي تُنسب علمياً إلى الجنس الحيواني المسمى «كاملوس»، وفي هذا الجنس نوعان من الجمال وهما: ذو السنامين، وذو السنام الواحد، والأول يكثر في وسط آسيا، وهو يقاوم البرد، ولا يحتمل شدة العطش في الصحراء، ولهذا لا يُرى في جزيرة العرب وبادية الشام والعراق إلا نادراً، أما النوع الثاني فهو نوع إبل بلادنا ويمكن تسافد النوعين فيكون ولدهما صالحاً للسفاد لا عقيماً.. وتجتمع أصابع الإبل في خف ولذلك سميت الإبل ذوات الخف، ويوجد في كرشه خلايا واسعة يُختزن فيها الماء، وهو أكبر الدواجن قداً، ورأسه صغير منسوباً إلى قدِّه، وعنقه طويل وكذا قوائمه»(٢). ويذكر النويري ثلاثة أصناف للإبل: يماني، وعرابي، وبُختي؛ فاليماني هو النجيب، وينزل بمنزلة العتيق من الخيل، والعرابي كالبرذون والبُختي كالبغل. وحكى الجاحظ أن منهم من يزعم أن في الإبل ما هو وحشي وأنها تسكن أرض وبار، وهي غير مسكونة بالناس.. وقالوا: إن الجمل لا ينزو إلا مرة واحدة يجيء منها ولدٌ واحد، وهو يخلو في البراري ساعة النزو، ولا يدنو منه أحد من الناس إلا راعيه الملازم له؛ والأنثى تحمل سنة كاملة وتلقح لمضي ثلاث سنوات، وكذلك الذكر ينزو في هذه المدة، ولا ينزو عليها إلا بعد سنة من وضعها، وفيه من كرم الطباع أنه لا ينزو على أمهاته وأخواته»(٣).

أسماء الإبل وألوانها

يذكر علماء اللغة للإبل أسماء كثيرة ترتبط بعمرها وبيئتها وغير ذلك، والإبل وهي اسم الجمع لا واحد لها من لفظها، والذكر الجمل،

تختلف أسماء الإبل باختلاف أعمارها

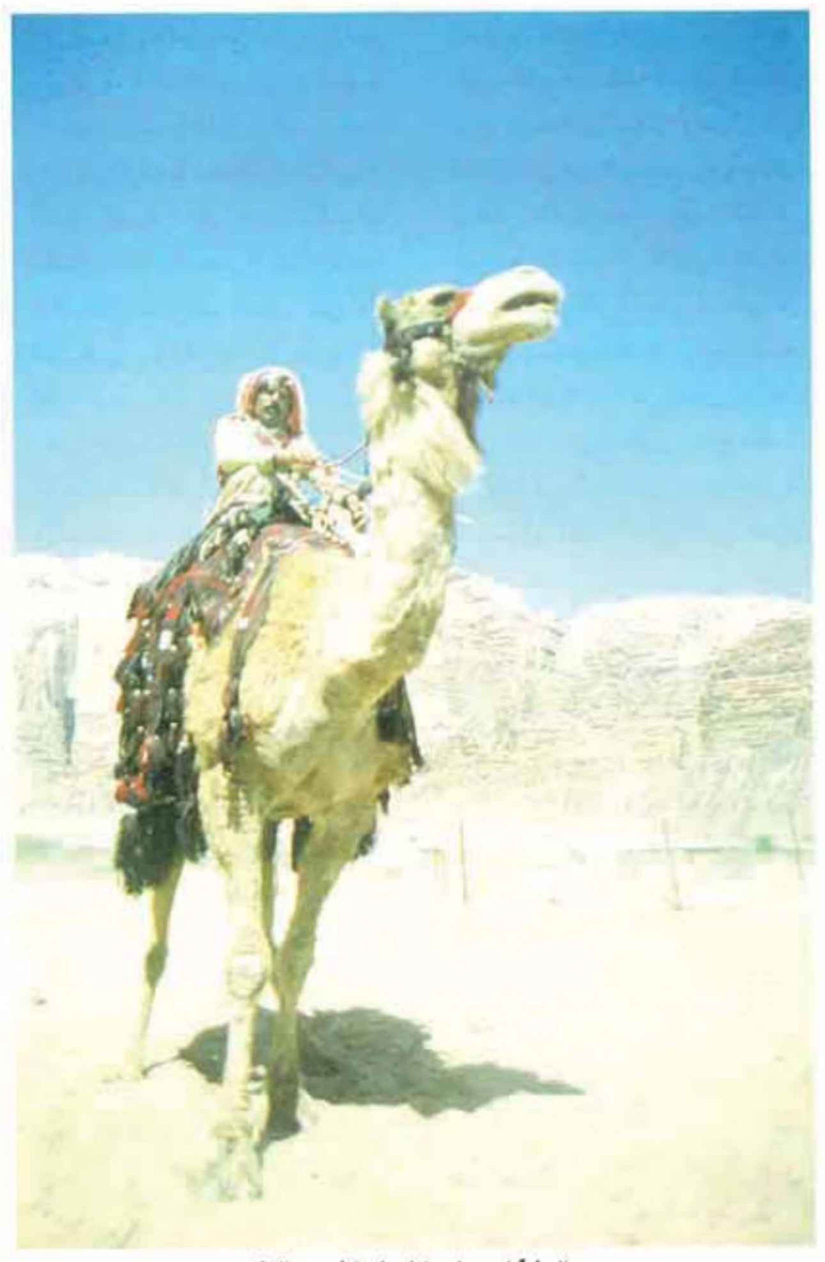
والناقة الأنثى، والبعير ما يُحمل عليه، وهذه بعض أسماء الإبل مُنذُ ولادتها حتى شيخوختها - إن جاز التعبير - «فولدها حين يُسل من أمه «سليل» ثم «سقب» و«حوار» إلى سنة وجمعه «أحورة» و«حيران»، وهو «فصيل» إذا فُصل عن أمه، وفي السنة الثانية ابن «مخاض» لأنه أمه تلقح فتلحق بالمخاض، وهي الحوامل، والأنثى «بنت مخاض»، فإذا دخل في الثالثة فهو «ابن لبون»، والأنثى «بنت لَبُون»؛ لأن أمه صارت ذات لبن، وهو في الرابعة «حقٌ»؛ لأنه استحق أن يُحمل عليه، وهو في الخامسة «جذَعٌ» وفي السادسة «ثني» وفي السابعة «رباع» وفي الثامنة «سديس»، و«سدس» للذكر والأنثى، وفي التاسعة «بازل» قال الشاعر:

وابنُ اللبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ

لم يستطع صولةَ البُزلِ القناعيس

ثم هو بعدها بسنة «مُخلف عام» و«بازل عام» ثم «مُخلف عامين» و«بازل عامين»، ثم يُعوِّد أي يصير عوِّداً وهرماً وماحاً. قالوا: والقلوص منها كالجارية من الناس والقعُود كالغلام والجمع قلائص وقعدان، والبَكْر الفتيُ والأنثى بكْرة وقيل جمل راشٌ وناقة راشةٌ ورياش إذا كثر الشعر في آذانهما.

وأما أسماء ما يُركب منها ويحمل عليه فقد قالوا: المطية: اسم جامع لكل ما يُمتطى من الإبل، فإذا اختارها الرجل لمركبه لتمام خلقها ونجابتها فهي راحلة، فإذا استظهر صاحبها وحمل عليها فهي زاملة،



المطية اسم جامع لكل ما يمتطى من الإبل

والناسُ يقولون في الرجل العاقل الثابت في أموره رجل زاملة يريدون بذلك مدحه، فإذا وجهها مع قوم ليختاروا عليها فهي «عليقة». وتدل بعض أسماء الإبل على صفة فيها فهم يقولون: «كهاة» و«جلالة» وهي العظيمة، و«عُطموس» والعيْطموس و«دعْبلة»، وهي الحسنة الخلقة التامة الجسم، «وكوماء»، وهي الطويلة السنام، و«وجْناء»، وهي الشديدة القوية اللحم... أما عن ألوانها فإنهم قالوا: إذا لم يخالط حمرة البعير شيءٌ فهو أحمر، فإن خالطها السواد فهو «أرْمك»، فإذا

كان أسود يخالط سواده بياضٌ فهو «أورق».. فإذا كان أبيض فهو «أدم».. وأما ما قيل في المسير عليها والنزول للراحة فقد قالوا: إذا سار القوم نهارا، فنزلوا ليلاً فذاك «التأويب»، وإذا ساروا ليلاً ونهاراً فذاك «الإسآد»، فإذا ساروا من أول الليل فهو «الإدلاج»، فإذا ساروا من آخره فهو «الإدّلاج»، فإذا ساروا مع الصبح فهو «التغليس»، فإذا نزلوا للاستراحة في نصف النهار فهو «التغوير»، فإذا نزلوا في نصف الليل فهو «التعريس»(٤).

صفات الإبل وطبائعها ومميزاتها

يقول القرطبي في تفسير الآية الكريمة: «*أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت*: قال المفسرون: لما ذكر الله تعالى أمر أهل الدارين تعجب الكفار من ذلك ،فكذبوا وأنكروا، ولم يروا الفيلة فينبههم - جلّ ثناؤه - على عظيم من خلقه قد ذلله للصغير يقوده وينخيه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره، فأراهم عظيماً من خلقه مسخرًا لصغير من خلقه يدلّهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته. وعن بعض الحكماء أنه حدث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبّرها على احتمال العطش، حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعداً وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم، وقيل لما ذكر السرر المرفوعة قالوا: كيف سائر الحيوان لأن ضروبه أربعة: حلوبة، وركوبة، وأكولة، وحمولة، والإبل تحمل هذه الخلال الأربع فكانت النعمة بها أتم»(٥). ومن طبائع الإبل أيضا «الاهتداء بالنجم ومعرفة الطرق والغيرة.. وتميل إلى شرب المياه الكدرة الغليظة، وهي إذا وردت ماء الأنهار حركته بأرجلها حتى يتكدر، وهي من عشاق الشمس، وتتعرف النبات المسموم من مرة واحدة، فتتجنبه عند رعيه، وزعم أرسطو أنها تعيش ثلاثين سنة في الغالب.. وقد رئي ما عاش مئة سنة. وكانت للعرب عوائدُ في إبلها أنها إذا أصابها العُرّ كووا السليم ليذهب العر عن السقيم، وكانوا إذا كثرت إبلهم فبلغت الألف فقؤوا عين الفحل، فإن زادت على الألف فقؤوا عينه الأخرى»(٦).



من كرم طباع الإبل أن الذكر لا ينزو على أمهاته وأخواته

فذكرهم الله سبحانه صنعته وقدرته وأنه قادرٌ على كل شيء، كما خلق الحيوانات والماء والأرض، ثم ذكر الإبل أولا؛ لأنها كثيرة عند العرب، نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية وبيّن أن الإبل تبرك حين يُحمل عليها ثم تقوم، فكذلك تلك السرر تتطامن ثم ترتفع.. والإبل أجمعُ للمنافع من و«يعتقد العامة أن الجمل يختزن الماء في جبين كبيرين: أحدهما في معدته الأولى الخاصة بالمجترات، أو في سنامه، وهذا خطأ. فالجمل



الإبل لا تتحمل البرد

يختزن الماء في عضلاته وأنسجته المختلفة»(٧). «والجمالُ بوجه عام لا تتحمل البرد، ولا يمكنها أن تؤدي عملها في المنطقة الباردة؛ لذلك يجب أن يتوافر لها الدفءُ في الشتاء جيداً، ومن صفات الجمل الجيّد أن يكون ذا عينين براقتين وأذنين صلبتين وسنام أملس مستدير، رأسي الوضع أو مائله قليلاً لإحدى الجهتين»(٨). ولنتأمل أكثر في هذا الحيوان العجيب فمن صفاته التي تؤهله بحق ليكون سفينة الصحراء أنك تجد العينين «ترتفعان فوق الرأس وترتدان إلى الخلف، فضلاً عن طبقتين من الأهداب تقيانهما من الرمال والقذى، وكذلك المنخران والأذنان



الإبل على عظمة حجمها مسخرة للإنسان على ضآلة حجمه

يكتنفها الشعر للغرض نفسه، فإذا ما هبت العواصف الرملية انقفل المنخران وانثنت الأذنان على صغرهما وقلة بروزهما نحو الجسم.

أما القوائم فطوال تساعد على سرعة الحركة مع ما يناسب ذلك من طول العنق. أما الأقدام فمنبسطة في صورة خفاف تمكن



ترعى الإبل كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم

الإبل من السير فوق الرمال الناعمة وللجمل كَلْكَلٌ تحت صدره ووسائد قرنية على مفاصل أرجله تمكنه من الرقود فوق الأرض الخشنة الساخنة»(٩).

فوائد الإبل

ورد في الحديث «لا تسبّوا الإبل فإن فيها رقوء الدم ومهر الكريمة» أي إنها تُعطى في الديات فتحقن بها الدماء، وتمنع من أن يهراق دم القاتل، وكذلك ورد «لا تسبّوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى»، أي مما يوسع الله تعالى به على الناس. وكان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة يقال لها القصواء، وهي التي هاجر عليها النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت رباعية، وكانت تسمى الجَدْعاء والقَصْباء، وكان في طرف أذنها جدْع ولا تُسبق. فلما كان في سنة ست من الهجرة سابق الرسول صلى الله عليه وسلم بين الرواحل فسبق قعودٌ لأعرابي القصواء فشق ذلك على المسلمين فقال النبي صلى الله عليه وسلم «حقٌ على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»(١٠).

و«لبن الجمل مغذ مفيد، ويصنع من وبر الجمال بعض البسط والأغطية المختلفة والمنسوجات، ويسمدون بروثها الأراضي الزراعية، وينقون بمسحوق عظامها السكر، ويضيفونها إلى غذاء الطيور»(١١)، ويقول الدميري: «وكل الحيوان له مرارة إلا الإبل؛ ولذلك كثر صبرها وانقادت، وكني الجمل بأبي أيوب، وإنما يوجد على كبدها شيءٌ يشبه المرارة، وهي جلدة فيها لعاب يُكتحل به، فينفع من العشا العتيق، وإذا أحرق وبر الإبل وذُرّ على الدم السائل قطعه.. وإذا شرب السكران من بول الإبل أفاق من ساعته»(١٢).

أمراض الإبل وطرائق علاجها

الجرب: أشهر الأمراض التي تصيب الإبل «ولا أحد يجهل هذا الداء، وهو يحصل من حيوانات طفيلية تعيش في أجزاء الجلد السطحية، وتنتقل إلى الإنسان، وكثير من الدواجن كالحمير والإبل. ويداوى هذا الجرب بغسل الأعضاء الجرباء بالماء الفاتر والصابون ومتى جف تدلك بخليط من القطران وزيت الزيتون والنسرين ومسحوق الكبريت بمقادير متساوية»(١٣).

ويعد ذلك من العلاج الحديث. أما الغسل بالماء والصابون فطريقة قديمة. ومن الأمراض الأخرى التي تصيب الإبل الجروح والنواسير. و«الجربُ ينشأ عن عدم تنظيف الحيوان، ومرض الذباب، وينتج من وجود حيوان طفيلي في دم الجمل يحدث من لدغة ذباب خاص يوجد في طريق القوافل، والوقاية منه تكون بستر الجمل بالخيش حتى لا يبقى ظاهراً منها سوى أعينها»(١٤).

المراجع

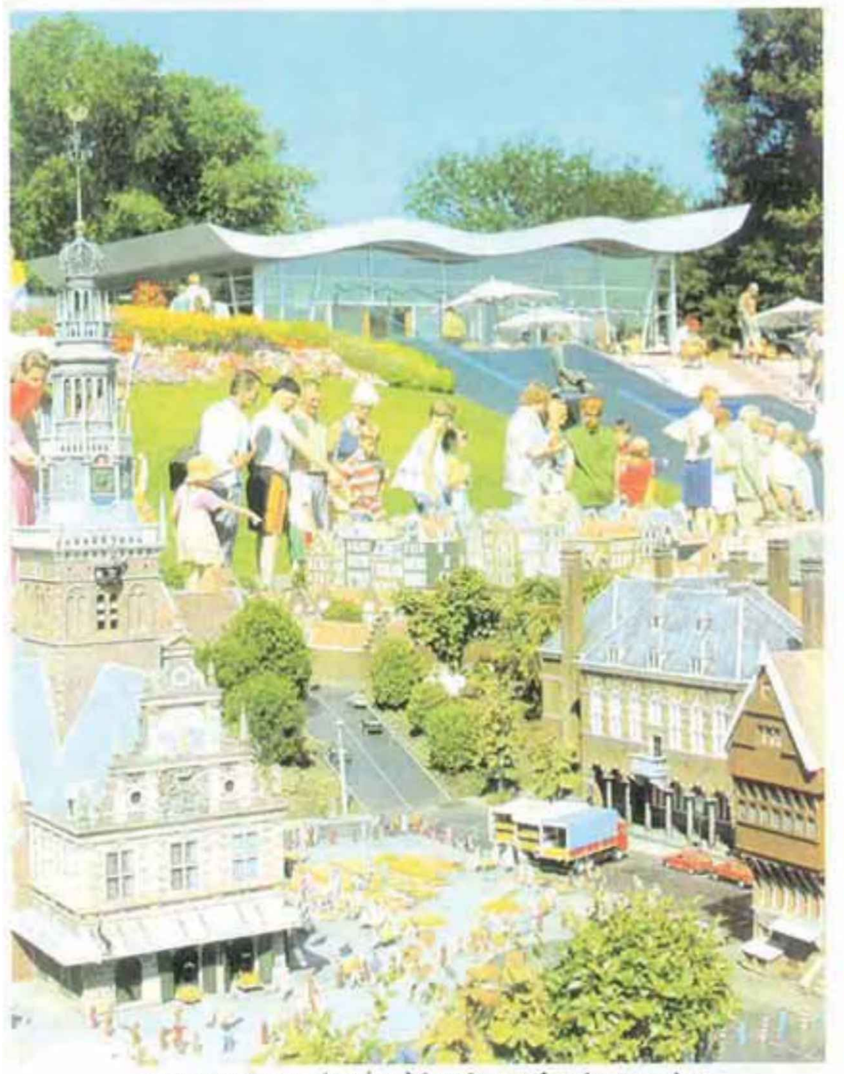
١. «لسان العرب». ابن منظور (أبل) ج١٣ ص ٣١٢.
٢. كتاب «الدواجن في الخيل والبغال والإبل». د. مصطفى الشهابي ص٦١٥.
٣. «نهاية الأرب في فنون الأدب» النويري. السفر العاشر ط١ ص١٠٩.
٤. المصدر نفسه ص١٠٤ وما بعدها.
٥. «الجامع لأحكام القرآن الكريم». القرطبي ج٢٠ ص٣٤.
٦. نهاية الأرب ص١١١.
٧. «عالم الحيوان والطير». ميشيل تكلا ص٣٠.
٨. في الطب البيطري». د. عبدالعزيز النعماني ص٧٧.
٩. المنتخب في تفسير القرآن الكريم» ط١٥ ص ٩٠٣.
١٠. «نهاية الأرب» ص١١١.
١١. «في الطب البيطري» ص٧٦.
١٢. «حياة الحيوان الكبرى» الدميري ج١ ص١٦.
١٣. «الدواجن في الخيل». مرجع سابق ص١٣٢.
١٤. «في الطب البيطري» ص٧٨.

مادورو دام

دولة في مدينة

سمير عطا
دن هاغ - هولندا

عندما كتب جوناثان سويفت - الكاتب الإنجليزي - روايته الرائعة «رحلات جلفر» التي قرأناها ودرسناها ونحن صغار، شأننا في ذلك شأن كل بقية أطفال العالم، والتي تخيل فيها وصول «جلفر» إلى مدينة لا تتعدى قامة الفرد فيهم «عقلة الصباع»، وكان هو بالنسبة إليهم عملاقاً جاء من عالم آخر أتى على كل مخزون البلد من طعام وشراب في وجبة واحدة، ثم انتقل منها هرباً بعد أن تآمر أهل البلد الصغار عليه لقتله ليجد نفسه في مدينة أخرى للعمالقة كان هو بالنسبة إليهم كعقلة الصباع.. عندما كتب جوناثان سويفت روايته الخيالية هذه لم يحلم بأن تحظى في تاريخ الأدب العالمي بهذه الدرجة القصوى من المكانة وسط الآثار الأدبية العالمية.



نموذج سوق الجبن في مدينة «الكمار» الذي كان فندقاً مجانياً للمسافرين الفقراء ثم تم تجديده ليصبح متحفاً للجبن الهولندي ويقام السوق من ابريل إلى سبتمبر كل عام

ولأن بعض الآثار الأدبية التي كانت بنت الخيال لصقت على مر الأجيال بذاكرة البشر حتى أصبحت وكأنها كانت في يوم ما حقيقة وليس خيالاً، مثل «مغامرات دون كيشوت دي لامانشا» التي كتبها ميجيل سيرفانتيس عن رجل يحارب طواحين الهواء ظناً منه أنها أعداء يتربصون به ويتابعه سانكوبانزا الدوائر، ثم بدأت السلطات الحكومية الإسبانية تضع على خرائطها الأماكن التي عاش ومر بها دون كيشوت وتابعه، وكأن هذه الأماكن كانت حقيقة لا خيالاً؛ ذلك لأنها عاشت في وجدان كل من قرأها. فلم يكن مستبعداً أن يأتي اليوم الذي يحقق فيه إنسان ما وجود تلك المدينة الصغيرة التي تخيلها جوناثان سويفت في روايته لشعب لا تزيد قامة كل فرد فيه على عقلة الصباع.



محطة سكة حديد «فالكنبرج» أقدم محطة سكة حديد في هولندا أنشئت عام ١٨٥٣م لتربط بين «آخن» في ألمانيا «وماستريخت» في هولندا، وهي تشبه في طرازها المعماري النمط القوطي [illegible] من قلاع العصور الوسطى



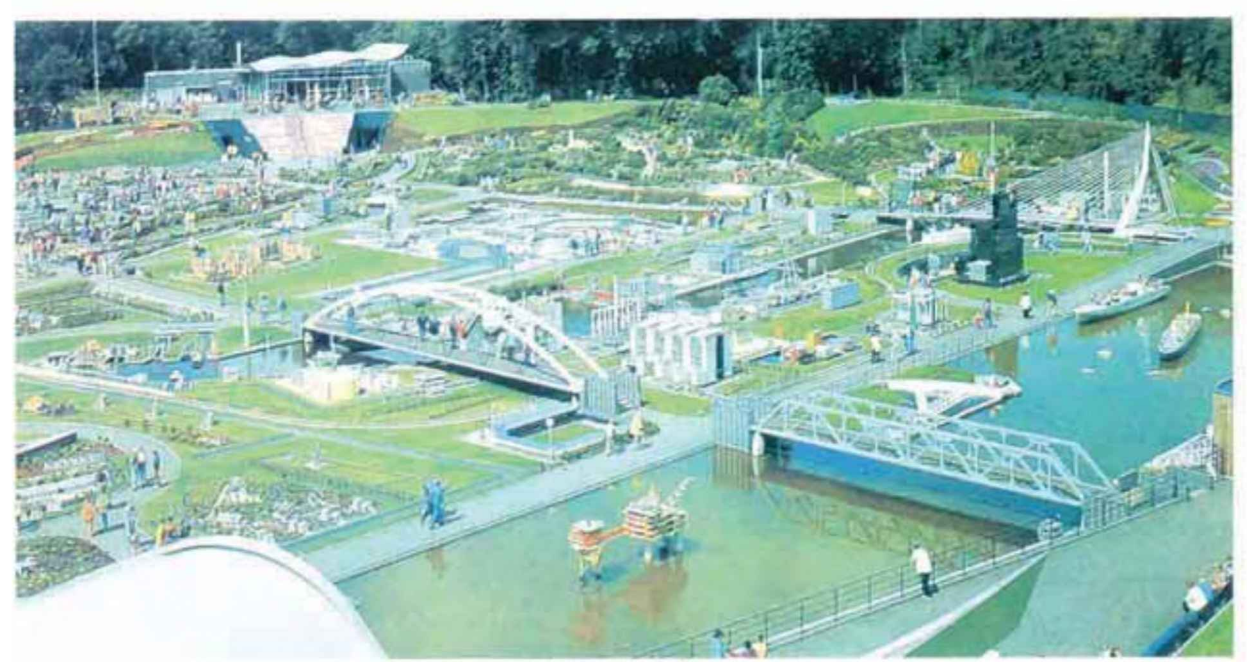
أحد المختصين يجهز القطارات.. وهي نماذج لكنها تسير تماماً كما لو كانت قطارات حقيقية في مدينة «مادورو دام»

ليلى بوت وابنتي

جالت كل هذه الخواطر في ذهني وأنا داخل إحدى الطائرات منذ أكثر من ثلاثين عاماً عندما أيقظتني ابنتي الطفلة بدفعة من يدها وهي تقول: بابا.. بابا.. ليلى بوت يا بابا.. كانت تشير من نافذة الطائرة إلى بيوت ومبان في حجم علب الكبريت تتناثر على الأرض ونحن على ارتفاع منها بأكثر من ١٠ كم، والسماء صافية، والجو صحو. تخيلت ابنتي أنها ترى ليلى بوت التي قرأت عنها في كتاب «رحلات جلفر». وليلى بوت هي مدينة الصغار الذين ذكرهم سويفت في كتابه ويعيشون في بيوت كتلك التي تراها ابنتي من نافذة الطائرة وهي سعيدة لاكتشافها، فقد رأت بعينها ما قرأته في الكتاب، وكانت فرصة لكي أشرح لها ماذا تفعل «النسبية» في الحقائق المحيطة بنا؟ وكيف يبدو الشيء صغيراً كلما ابتعدنا عنه، وكيف «يكبر» كلما اقتربنا منه؟ ولاشك أنها فهمت ما أعنيه؛ لأنها سارعت بسؤالي: يعني القمر الذي نراه في السماء وهو بعيد عنا هو قمر كبير؟. كانت بداية طيبة لتلقي أول دروس العلم في حياتها؟.

وفي «لاهاي»، وبعد أكثر من ثلاثين سنة، من ذلك الحوار الشائق بيني وبين ابنتي، رأيت الخيال يصبح حقيقة. وبعقل منفتح اقتصادي سياحي متمدين أقيمت مدينة كاملة بكل ما يمكن أن يخطر على البال مما تحتويه المدن، وكل مساحة المدينة أربعة أفدنة فقط. فأي مدينة عادية تضم بين جنباتها الشوارع ودور العبادة والمتحف والمدارس والبيوت والسيارات والناس يروحون بها ويجيئون؟ لكن هذه المدينة الصغيرة التي لا تزيد مساحتها على أربعة أفدنة تجمع وتضم بين جنباتها كل هولندا.

من خلال ألف نموذج لكل ما تحفل به هذه البلاد من مبان وقصور ومتاحف وجامعات وملاعب وآثار وطواحين، بل وقنوات وسيارات وسفن وطائرات وقطارات.. الطواحين تدور وتعمل، والسفن تسير في القنوات، والقطارات تسير على قضبانها، بل وترانيم الكنيسة



منظر عام لجزء من المدينة

تتردد بين جنباتها، وبالليل تضاء المدينة بـ ٥٠ ألف لمبة كهربائية، فتضفي عليها جمالاً بألوانها المختلفة وكأن الإنسان يسير في حلم حيّ. وحتى تكون المدينة كتاباً مفتوحاً أمام الزائر فهناك كتيب صغير للإرشاد والتعريف بكل ما تقع عليه عين الزائر.

الفكرة العجيبة

هذه المدينة الصغيرة «مادورو دام» تقع في أطراف مدينة «لاهاي» العاصمة الرسمية لهولندا، أما العاصمة الفعلية فهي أمستردام. ولاهاي أخذناها في لغتنا العربية من الاسم الفرنسي La Hage وبالإنجليزية The Hage أما الهولنديون أنفسهم فيسمونها Den Haag.



فندق «العالم - دي فيرلد» والاستعراض السنوي لذكرى انتهاء الحرب العالمية الثانية، مئات النماذج المصغرة للجنود والمشاهدين. ولو لم تكن هذه الفتاة الصغيرة التي تطل عليه من قرب لبدا المنظر وكأنه يعج بالحياة

فالنماذج ثابتة، لكن الزائر يمكن أن يحرك ما يشاء حولها أو بداخلها من معدات وآلات وسفن وقاطرات وألحان بوضع «سنتات» صغيرة من خلال ثقب صغير. وهناك من يقص على الزائر تاريخ هذا المكان أو ذاك وهو يسير وسط خضرة منتشرة في كل مكان، فضلاً عن الورد وزهرة الزنبق المشهورة. والزائر القادم إلى إسبانيا أو إيطاليا أو مصر أو المغرب أو أي بلد يود رؤيتها والتجوال فيها لن تتاح له فرصة أن يجوبها من أقصاها إلى أقصاها مرة واحدة مهما أنفق من مال، أو مهما اتسع لديه الوقت. ولكن هنا في هولندا تفتق الذهن عن هذه الفكرة العجيبة. أن يجمعوا هولندا كلها في مدينة واحدة صغيرة. فزيارة لهذه المدينة الصغيرة عدة ساعات تشعر الزائر وكأنه

قد زار كل أطراف هولندا، وتعرّف كل معالمها، والزائر إمّا أن يكتفي بذلك وإما أن تفتح هذه الزيارة نفسه، كطبيعة البشر، لكي يرى ثانية الأثر أو القصر أو المكان الذي رأى نموذجاً له في هذه المدينة وهو على طبيعته وحجمه الحقيقي.. ذلك النموذج الذي رآه في مدينة العجائب.. «ليلي بوت» العصر الحديث التي يسمونها هنا «مادورو دام».

«أوترخت» (١٨٢٤م)، ومحكمة «كانتونال» (١٦٤٨م)، وبرج «دوم» الذي يرتفع ١١٢م، واستغرق بناؤه ٦١ عاماً (١٣٨٢م)، ومتحف «هارلم» (١٨١٠م)، ومتحف «أمستردام» التاريخي (١٥٧٨م)، ومبنى البرلمان الذي ظل مقراً للحكومة قروناً عدة، والذي كانت تلقى فيه الملكة خطابها السنوي كل ثالث ثلاثاء من شهر سبتمبر/أيلول، بينما تنتظرها في

هكذا تبدو الشواطئ في بحر الشمال منموذج مصغر في مدينة مادورو دام»

تفاصيل «مادورو دام»

ففي وسط المدينة يقع حي تاريخي مصغر يضم نماذج لعدد من القصور والمباني القديمة مثل كاتدرائية «سانت جون هيرتو جينبوش» التي يرجع بناؤها إلى عام ١٣٨٠م، ومبنى مجلس مدينة

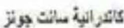
الخارج عربتها الملكية الذهبية التي تجرها ثمانية جياد، وجنود البحرية ببزاتهم الرسمية وأسلحتهم التاريخية، ومقر عمدة «لاهاي» الرسمي (١٨٩٠م)، ومبنى جامعة «لايدن» (١٥٨١م)، والحي القديم في «أمستردام»، و«دلفت»، و«ديفنتر».

ثم حي كامل لشبكة القنوات المتعددة في كل من «أمستردام»، و«أوترخت» والجسور والقناطر عليها.. والمتحف البحري في «أمستردام» الذي تقف أمامه - وسط مياه البحر - نماذج من السفن التجارية والحربية التي صنعت في إمبراطورية هولندا. ولم ينسوا أن يضعوا في «الشوارع» كل علامات الطرق والاتجاهات والمواصلات حتى للسفن في قنوات المياه التي يقوم كثير من المباني على ضفافها، ويتصل بعضها ببعض بقناطر وجسور يكتب على جدرانها تواريخ إنشائها، كذلك لم ينسوا إقامة حي تجاري عصري وأمكنة للتسوق ملأى بالمحلات ذات الأدوار المتعددة، وإلى جوارها كنيسة حي «دام» التي نُصبت فيها الملكة «بياتريس» ملكة على البلاد، والقصر الملكي الذي يرجع تاريخ بنائه إلى عام ١٦٤٨م، ونماذج مصغرة لبلدية «جودة» الشهيرة بصناعة هذا النوع من الجبن، وهو مبني على الطراز القوطي المتأخر منذ القرن الخامس عشر، ونماذج لسوق الجبن الشهير في مدينة «الكمار»، وإلى جواره المتحف الخاص بصناعة كل أنواع الجبن في هولندا، ثم فندق (دي فيرلد) أي (العالم)، وأمامه استعراض تاريخي لنهاية الحرب العالمية الثانية الذي يشهده آلاف من الناس والجنود المشاركين، والقبة السماوية التي أنشئت عام ١٧٧٤م، وسوق السمك التاريخي في مدينة (فيلارونجن) الذي أنشئ عام ١٥٣٨م بعد ما صدر قانون بعدم بيع السمك في العراء، ومحطة السكك الحديدية في «جرويننجن» (١٨٩٣م). وبالمدينة ركن للملاهي، وهو نموذج مصغر لمدن الملاهي العصرية بكل أجهزتها وألعابها وأنوارها ومئات من المشاهدين كباراً وصغاراً يجوبون أنحاءها، ونموذج لقصر السلام الرائع الذي يضم



قلعة «مويدن»





كاتدرائية سانت جونز



أحد أحياء المدينة



نموذج مصغر لجامعة «لايدن»

محكمة العدل الدولية ومكتبتها القانونية الشهيرة.

وكما يحدث في المدن الحقيقية عندما تزدحم بالسكان، فتقوم الدولة ببناء مساكن شعبية على أطرافها، ضمت المدينة المصغرة نماذج لهذه المباني الشعبية، وكأنها قد ازدحمت هي الأخرى بالسكان. وفي القرى تنتشر بعض المزارع النموذجية، صنعوا لها «نماذج» مصغرة حتى لا تخلو المدينة من بعض مظاهر الريف، فضلاً عن طواحين الهواء الهولندية المعروفة. وفي مدينة «سبارندام» تمثال لهانز برنكر البطل الأسطوري الذي أنقذ البلاد من الغرق في يوم من الأيام.

تقول الأسطورة: إنه قضى ليلة كاملة وهو يسد ثقباً في الجدار الحاجز لمياه البحر عن البلاد بأصبعه، وحين اتسع الثقب سده بذراعه حتى بزغت الشمس، وجاء العمال لسد الثقب بمعرفتهم، فأنقذت البلاد من الغرق حيث كان من الممكن أن يتسع الثقب وينهدم حاجز المياه لولا شجاعة هذا البطل.

هناك في «مادورو دام» أقاموا نموذجاً مصغراً لهذا التمثال ونبذة من أسطورة صاحبه، وكيف استولت هولندا على ثلث أراضيها من البحر بإقامة مثل هذا الحاجز والحفاظ عليه. وهناك نماذج أخرى للمكتبات والمطابع والمخازن والموانئ بما في ذلك ميناء «روتردام» أكبر موانئ أوربا حركة وتجارة. ثم أكثر من ذلك أن معظم دول ومدن العالم تضم ملاعب ضخمة لكرة القدم والرياضة على وجه عام ولم تستثن «مادورو دام» من ذلك، فأقاموا بها ملعباً لكرة القدم وآلاف من المشاهدين يتطلعون إلى صفوف اللاعبين وهم يتأهبون لبدء لعبهم.. وعلى مقربة منه نماذج لحواجز المياه الشهيرة التي تبعد غائلة البحر، والأبراج السياحية، ومصافي البترول، ومخازن الغاز، وقطارات السكك الحديدية التي تؤدي إلى مصايف بحر الشمال بشواطئه والمصطافون يتناثرون فوق الرمال، بينما يسبح بعضهم في المياه الهادئة، وعلى مقربة أيضاً مطار

«سخيبهول» الدولي لمدينة «أمستردام» والطائرات مستعدة للإقلاع. يشاهد الزائر كل ذلك كما هو في الطبيعة بما يغنيه عن مشاهدة هولندا كلها في ساعتين أو أكثر.. وكلما زاد الوقت زادت معرفته بما تحوي هذه المدينة من آثار وقصص تروى للتاريخ، ومناظر تمتع العين فكيف نشأت الفكرة ومن كان وراءها؟

بون.. مبدعة الفكرة

إحدى عضوات «المجلس المعاون لصحة الطلبة الهولنديين» واسمها السيدة



مطار مادورو دام

بون فان در ستارب هي صاحبة هذه الفكرة، كانت تريد مصدراً إضافياً للدخل يساعد على الإنفاق على المصحة فواتتها هذه الفكرة: أن تبتني مدينة مصغرة تعكس كل مظاهر الحياة والتاريخ الهولندي على قطعة أرض بأطراف العاصمة، وبالطبع ووجهت أول مرة بالدهشة والتردد لغرابة الفكرة، غير أنها ما لبثت أن حظيت بثقة زملائها وتعاطفهم؛ وذلك لإصرارها المستمر على تحقيق الفكرة وما ترمي إليه، وتبنى رجل يدعى مادورو هو وزوجته الفكرة فقدما مبلغاً كبيراً من المال لتحقيقها ولتكون تخليداً لذكرى ابنهما الذي توفي في أثناء الحرب وهو في أسر الألمان. وبدئ بتنفيذ المشروع عام ١٩٥٠م، واستغرق العمل فيه عامين ظهرت بعدهما إلى الوجود تلك المدينة المصغرة التي تعود بزائرها إلى أيام طفولته السعيدة، وتذوب الفوارق بينه وبين أطفاله، يعيش معهم أحلامهم وخيالاتهم، بينما تتاح له في الوقت نفسه فرصة لتغذية عقول أبنائه بكل ما هو مثير من المعلومات. ولشدة الإقبال على المشروع حقق دخلاً سريعاً فاق كل ما كانت تقدره السيدة «ستارب»، أو الذين كان لهم الفضل الأكبر في تنفيذه، وهم أسرة «مادورو»، التي حملت المدينة اسمهم. ولما كان العمل خيرياً في المقام الأول فقد تمكن القائمون على المشروع من تقديم مساعدات لكثير من منظمات الشباب، والبيوت الخيرية، ومدرسة المعوقين. ويشرف على ذلك صندوق خاص للمعونات يتبع إدارة المدينة التي تضم بالتناوب كل عام عدداً من مديري المدارس التربوية للمشاركة في إدارة المدينة، وأصبح قاعدة بعد ذلك أن يتم اختيار رؤساء مجالس البلديات في المدن الهولندية من المتدربين في مجلس إدارة هذه المدينة حيث تتاح لهم فرصة إدارتها بكل ما فيها من نماذج يتعاملون معها وكأنها مبان وإدارات وهياكل حقيقية بكل مشكلاتها من إنارة ومياه وصرف صحي ومواصلات. وأصبح تقليداً أن يحضر عمدة العاصمة كل احتفال تقيمه المدينة تعظيماً لشأنها.

ومن الطريف أنه بعد إنشاء المدينة ظهرت فكرة اختيار عمدة لها. وأعجبت الملكة جوليانا (أم الملكة بياتريكس الحالية) بالفكرة، فعهدت بهذا المنصب إلى ابنتها «بياتريكس» فكانت أول عمدة لـ «مادورو دام». وقام مجلس الإدارة بإهدائها سلسلة فضية تذكاراً لهذه المناسبة، بها شارات مصغرة لجامعات هولندا التسع وتنتهي بشارة خاصة بأسرة «مادورو» هي درع أحمر به هلال ونجمتان. وظلت الأميرة بياتريكس ترتدي هذه السلسلة إلى أن نصبت ملكة على البلاد وأصبح تقليداً أن يرتدي كل عمدة يعين على المدينة مثل هذه السلسلة.

هكذا أصبح الخيال حقيقة، ومصدراً للمال والثقافة والمتعة. ولو عاش «جوناثان سويفت» حتى اليوم لربما ذهب إلى محكمة العدل الدولية، وطالب بحقه في التعويض لاقتباس فكرته الخيالية عن «ليلي بوت» دون إذن منه، لكن عليه أولاً أن يطالب بتعديل ميثاق محكمة العدل الدولية حيث إنها لا تقبل الفصل في قضايا شخصية، وإنما تختص بالقضايا التي بين الدول.

جولة تاريخية بين المنارة والعمارة الإسلامية

عبدالله جعفر السيد
بورتسودان - السودان

اتسم عصر الدولة الإسلامية الأولى حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين بالبساطة المعبرة عن بساطة الدين الإسلامي، وسماحته المفرطة، إضافة إلى الشدة والقوة المانعة، والتقشف القاسي في عمليات الصرف من أموال المسلمين الذي سار على نهجه هؤلاء الخلفاء بالإجماع؛ لذلك لم تعبر بالخواطر فكرة الاهتمام بالنواحي الفنية والمعمارية بالنسبة إلى مساجد المسلمين الأولى، إضافة إلى انشغال هؤلاء الخلفاء بأمر نشر الدين والحروب والفتوحات التي لم يكن منها بد، ولم يكن للمسجد أي شروط بناء، أو هيئة معمارية بعينها، بل كان المسجد، وبكل بساطة، كما قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».



المسجد الأقصى

المساجد الأولى في الإسلام

لذلك اتخذ المسلمون، وفي السنوات الأولى من عمر الإسلام، مساجدهم التي كانت قطعة من الأرض، تمت إحاطتها بخندق حتى لا يدخل فيها هوام الناس والحيوان، وعلى هيئة المسجد النبوي الشريف بنى المسلمون مساجدهم الجامعة الأولى، كمسجد البصرة الذي بني سنة ١٤هـ على يد عتبة بن غزوان (ت:١٧هـ)، وقد أقام له سوراً من القصب، ثم بناه أبو موسى الأشعري من اللبن، وفيما بعد أعاد زياد بن أبيه بناءه من الحجر سنة ٤٤ هـ، كذلك أنشئ مسجد الكوفة سنة ١٥هـ، على يد سعد بن أبي وقاص (ت: ٥٥هـ)، وفي بداية أمره لم يكن له جدار ردحاً من الزمن، ثم عمل له جدار من قصب، ثم من لبن، ثم من حجارة وكان ذلك سنة ٥١هـ. أما مسجد عمرو بن العاص (ت:٤٣هـ) فقد بني سنة ٢١هـ بالفسطاط، وتمت توسعته عدة مرات، وفي سنوات مختلفة، وأخذ

أشكالاً وهيئات مختلفة، وهو أول جامع بني في مصر. ونصل إلى المسجد الرابع الذي بناه عقبة بن نافع (ت:٦٣هـ) في القيروان نحو سنة ٥٠ ـ ٥٥، وقد مر بناؤه بأطوار وهيئات مختلفة، ولكن هيئته الحالية ترجع إلى أيام الأمير إبراهيم بن أحمد (ت: ٢٨٩هـ) تاسع أمراء بني الأغلب سنة ٢٦١هـ، ولم نر هذه المساجد الأولى الجامعة، على الرغم من كونها مراكز للثقافة الدينية، ومدارس جامعة لعلوم الدين والقرآن والحديث، لم تر بسطاً أو فراشاً يليق بجلالها ومقامها الرفيع سوى طبقة من الحصى الصغيرة تملأ ساحاتها.

وبعد انتهاء عصر الخلفاء الراشدين، وما فيه من تقشف وورع، وانتشار الإسلام في أمم كثيرة، التفت الخلفاء والأمراء وسراة القوم إلى الناحية الحضارية في فن تجميل المعمار، فاستعانوا بأصحاب الصنعة من العمال والمهرة من الأراضي المفتوحة للإسلام من بيزنطيين ويونانيين، وفرس، واستقدموا بعض المعماريين والمزخرفين من القسطنطينية، واستعانوا بهم في بناء بعض المساجد مثل المسجد الأقصى والجامع الأموي.

المسجد الأقصى

أما المسجد الأقصى فقد بناه الخليفة عبدالملك بن مروان (ت:٨٦هـ) سنة ٧٤هـ، واستعمل في بنائه أنقاض كنيسة القديسة ماري، ويقال كنيسة جوستنيان التي كانت تقع في موقع المسجد الأقصى نفسه أو بالقرب منه، وقد هدمتها جيوش كسرى قبل ذلك بنحو ٧٥ سنة، وكانت الأنقاض تحتوي على أعمدة رخامية، وأشياء أخرى نافعة للبناء، وعلى الرغم من ذلك يقدر المؤرخون العرب نفقات أعمال بناء المسجد الأقصى بسبعة أضعاف خراج مصر في ذلك الحين، يضاف إليها نحو ١٠٠,٠٠٠ دينار ذهب تم سبكها وتفريغها على قبة المسجد الأقصى وأبوابه، وبلغ المسجد الأقصى من الروعة ما لم يصل إليه أي بناء إسلامي آخر.

المسجد الأموي بدمشق

بنى الخليفة الوليد بن عبدالملك (ت: ٩٦هـ) المسجد الأموي بدمشق بين سنة ٨٧ و ٩٦هـ على قطعة أرض كانت معبداً للصابئة الذين كانوا يعبدون الكواكب، ثم تحول إلى معبد يوناني لعبادة إله الصاعقة، وقد امتلأ بتماثيل كثيرة مختلفة، ثم تحول إلى معبد للإله الروماني جوبيتر، وجاء بعدهم النصارى فاتخذوه كنيسة للنصارى، وأخيراً جاء المسلمون وقاموا ببناء مسجد في صحنه إلى جانب الكنيسة، وضاقت طرقاته بروّاده واختلط فيه أذان المؤذن بدقات النواقيس، حينها قام الخليفة الوليد بشراء الكنيسة، وبنى على أنقاضها الجامع الأموي على غير مثال متقدم من الروعة والجمال؛ إذ جعل أرضه مرمراً مفروشاً، وكسا جدرانه إلى أوساطها رخاماً مجزعاً، وجعل المحراب ذهباً مرصعاً بالجواهر، ولغط الناس وقالوا: محق الوليد بيوت أموال المسلمين، ولكن الوليد صعد المنبر ذات جمعة وقال للناس: إن في بيوت الأموال من الأعطيات ما يكفي المسلمين سبع سنين.

واتخذ المسلمون المآذن بمدينة دمشق حين أذنوا للصلاة من أبراج المعبد الوثني القديم الذي قام على أنقاضه المسجد الأموي، والثابت في كتب السير أن المساجد الأولى في الإسلام كانت بغير مآذن، وعرف المسلمون المكان الذي يرفع منه الأذان باسم المئذنة أو الصومعة أو المنارة، وكان العرب يطلقون على أبراج الزهاد اسم «الصوامع»، ولعل بقاء هذه الكلمة للدلالة على المآذن راجع إلى المآذن الأولى في الشام وغيرها حيث إنها كانت مربعة الشكل كأبراج الزهاد، وظلت المئذنة تسمى الصومعة في بلاد المغرب حتى الآن.

الجامع الأزرق بإستانبول في تركيا

المآذن وأهداف أخرى

لم تكن المآذن تستعمل من أجل الأذان فحسب، بل كثيراً ما كانت تستعمل لأغراض أخرى على غرار مئذنة جامع الزيتونة في المغرب الذي كان قلعة حربية بقلاعه الأربع المستديرة، وكانت منارته تستعمل للمراقبة واستكشاف العدو، وكان الجامع رباطاً أو ثكنة حربية لحراسة الثغور من القراصنة الذين اعتادوا مهاجمة المدن الساحلية في فترة العصور الوسطى.

أما كلمة منارة فكانت تطلق في البداية على المكان الذي تشتعل فيه النار، أو ينبعث

منه النور، ثم أطلقت على الفنارات عامة، وانتقلت منها إلى المآذن للتشابه المطلق بينها وبين أبراج الفنارات.

والثابت أن المآذن الأولى التي شيدها المسلمون كانت أبراجاً مربعة الشكل، وأن هذا الطراز السوري في بناء المآذن انتقل إلى سائر أنحاء الدولة الإسلامية، ولا سيما إلى بلاد الجزيرة ومصر وبلاد المغرب والأندلس، ثم أتيح له البقاء في غرب العالم الإسلامي. وأقدم الصوامع القائمة الآن في بلاد المغرب صومعة جامع سيدي عقبة بن نافع (ت: ٦٣هـ) التي شيدت في عصر هشام بن عبدالملك (ت:١٢٥هـ)، وهي برج مربع الشكل ضخم يضيق قليلاً كلما ارتفع، تعلوه شرفات فوقها طابقان بني أعلاهما في عصر متأخر.

المآذن في مصر

أما في البلاد المصرية فقد عرفت أشكال مختلفة من المآذن حتى غدت القاهرة معرضاً لمعظم أنواع العمارة والمآذن التي عرفتها العمارة الإسلامية، وأقدم هذه المآذن في مصر مئذنة جامع أحمد بن طولون (ت: ٢٧٠هـ) وهو الجامع الثالث الذي أنشئ لصلاة الجمعة والجماعة في مصر، ويعد من الجوامع القليلة المحتفظة بتفاصيلها المعمارية الدقيقة وهيكلها الأصلي العظيم، لكن هناك اختلافاً حول منارتها التي يرى بعضهم أن الخليفة المنصور لاجين (ت: ٦٩٨هـ) قد أنشأها مرة أخرى سنة ٦٩٦هـ على مثالها القديم ضمن صيانته وعمارته للجامع، وهي تتألف من قاعدة شبه مربعة تقريباً ٧٨ر١٢× ٦٥ر١٣ متراً، وتقوم عليها طبقة أسطوانية عليها أخرى مثمنة، وسلّمها حلزوني ومن الخارج، وليس لهذه المئذنة نظير إلا منارة الملوية أشهر آثار سامراء، التي بناها الخليفة المعتصم (ت: ٢٢٧هـ)، ويبلغ ارتفاعها ٥٢ متراً، وكان يصعد عليها المتوكل (ت:٢٤٧هـ) على ظهر حماره الشهير «المريسي» وتقوم على بعد قليل منها ملوية أخرى تشبهها لكن أصغر منها؛ إذ يبلغ ارتفاعها ١٩ متراً بناها الخليفة جعفر المتوكل مع مسجده المسمى «جامع أبي دلف».

وقد فطن علماء الآثار إلى وجه الشبه بين هذه المنارات الثلاث والمعابد القديمة التي شيدت في العراق والجزيرة على يد السومريين والبابليين والآشوريين، حيث كانت معابد لعبدة النار التي كانت للساسانيين، والتي كانت تقدم عليها القرابين.



مسجد محمد علي باشا بالقلعة في القاهرة

الخصائص الفنية العربية الإسلامية

بدأت خصائص الفن الإسلامي تتضح جلية عندما أخذ المسلمون يجمعون شتى الطرز المعمارية القديمة، ويصهرونها في بوتقتهم العربية، ويطبعونها بطابع دينهم، ويظهرونها للعالم فناً إسلامياً جديداً متميزاً من غيره من الفنون المعمارية المعروفة في ذلك الحين، وتطورت تلك الفنون قطرياً وأصبحت ذات طُرز معلومة، فكان هناك الطراز الأموي، والطراز التركي، والطراز الإيراني، والطراز الهندي، والطراز الأندلسي وغيرها، وهي بذلك تختلف عن العمارة الأوربية التي مرت بأطوار معلومة يسود كل منها عصراً بعينه، كما في الطرز الرومانية والقوطية والرنيسانس والروكوكو والباروك وغيرها. وكانت هناك طفرات في الفن الإسلامي تتمثل في تعدد الأروقة، ورفع سُقُف الجوامع على أعمدة من الرخام والحجر وشكل الأقواس والقناطر التي تحمل سقوفاً من خشب الساج، أو القباب التي تعلو النوافذ. وعندما بلغ ترف الدولة الإسلامية منتهاه أضافت إلى البنيان الإيوانات الواسعة، والمحاريب المنمقة، والمآذن الشامخة المتعددة الشرفات، والإسراف في الزخرفة والنقش، واستعمال أغلى المواد وأثمنها. وكان من الطبيعي أن يكون الجامع مركزاً للثقافة الدينية التي تقوم في جوهرها على علوم القرآن والسنة، ومع تطور الدولة الإسلامية بدأت العلوم المدنية تأخذ مكانتها إلى جانب العلوم الدينية. ومن خصائص المساجد الأندلسية وجود حمامات ضخمة بالقرب من المساجد.

تمازج حضاري

ليس باستطاعتنا نكران مقدار استعانة المسلمين، وخصوصاً في أوائل عصر نهضتهم، برجال الفن والصناعة من أهل البلاد التي كانت ذات حظ وافر في ميادين الحضارة، فالعمارات الإسلامية القائمة على طول العالم الإسلامي الممتد من الصين إلى

الأندلس اشترك في بنائها وتجميلها صناع مهرة ومهندسون كثيرون من مختلف الجنسيات التي اتخذت الإسلام ديناً، وحتى الذين بقوا على دينهم من فرس وبيزنطيين وهنود ومغول وبربر ونصارى وغيرهم، كان الفنانون منهم، وعلى اختلاف جنسياتهم، يظفرون بالتقدير والمكافأة من الحكام الذين كان يحلو لهم استغلال مواهبهم في تشييد المباني وزخرفتها وتأثيثها منفقين عليها المال بكل سخاء وكرم، يدفعهم إلى ذلك رغبة في تخليد مآثرهم وأمجادهم، فكانت المساجد والمدارس ودور الشفاء والقصور والقلاع الحصينة وصنابير الماء والأضرحة وحتى المدافن.

التأثير الأندلسي

يعدّ عصر المماليك العصر الذي تسربت فيه التأثيرات الفنية الأندلسية إلى مصر إثر سقوط مدن الأندلس، وما صاحب ذلك من هجرة أعداد كبيرة من أهل الأندلس إلى مصر، ومنهم أصحاب المهن الفنية المختلفة، وفي هذه الفترة ظهر فن تجميل المآذن الذي بلغ شأواً بعيداً، تشهد بذلك عقود الطابق الأعلى في مئذنة جامع المنصور قلاوون، وفي تفاصيل الزخرفة الجصّية بمئذنة الناصر محمد بالنحاسين، وعقود مسجد سنجر الجاولي. وهناك بعض عناصر معمارية أخرى تكشف عن تأثير أندلسي مباشر. أما بالنسبة إلى فلسطين وبلاد الجزيرة فإننا نجد أنه لم يكن لهما فن خاص بهما، ونجد أن فلسطين قد تأثرت بالأساليب المصرية؛ فقد ذاعت المئذنة المربعة ثم المثمنة الأضلاع على قاعدة مربعة.

أما جزيرة العرب فقد شيدت المآذن على الطراز المملوكي، ثم الطراز التركي؛ وحتى الشام فقد بنيت فيه بعض المساجد على الطرز المملوكية، ثم التركية بعد أن كانت تبنى في البداية مربعة الشكل. وفي العراق بنى المعماريون طرزاً مختلفة من المآذن.

المآذن في إيران والهند والصين

كانت المآذن الأولى في إيران مثمنة الشكل في معظمها، ثم غلبت عليها المآذن

مئذنة العروس في الجامع الأموي

الأسطوانية منذ القرن الخامس الهجري، وأصبحت تجمل بالزخارف الهندسية من الطوب نفسه المشيدة منه أو بكسوة من القاشاني، وكانت المئذنة الإيرانية دقيقة الطرف، وتنتهي في أعلاها بردهة تقوم على دلايات أو مقرنصات، وتكسبها شكل الفنار؛ وقد أصبح لمعظم المساجد الإيرانية منذ القرن التاسع الهجري مئذنتان تحفان بالمدخل وتختفي قاعدة كل منهما خلفه، إلا في بعض المساجد فإنهما ظاهرتان للعيان وتزيدان المدخل ضخامة وارتفاعاً. وتختلف المآذن الإيرانية عن سائر المآذن الشامية والمصرية والمغربية وغيرها في أنها لا طبقات لها ولا نوافذ، والمئذنة الإيرانية بناء شاهق مبني لذاته، وليس فيها سلالم يسير فيها المؤذن، وقد عم استعمالها في إيران منذ القرن السادس الهجري، وكان المؤذن لا يستطيع أن يستعملها، وإنما كان المؤذن يدعو إلى الصلاة من فوق سطح المسجد.

أما في الهند فقد ظلت المساجد تشيد بغير مآذن مدة طويلة، ثم عمّ استعمال المنارات منذ القرن التاسع الهجري، وسار القوم على سنة الإيرانيين، حيث يكون للمسجد مئذنتان تحفان بمدخله. وكانت المساجد الهندية غالباً ما تكون أسطوانية تضيق كلما ارتفعت، وتزينها شرفات وتضليعات. وتعدّ أجمل المآذن الهندية القديمة على الإطلاق مئذنة (قطب منار) التي بنيت في القرن السابع الهجري بمدينة (دهلي) القديمة (دلهي) الحديثة ولعلها أفخم المآذن الإسلامية عامة، ويبلغ ارتفاعها ٥ر٧٢ متراً، وقطر قاعدتها ١٤ متراً، وطبقاتها السفلية الثلاث من الحجر الأحمر، أما الطبقات العلوية فمن الرخام الأبيض، وفيها طبقات من الحجر، وتكسو هذه المئذنة تضليعات وعصابات من الكتابة، وأشرطة من الزخارف المعمارية.

ومساجد الصين لا تختلف كثيراً عن المعابد الصينية القديمة إلا في وجود المحراب، وعادة يكون في جدار القبلة، ونجد

أن لبعض المساجد قبباً أشبه بالقبب الروسية أو الهندية البصلية الشكل، وأهم تلك المساجد في كانتون هو مسجد كوانتا الذي بني قبل ألف سنة تقريباً، ولهذا المسجد مئذنة أشبه بالبرج، ذات شكل أسطواني خالية من كل زخرفة إسلامية معروفة، لكن شكل رأسها الأعلى على طراز الرأس الهندي نفسه.

ونصل إلى آسيا الصغرى ونجد أن العثمانيين زادوا في ارتفاع المآذن الإسلامية عما عرفه السلاجقة، وأصبحت المآذن عندهم أسطوانية وطويلة ممشوقة تعلوها قبة مخروطية الشكل مدببة، وزاد عدد المآذن في المساجد التركية بحسب أهميتها حتى بلغت ستاً في جامع السلطان أحمد في القسطنطينية، وقد انتشر الطراز العثماني في البلاد الإسلامية التي ضمها الأتراك، ومن أبدع المآذن التركية في مصر مئذنتا جامع محمد علي باشا في القلعة ويبلغ ارتفاع كل منهما ٨٤ متراً عن سطح الأرض.

الأندلس وآثار فريدة

وأخيراً نصل إلى الأندلس الذي كثرت فيه المساجد في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وكذلك اندثرت عندما سقطت الأندلس في يد الفرنجة، وعلى الرغم من ذلك فما زالت الأندلس غنية بآثارها العربية الباقية، وما زال مسجد قرطبة له مكانة فريدة بين آثار العمارة الإسلامية، وقد ظهرت فيه أول ما ظهرت الأقواس نصف الدائرية، والعقود المنحنية انحناءة حدوة الفرس، وهي المعالم التي تميز بها فن البناء الأندلسي، وهو أقدم مباني الأندلس جميعاً، ويعد أكبر مسجد قام في الإسلام عمارة، وثالث المساجد الكبرى مساحة بعد مسجدي سامراء وأبي دلف في العراق، أقامه العرب في غضون ٧٥ سنة من فتحهم للأندلس سنة ٧١١م، واستعمل في تشييده حجارة وأعمدة رومانية وقوطية اشتراها عبدالرحمن الداخل (ت: ١٧٢هـ)، واستمرت أعمال البناء في هذا المسجد طوال عقدين ونصف العقد من الزمن، وبنيت منارة المسجد مربعة الشكل ضلعها ٦ر١٣ متراً من الطوب الأحمر السميك، وسمك حوائطها متران ونصف المتر، ومنها إلى أعلى كثير من الفتحات تسمح بنفاذ النور والهواء، ويبلغ ارتفاعها ٧٠ متراً، وكان في أعلاها أربع تفافيح كبيرة من النحاس غلفت بطبقة من الذهب، وبلغت



المئذنة الملوية في سامراء بالعراق

نفقتها وحدها أكثر من مئة ألف دينار. وبعد سقوط قرطبة في أيدي الفرنجة تم تحويل هذا المسجد إلى كنيسة، وأزيلت هذه التفافيح، وعمل في مكانها وعلى الدائرة التي يدور عليها المؤذن أبراج للنواقيس، ووضعوا فوقها تمثالاً ارتفاعه أربعة أمتار يتحرك فيها مع الرياح حيث سارت، ومنها أتت تسميتها «خيرالدا» أي لعبة الهواء، ولكن أروع ما في هذا المسجد قبة المحراب، وغابة الأعمدة في حرمه والتي تحمل صفين من العقود المتعانقة كتعانق أغصان الشجر، وتغطي مساحة المسجد ما يزيد على ٠٠٠ر١٢ متر مربع.

فالمساجد الجامعة في الأندلس كانت، ومنذ قيامها، مراكز لدراسة العلوم الدينية واللغوية، ثم استحالت إلى جامعات عالية تدرس فيها العلوم الدينية والعلوم المدنية كافة، من طب وفلسفة وفلك وغيرها، فكانت جوامع الأندلس هذه تجذب إليها الطلاب المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وكان من هؤلاء الطلاب المسيحيين من صار حبراً من الأحبار، مثل الراهب «جربير» الذي درس في المعاهد الإسلامية بقرطبة وإشبيلية أيام المنصور بن أبي عامر، وتولى البابوية فيما بعد باسم البابا «سلفستر الثاني».

إن تأثير الفن الإسلامي في الفن البيزنطي قلما يثير الدهشة، فقد كانت إسبانيا مركزاً للثقافة والفنون العمرانية الإسلامية الراقية مما أثر في بناء الكنائس والكاتدرائيات الأوربية، وظهر تأثير هذا الفن العمراني الراقي في صقلية خاصة، وتسربت مؤثراته إلى قشتالة، ومنها إلى جنوب فرنسا. أما في إسبانيا وفيما بعد العرب، فقد كانت القصور الملكية الإسبانية والإفرنجية يغلب عليها الطابع الأندلسي العربي، وظهر هذا جلياً في الكنائس الأثرية الإسبانية والأندلسية.

المراجع

١. مجلة العربي العدد ٨. مسجد دمشق يتكلم. صلاح الدين المنجد.
٢. مجلة العربي العدد ٢٣. جامع أحمد بن طولون. حسن عبدالوهاب.
٣. مجلة العربي العدد ١٣٦ مساجد الإسلام والمسلمين. د. حسين مؤنس.
٤. مجلة العربي العدد ١٦٧. فن العمارة الإسلامية. شريف يوسف.
٥. مجلة العربي العدد ١٦٠. قبة الصخرة والمسجد الأقصى. يوسف زعبلاوي.
٦. مجلة العربي العدد ١٨٥. المنارة بين الشريعة والعمارة. عبدالمجيد وافي.
٧. مجلة الهلال عدد يونيو ١٩٧٣م بيوت الله. عاطف مصطفى.
٨. مجلة الكتاب عدد سبتمبر ١٩٤٦م تطور المآذن. زكي محمد حسن.
٩. فتوح البلدان للبلاذري الطبقة الأولى سنة ١٩٠١م.
١٠. رحلة الأندلس. محمد لبيب البتنوني الطبعة الثانية.
١١. مجلة كتاب الشعب عدد خاص بالعمارة المدنية بالأندلس.

الحركة الفكرية في الريف

بنعيسى بويوزان
الناظور - المغرب

لا شك أن الحركة الثقافية بالمغرب الأقصى تشكل العمود الفقري للحركة الثقافية في الغرب الإسلامي بخاصة، وتعد جزءًا مهمًا من الثقافة العربية الإسلامية عامة. ذلك بما أوتيته من تنوع وتعدد، وبما عرفته من شخصيات لها وزنها في الثقافة العالمية أجمعها، بما تميزت به من سبق ونفاذ بصيرة في مختلف فروع العلم والمعرفة.

والواقع، أن الدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ الفتح الإسلامي، كان لها اهتمام خاص بالثقافة، ورعاية خاصة للعلماء والأئمة الذين حملوا على عواتقهم مهمة الإشعاع الفكري في الغرب الإسلامي سواء في عدوة المغرب أو في عدوة الأندلس. إلا أن الحركة الثقافية التي عرفتها المغرب على عهد بني مرين - وإلى جواره الأندلس على عهد بني الأحمر - لم يسبق أن عرفها من قبل ومن بعد، إذ إن دولتهم كانت في خدمة العلم، بحيث انصرفت الهمم إلى طلبه، واشتد التنافس في تحصيله، فكثر العلماء نتيجة لذلك، وفعلاً فإن ما عمله المرينيون في هذا الصدد يجعلهم حريين بلقب دولة العلم الذي يطلقه عليهم بعض المؤرخين، ولقد بذوا بمآثرهم العلمية جميع من تقدم أو تأخر من ملوك المغرب(١).

وما يميز الثقافة المغربية عهدئذ، هو كونها حركة ثقافية شاملة سواء على مستوى التخصصات من علوم إسلامية وأدبية وعلوم فقه، أو على مستوى التوزيع الجغرافي للمراكز العلمية التي شملت المغرب كله شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وفي حواضر ذلك العصر وبواديه.

الريف وحضور متميز

والجائل بين مصادر هذه المرحلة لا شك أنه يحس بهذا التكافؤ بين أبناء المغرب وجهاته في المشاركة في بناء صرح الثقافة المغربية في عهد بني مرين، وفي مختلف العلوم والمعارف، للظاهرة الموسوعية التي طبعت رجال العلم والمعرفة في تلك المرحلة.

وتبعاً لذلك، فإن الريف أو بلاد الريف - كما تسميه المصادر - على عهد بني مرين له حضور



ابن بطوطة

التميز في الثقافة المغربية كما يتبين من خلال ما تذكره كتب التاريخ والتراجم من أعلام منطقة الريف، من حفاظ، وفقهاء، وقضاة، وشعراء، وكتاب، وحيسوبيين وفلاسفة ومتصوفة، ومن إليهم من الأعلام الذين حفظت أسماؤهم في هذه المصادر، على الرغم من ندرة ما وصلنا من الإنتاج الذي أبدعوه، مما لا يزال في بطون الخزائن والمخطوطات، إن لم يكن قد عفى عليه الزمن فضاع كما ضاع قسط مهم من إنتاج هذه المرحلة لظروف مختلفة.

والواقع أن الدور الثقافي لمنطقة الريف في تاريخ الثقافة المغربية بلغ أوجه في عهد بني مرين بعدما كانت له سوابق وعهود مع الدول التي تعاقبت على حكم المغرب قبل المرينيين؛ ذلك أن مصادر تاريخ المغرب قبل الدولة المرينية، كلما أتت على ذكر بلاد الريف وقفت عند منطقتين مهمتين لهما دورهما الثقافي والسياسي بخاصة في تاريخ المغرب، هما نكور ومليلية التي كانت تعرف آنئذ بمليلة.

نكور وازدهار الحياة السياسية والثقافية

أما نكور فقد احتلت حيزاً مهماً في كتب تاريخ المغرب في أثناء حديثها عن أمرائها وأحوالها(٢) ويلخص الحميري أخبارها في «الروض المعطار» قائلاً: «مدينة نكور بالمغرب بقرب مدينة مليلة، وهي مدينة كبيرة بينها وبين البحر نحو عشرة أميال، وقيل: خمسة وهي بين رواب وجبال، منها جبل يقابل المدينة يعرف بالمصلى، وبها جامع على أعمدة من خشب العرعر، وهو والأرز أكثر خشبها، ولها أربعة أبواب: في القبلة باب سليمان، وبين القبلة والجوف باب بني ورياغل، وفي المغرب باب المصلى، وفي الجوف باب اليهود، وسورها من اللبن، وحماماتها كثيرة، وأسواقها عامرة.. وهي قديمة أزلية، افتتحها سعيد بن إدريس بن صالح الحميري أو بناها، وهو المعروف بالعبد الصالح؛ وذلك أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان(٣)، والظاهر من قول الحميري أن مدينة نكور كانت مدينة ذات شأن سياسي، إذ كانت عاصمة أمرائها الذين تداولوا عليها، إلى جانب شأنها الاقتصادي كما هو واضح من قوله الذي جارى فيه من سبقه من المؤرخين ممن تحدث عنها، ونقل عنهم خصوصاً وأنها كانت على مقربة من مرسى المزمة، الحسية حالياً، ومرسى تمسامان الذي كان يعد عهدئذ من المراسي المشهورة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، على حد تعبير الحميري، وأبي عبيد البكري(٤).

فطبيعي إذن أن تكون الحياة الثقافية فيها مزدهرة تبعاً لازدهار حياتها السياسية والاقتصادية. لذلك لا غرابة في أن نجد الشعراء

يؤمونها لمدح أمرائها على ما جرت عليه العادة قديماً. ثم إن قيمة مدينة نكور الثقافية تتضح جلياً إذا عرفنا أن شعراء أندلسيين عبروا البحر قاصدين أمراءها ومنهم الشاعر الأندلسي الأحمس الطُليطلي من مدينة طُليطلة ليصبح شاعر آل صالح أمراء نكور في ذلك العهد(٥). ذلك أنه لما استقر الأمر لسعيد بن صالح بن سعيد، أحد أمراء نكور، وانقادت له القبائل الريفية التابعة له، بعث إليه عبيد الله المهدي أحد قادة الشيعة العبيديين خطاباً يدعوه فيه إلى الدخول في طاعته، فذيّل خطابه ذاك بأبيات قال فيها:

وإن تستقيموا أستقم بصلاحكم
وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا
وأعلو بسيفي قاهراً لسيوفكم
وأدخلها عفواً وأملؤها قتلا

فكتب إليه الأحمس الطُليطلي بإيعاز من يوسف بن صالح أخي الأمير سعيد قائلاً:

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا
ولا علم الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت إلا جاهل ومنافق
تمثل للجهال في السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد
وقد جعل الرحمن همتك السفلى(٦)

وإلى جانب هذا الشاعر الوافد، حفظت لنا المصادر بعض الأبيات الشعرية لأحد أبناء هذه المدينة، وهو الشاعر إبراهيم بن أيوب النكوري يقول فيها:

أيا أملي الذي أبغي وسؤلي
ودنياي التي أرجو وديني
ألحرم من يمينك ري نفسي
ورزق الخلق في تلك اليمين
ويحجب عن جبينك لحظ طرفي
ونور الأرض من ذاك الجبين
وقد جبت المهامه من نكور
إليك بكل ناجية أمون

فيتضح من هذا النزر اليسير الذي أوردناه على قلته أن الحركة الثقافية التي بلغتها هذه المنطقة على عهد بني مرين كما سنرى ما هي إلا امتداد وإرث تعاقبه أبناؤها عبر أجيال حتى بعد سقوط نكور وتخريبها نهائياً على يد يوسف بن تاشفين حين اجتاح بجيوشه سنة ٤٧٣ هـ شرسيف ومليلية وسائر بلاد الريف(٧).

مليلية وتعاقب الدول

وشأن مدينة نكور وضواحيها، كشأن مدينة مليلية التي تداول المؤرخون ذكرها في تاريخ المغرب منذ فجر الإسلام، بما عرفته من أحداث جليلة طبعت تاريخ المغرب إلى اليوم، مما يعكس قيمتها السياسية والثقافية على حد سواء. ذلك أن أول ظهور لها في التاريخ الإسلامي كان في القرن الرابع الهجري عندما جدد بناءها الزعيم الزناتي موسى بن أبي العافية المكناسي مؤسس الإمارة المكناسية (ت:٣٤١هـ). وفي عام ٣١٥هـ احتلها خليفة الأندلس الأموي عبدالرحمن الثالث الملقب بالناصر، وحصن أسوارها، واتخذ منها قاعدة عسكرية أمامية لمقاومة الخطر الشيعي الفاطمي، وظلت هذه المدينة في أيدي الأمويين إلى أن اعتصم بها إدريس الأول حين حل بها قادماً من المشرق قبل أن ينتقل إلى فاس، ثم احتلها المرابطون، ثم الموحدون، ثم المرينيون وأخيراً الوطاسيون(٨). وذكر المقري التلمساني أن السلطان أبا عبدالله محمداً آخر ملوك بني الأحمر، نزل بعد سقوط عاصمة مملكة غرناطة نهائياً بمدينة مليلية نازحاً إليها من عدوة الأندلس قبل أن يستقر بفاس(٩). وأعتقد أن هذه المدينة استفادت ولا شك من تعاقب هذه الدول عليها ثقافياً، كما استفادت سياسياً وعسكرياً، على الرغم من أن المصادر شحيحة في إيراد إنتاجها الثقافي والفكري، وأسماء الأعلام الذين برزوا فيها قبل عهد بني مرين.

هذه العجالة عن بلاد الريف وبخاصة نكور ومليلية قبل إمارة بني مرين على المغرب، تنم على الظروف التي مهدت للانفجار الثقافي في الريف في مرحلة حكم المرينيين الذي صاحب النشاط الثقافي العارم الذي شهده المغرب في عهدهم كما سبقت الإشارة.

الارتباط بين بني مرين والريف

وفي حقيقة الأمر لا يمكن الفصل بين بني مرين والريف؛ لأن منشأ الدولة المرينية كان في الريف، ومنه انطلقت شرارة ملكهم للمرة الأولى عندما هزموا الموحدين في ضواحي نكور. فقد قسم ابن خلدون قبيلة بطوية إلى ثلاثة بطون: بطن في تازة، وبطن يضم بني ورياغل بالمزمة الحسيمة حالياً، وبطن يضم أولاد علي بتافرسيت، «وكان لأولاد علي ذمة مع بني عبدالحق ملوك بني مرين، وكانت أم يعقوب بن عبدالحق منهم»(١٠) بمعنى أن أخوال بني مرين هم أولاد علي بتافرسيت، إذ إن مؤسس الدولة المرينية يعقوب بن عبدالحق بن محيو تزوج أم اليمن بنت محلى البطوي من تافرسيت فأنجبت له ولده يعقوب(١١) خامس أمراء بني مرين، وعلى يديه بسط بنو مرين الحكم على سائر بلاد المغرب، وقضوا على الموحدين. وقد وصف علي ابن أبي زرع الفاسي أم اليمن بنت محلى والدة يعقوب بن عبدالحق هذا فقال: «أمه حرة زاكية مباركة، أم اليمن بنت محلى البطوي الزناتي كانت من عقلاء النساء»(١٢). وهذا ما جعل تافرسيت تدخل حلبة الصراع السياسي في عهد بني مرين، فانعكست عليها الأوضاع بإيجابياتها وسلبياتها، حتى إنه لما انهزم يغمراسن بن زيان على يد يعقوب بن عبدالحق «مر في طريقه بتافرسيت فانتسفها وعاث في نواحيها»(١٣) وهو متوجه إلى تلمسان مهزوماً، تعبيراً بذلك عن انتقامه من أخوال يعقوب فأحرق ديارهم ومزارعهم.



باب أبي الجنود بمدينة فاس

وكان وجود بني مرين أول عهدهم ببلاد الريف للروابط التي تربطهم بأهله، وكان مستقرهم لذلك فيه. ولما قام الموحدون للتصدي لهم والقضاء على دعوتهم، سار بنو مرين حتى التقوا بجيش الموحدين بزعامة أبي علي بن وانودين في نكور، فكان الانتصار حليف المرينيين على الموحدين كما هو معروف في كتب التاريخ(١٤).

هذا الارتباط السياسي بين بني مرين وبلاد الريف، واكبه ارتباط ثقافي بين، بحيث ظهرت كوكبة من العلماء في الريف بلغت شأناً مهماً سواء في خدمة البلاط المريني أم في تولي مناصب عالية في فاس، العاصمة السياسية والعالمية للدولة المرينية. واللافت للانتباه في هذا الشأن، هو أن كل من تأتي المصادر المغربية على

ذكره من أعلام الثقافة العربية الإسلامية في الريف، كان مستقراً بفاس، لكونها عاصمة المرينيين أولاً، ولأنها مركز الإشعاع الثقافي العربي الإسلامي في العالم الإسلامي كله إلى جانب غرناطة، بعدما أفل نجم كثير من المراكز العلمية في المشرق في ذلك العهد ثانياً، هذا فضلاً عن كون هذه المصادر اهتمت بتاريخ مدينة فاس ومن كان بها، أوحل بها من العلماء.

والذين تذكرهم المصادر المغربية من هؤلاء الأعلام تتوزعهم ثلاث مناطق من الريف هي: منطقة بني ورياغل، ومنطقة جزناية، ومدينة مليلية، ويضاف إلى هذه المناطق، مناطق أخرى ينسب إليها صوفيون وأولياء أتى على ذكرهم البادسي في «المقصد الشريف» كما سيأتي الحديث عنه.

من أعلام بني ورياغل وجزناية

أما من تذكرهم المصادر من بني ورياغل، فمنهم:

- إدريس بن يخلف البوفرجي الصنهاجي الريفي، كان فقيهاً وفرضياً وحيسوبياً - مؤقتاً، وكان تلميذاً لأحمد الونشريسي وللإمام القوري وله نظم ونثر، وله اصطلاحات في ألفية ابن مالك، توفي بعد ٩٠٠هـ(١٥).

- إسحاق بن يحيى بن مطر الورياغلي المعروف بالأعرج، كان آية الله في المدونة، وهو صاحب الطرر عليها، وكان فقيهاً بفاس توفي عام ٦٨٣هـ(١٦).

- عبدالله بن عبدالواحد الورياغلي، وهو أحد كبار فقهاء مدينة فاس وقضاتها ومدرسيها ومفتيها، درس على جملة من كبار علماء عصره، قدمه علماء فاس على أحمد الونشريسي في نزاع بينهما حول منصب التدريس بإحدى مدارس فاس، توفي عام ٨٩٤هـ(١٧).

- عبدالعزيز بن موسى الورياغلي، قال فيه ابن القاضي المكناسي: إنه «صاعقة الزمان»، وكان فقيهاً وخطيباً بجامع القرويين بفاس، وهو الذي ثارت العامة على يديه ضد عبدالحق المريني الأصغر، توفي عام ٨٨٠هـ(١٨).

- عبدالعزيز بن محمد البوفرحي، كان فقيهاً صالحاً ورعاً وخطيباً بجامع القرويين، توفي عام ٨٩٩هـ(١٩).

- علي الورياغلي، كان فقيهاً وفرضياً وحيسوبياً، توفي بفاس عام ٩٦٢هـ(٢٠).

- عبدالله بن عبدالواحد الورياغلي أبو محمد، قاضي قصر كتامة، كان فقيهاً وحافظاً، توفي عام ٨٩٤هـ(٢١).

وأما من ذكر من جزناية، فنذكر منهم على وجه الخصوص:

- أحمد بن شعيب الجزنائي، ويعرف بابن شعيب، وجزناية قبيلة من قبائل البربر من الريف الغربي، كان من أهل المعرفة بصناعة الطب، وتدقيق النظر فيه، مشاركاً في الفنون خصوصاً في علم الأدب، حافظاً للشعر، ذكر أنه حفظ منه عشرين ألف بيت للمحدثين، والغالب عليه العلوم الفلسفية، وتهتك في علم الكيمياء، وخلع عليه العذار، وله شعر رائق، وكتابة حسنة، وخط ظريف كتب في ديوان الإنشاء بباب سلطان المغرب، وكان الطبيب الخاص لأبي الحسن المريني، توفي بتونس في عيد الأضحى، حين وصلها مع مخدومه أبي الحسن عام ٧٤٩هـ(٢٢).

وقد حفظ لنا ابن الخطيب نتفاً من شعره في «الإحاطة» تنم على شاعرية فذة وطول باع فيه، من ذلك قوله:

رعى الله وادي شينانة ... وتلك العشايا وتلك الليالي
ومسرحنا بين خضر الغصون ... وودق المياه وسحر الظلال
ومرتعنا تحت أدواحه ... ومكرعنا في النمير الزلال
نشاهد منها كعرض الحسام ... إذا ما انتشت فوقه بالعوالي
ولله من در حصبائه ... لآل وأحسن بها من لآل
وليل به من ستور الغصون ... كخود ترنم فوق الحجال

وله أيضاً:

قال العذول تنقصا لجماله ... هذا حبيبك قد أطل عذاره
لا بل بدا فصل الربيع بخده ... فلذا تساوى ليله ونهاره

وقال أيضاً:

يا من توعدني بحادث هجره ... إن السلو لدون ما يتوعد
هذا عذارك وهو موضع سلوتي ... فاكفف فقد سبق الوعيد الموعد
وأظن سلوتنا غداً أو بعده ... فبذاك خبرنا الغراب الأسود

وله أيضاً:

أيجمع هذا الشمل بعد شتاته ... ويوصل هذا الحبل بعد انبتاته
أما للبلى من آية عيسوية ... فينشر ميت بعد مماته
ويورد عيني بعد ملح مدامعي ... برؤيته في عذبه وفراته(٢٣)

وقد أورد له ابن الخطيب غير هذه الأبيات لما في شعره من رقة وعذوبة لا تقل جودة عن شعر كبار شعراء عصره في المغرب والأندلس، يضاف إلى ذلك وزنه السياسي داخل بلاط بني مرين، بما كان يعج به من الشعراء والعلماء الذين كان يحرص أبو الحسن المريني على مجالستهم في قصره.

- أبو حفص عمر بن عبدالرحمن بن يوسف الجزنائي، كان فقيهاً وحيسوبياً وشاعراً وناثراً وفرضياً، له رجز في علم الأوقاف وشرحه، توفي بعد سنة ٩٠٠هـ(٢٤).

وأما من يذكر من مدينة مليلية، فإنهم ينتمون إلى بيت بني المليلي الذين استقروا بفاس أيام أبي بكر بن عبدالحق المريني، قال فيهم ابن أبي زرع الفاسي: «ومنهم بيت بني المليلي الذين هم في زماننا هذا، بيتهم بيت علم وفقه وثروة وحسب»(٢٥). وقد أنجب هذا البيت ثلة من كبار العلماء من بينهم:

- أبو بكر بن عبدالرحمن المليلي ولد بمليلية، وأخرجه عنها إلى مدينة فاس السلطان أبو بكر بن عبدالحق المريني، كان فقيهاً صالحاً عابداً زاهداً(٢٦).

وقد خلف هذا العالم أبناء لهم مناصب عالية في الدولة المرينية منهم:

- علي بن أبي بكر بن عبدالرحمن بن أحمد المليلي، كان فقيهاً عالماً وإماماً ومفتياً ومدرساً وقاضياً، ولي القضاء في فاس على عهد يوسف ابن يعقوب بن عبدالحق المريني، توفي عام ٧٠٦هـ(٢٧).

- محمد بن علي المليلي، كان قاضياً وفقيهاً في حضرة فاس، وبها توفي عام ٧٣٧هـ(٢٨).

لا غرابة أن نجد الشعراء يؤمون مدينة نكور لمدح أمرائها؛ بسبب ازدهار الحياة الثقافية فيها

ـ أحمد بن القطار بن أبي بكر بن عبدالرحمن المليلي، كان فقيها عارفا بالنجوم، والتعديل والحساب وله مصنفات في الفتوى، وكان يتولى التدريس بفاس(٢٩).

كل هؤلاء العلماء المنحدرون من الريف، ذكرتهم المصادر التي اهتمت بحضرة فاس وتاريخها كما سبق القول، وبخاصة في عهد بني مرين، ومعنى هذا أن هناك من علماء الريف من لم يستقر بمدينة فاس، أو تلقى العلم فيما سواها من المدن المغربية أو الأندلسية أو في المشرق، فلم تسجل كتب التراجم أسماءهم، أو سجلتها، ولكنها لا تزال طي المصادر والمخطوطات التي لم تنشر بعد.

لذلك فإن المؤرخين الذين أتوا على ذكر أسماء هؤلاء العلماء والترجمة لهم قصروا أنشطتهم على فاس فقط دون سواها إلا نادرا، فهل هذا يعني عدم وجود مراكز علمية بالريف عهدئذ أم أنها كانت موجودة؟، إلا أن درجتها العلمية لم تكن ذات شأن لقرب منطقة الريف من وجدة وتازة وسبتة وطنجة وأخيرا من فاس رأس المراكز العلمية في الغرب الإسلامي كله؟ أم أن المراكز العلمية العربية الإسلامية عرفت نهايتها عند اجتياح يوسف بن تاشفين وتخريبه مدينة نكور وباقي حواضر الريف، كما مر بنا؟ أم أن أبناء الريف كانوا يتلقون تعليما أوليا في الزوايا ومساجد بواديهم، قبل أن يفدوا على فاس، كباقي الطلبة الوافدين عليها من مختلف الأقطار الإسلامية، لمتابعة دراساتهم، فيستقروا بها نهائيا بعد التخرج ويتقلدوا المناصب، فيظل بذلك ارتباطهم بالريف ارتباطا عائليا وأسريا؟ كل هذه الأسئلة تثار أمام وجود هذه النخبة من علماء الريف على قلتها، والتي استقرت ونبغت في عاصمة بني مرين مع احتفاظها بانتسابها إلى قبائل الريف ومدنه التي انحدروا منها.

خصائص الحركة الثقافية في الريف

وإذا عمقنا النظر فيما أوردته المصادر المغربية عن علماء الريف ومثقفيه، يمكن أن نأخذ صورة مجملة ولو تقريبية عن مميزات الحركة الثقافية في الريف، مع افتقار تراجمهم إلى نماذج من إنتاجهم وإبداعاتهم إلا نادرا، إذ يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً ـ كانت ثقافة عربية إسلامية أصيلة نابعة من روح الدين الإسلامي، ورحم الحضارة الإسلامية، بما لها وما عليها، إذ إن هؤلاء العلماء تكونوا تكوينا دينيا بحتا يعتمد على العلوم المرتبطة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهو ما أهلهم لتولي مناصب دينية حساسة سواء داخل البلاط المريني أو خارجه، منها: القضاء والإفتاء، والخطابة بجامع القرويين، والتدريس في علم الفرائض، وأصول الفقه وفروعه. وهو ما جعل كل من ترجم لهم يضفي عليهم ألقابا تنم على الود، والوقار، فوصفوهم بالتقوى، والزهد والصلاح والعبادة والورع، حتى قال إسماعيل ابن الأحمر في عبدالعزيز بن موسى الورياغلي: «كان زاهدا، ورعا، صالحا، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، يلقي بنفسه في العظائم ولا يتأنى»(٣٠). ولذلك لقبه ابن القاضي المكناسي بصاعقة الزمان، كما سبقت الإشارة.

من مميزات الحركة الثقافية في الريف أنها كانت ثقافة عربية إسلامية أصيلة نابعة من روح الدين الإسلامي، ورحم الحضارة الإسلامية

وهذه الميزة تبين أن الحركة الثقافية في الريف على عهد بني مرين كانت قطعة من نسيج الثقافة المغربية التي كانت عهدئذ في مجملها ثقافية دينية ولغوية، تعمقت في مختلف العلوم الإسلامية.

ثانيا ـ هي ثقافة متنوعة ذات طابع موسوعي ضربت في كل العلوم بسهم وافر حسب ما يتضح من تراجمهم، بحيث إن علماء الريف لم يكونوا يقتصرون على البحث في علم أو علمين، وإنما كان كل واحد منهم تحدوه روح المنافسة، فيسعى إلى الإلمام بكل ما تصله أو تصل إليه يده من علوم إسلامية كانت أو لغوية، أو أدبية أوفلسفية، لتشمل حتى العلوم الحقة، إذ نرى فيهم من نبغ إلى جانب كل هذه العلوم، في الطب والرياضيات وعلم الفلك.

وهذا ينم بدوره على مجاراة علماء الريف غيرهم من علماء المغرب في مختلف الجهات، خصوصا أن أهم ميزة ميزت الثقافة العربية الإسلامية في عدوة المغرب عند بني مرين، أو في عدوة الأندلس عند بني الأحمر على السواء هي ميزة التنوع والموسوعية.

ثالثا: إن علماء الريف كما يظهر من تراجمهم لم يقفوا عند حدود التلقي، والأخذ عن كبار علماء عصرهم من أمثال أحمد الونشريسي، والإمام القوري، وأبي القاسم يحيى السراج، وأحمد بن مرزوق وغيرهم كثير، وإنما تجاوزوا إلى الإنتاج والإبداع والتأليف والتدريس، فساهموا بدورهم في تكوين جيل من العلماء، حمل ألوية العلوم فيما بعد، كما هو الشأن عند أحمد بن عبدالله العطار بن أبي بكر المليلي الذي ألف في الفتاوى، ونبغ من تلامذته الكاتب الحاجب ابن أبي مدين الذي درس عنه الرياضيات(٣١). وكما نجد عند إدريس بن يخلف الصنهاجي الريفي الذي ترك شعرا ونثرا وله اصطلاحات في ألفية ابن مالك في النحو، ونبغ من تلامذته ابن غازي صاحب كتاب «الروض الهتون»(٣٢). كما هو الشأن عند يحيى بن مطر الورياغلي الذي ألف كتابه «الطرر» على «المدونة» في الفقه المالكي ونبغ من تلامذته أبو الحسن الصغير الزرويلي(٣٣). وكما نجد أيضا عند عبدالله بن عبدالواحد الورياغلي الذي هو الوحيد الذي بلغ درجة الفقهاء الحفاظ دون سواه ممن ترجمت لهم المصادر من علماء الريف.

يدل هذا كله على المشاركة الفعلية لعلماء الريف في الحركة الثقافية الإسلامية بعامة، تعليما وتدريسا وإبداعا وتأليفا في مختلف فروع العلم والمعرفة التي كانت تعج بها الساحة الثقافية الإسلامية في الغرب الإسلامي. وهو ما أهلهم للدخول في منافسة مع كبار علماء عصرهم، وكسبوا الرهان، كما هو الحال في الخلاف الذي دار بين عبدالله بن عبدالواحد الورياغلي وأحمد الونشريسي، فحكم علماء فاس للورياغلي، بينما حكم علماء تلمسان للونشريسي، وكانت الكلمة الأخيرة للفاسيين(٣٤).

رابعا ـ الحركة الثقافية في الريف لم تكن بمعزل عما يدور في الساحة الثقافية في العالم الإسلامي. فمعلوم أن ظاهرة التصوف كانت قد اجتاحت العالم الإسلامي، وبلغت ذروتها خلال القرن السابع الهجري الذي عاش فيه كبار الصوفية وأقطابها، من أمثال شهاب الدين السهروردي، ومحيي الدين بن عربي، والشاعر ابن الفارض مما انعكس على الفكر الإسلامي كله في المشرق والمغرب والأندلس.

لذلك فإن الريف بدوره شهد حركة صوفية عارمة أفرزت كوكبة من العلماء جمعهم عبدالحق بن إسماعيل البادسي في كتابه

«المقصدُ الشريف والمنزعُ اللطيف في التعريف بعلماء الريف»(٣٥). بحيث إن الناظر في هذا الكتاب يستشف بأن حركة التصوف هذه كانت شاملة لكل أرجاء الريف كما يتبيّن من مواطن الصُّلحاء، الذين ترجم لهم البادسي. إذ نجد إبراهيم بن عيسى بن أبي داود وغيره من بني ورياغل ومركاب بن عيسى البلندي من قبيلة تمسامان وإسماعيل بن سيد الناس من بني ولشك حالياً، وموسى بن عيسى من مطالسة، وعلي بن ماخوخ بن بني توزين، والشيخ إبراهيم البطّال من كبدانة، وغيرهم من العلماء من مختلف المناطق.

والملاحظ أن أغلب هؤلاء العلماء سافر إلى المشرق العربي لتلقي العلم عن غير واحد من علمائه وبخاصة في صعيد مصر. إلا أن البادسي في المقابل لم يتحدث عن ثقافتهم ومبلغهم من العلم، وهل تركوا مؤلفات أو إنتاجاً فكرياً أو إبداعاً أدبياً يتداوله الناس؛ وإنما غاية ما ذكره عنهم أو عن بعضهم بالأحرى، هو تعليمهم القرآن الكريم في زوايا البلد الذي كانوا يقيمون فيه، أو في جوامعه وروابطه التي كانوا يختلون بها للعبادة والمجاهدة والخلوة.

ومع ذلك فإن أهمية هذا المؤلف تكمن في إبراز صاحبه التفاعل الثقافي والفكري بين منطقة الريف وسائر جهات المغرب من جهة، وسائر أرجاء العالم الإسلامي من جهة ثانية، ليتّضح بذلك أن الحركة الثقافية في الريف كانت تتأثر بمحيطها الثقافي العام كما تؤثر فيه، وتتفاعل معه بطريقة مباشرة، وبالمشاركة الفعلية في مختلف الميادين.

ابن الزهراء والممهد الكبير

ولا أختم هنا، دون أن أعرج على ذكر اسم عالم ريفي آخر جليل أغفلت المصادر ذكره - كما أغفلت ذكر غيره ولا شك - حتى إنه لم يعد يُعرف عنه إلا النّزْرُ اليسير، مع علُوّ قدره، وحضوره القوي في الساحة الفكرية في عهد بني مرين، ويتعلق الأمر بالعالم عمر بن علي الورياغلي المعروف بابن الزهراء. ويرجع الفضل في التعريف به إلى الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدبّاغ(٣٦)، بعدما عثر في خزانة القرويين على قسط مهم من السفر الأول من الكتاب الذي كان هذا العالم الجليل قد ألّفه وسماه «الممهد الكبير»، وهو كتاب يتكون في الأصل من «واحد وخمسين سفراً، وهو موضوع لشرح موطأ الإمام مالك، رحمه الله، ولتتبع جزئياته، وتقصي كثير من الكتب التي تناولته بالتحليل والتعقيب، لتجمع في كتاب واحد يسهل تناوله، ويعين على المقابلة والمقارنة واستيعاب ما ورد عن الفقهاء والمحدثين فيما تعرضوا له أثناء معالجتهم للموطأ وفق اختصاصاتهم وسيراً مع اهتماماتهم العامة»(٣٧).

ولعل الغاية من تأليف الكتاب وحجمه الضخم يغنيان عن التدليل على تبحر صاحبه في العلوم الإسلامية ابتداء بعلوم القرآن وعلوم الحديث، وانتهاء بأصول الفقه وفروعه وسير الصحابة ورواة الحديث وأخبارهم، وما إلى ذلك من العلوم التي تلزم من يخوض في مثل هذا الموضوع الإلمام الشامل والدقيق بها. ليس هذا فحسب، فقد ترك عمر بن علي الورياغلي كتاباً آخر ربما ستكشف عنه الأيام سماه «أنوار أولي الألباب»(٣٨)، ويعتقد الأستاذ الدبّاغ أنه في تراجم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما ذكر الأستاذ محمد العابد الفاسي أن له كتاباً آخر في «البدع وأمارات خراب العالم بذهاب أهل الفضل والدين» إلاّ أنه لم لم يشر إلى مكان وجوده(٣٩).

هذه إذن هي مجمل مميزات الحركة الثقافية والفكرية في الريف على عهد بني مرين، إذ كانت حركة ثقافية مندمجة مع محيطها الثقافي العام، تتأثر وتؤثر فيه، ويحاورها، وتتفاعل معه في كل أبواب العلم والمعرفة، مما نتج منه إسهام ريفي واضح في الثقافة الإسلامية في الغرب الإسلامي كله.

وأعتقد أن البحث في هذه الحركة الثقافية والفكرية سيزيد في الكشف عن جوانب مهمة من الدور الثقافي والفكري الذي أداه الريف في بناء صرح الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإسلامي، مع ما يكتنف ذلك من صعوبة، ويعترضه من عراقيل لنُدْرة مادة البحث وقلة مصادرها.

ويوم نصل إلى رفع هذه الحجب، وتذليل هذه العراقيل نصل إلى معرفة الوجه الحقيقي للثقافة الإسلامية العربية بالريف، ونصل إلى معرفة وزن علمائه ومفكريه الذين ينحدرون من هذه الجبال التي شدت إليها أنظار كبار العلماء والفقهاء، فشدوا إليها رحالهم، فهذا ابن بطوطة آثر عند عودته من المشرق أيبا إلى المغرب أن يمرّ عبر بلاد الريف بعد أن قضى نحو سبعة وعشرين عاماً من السياحة في أرض الله، فقال: «فبينما نحن بقرب أزغنغان خرج علينا رجل وفارسان، وكان معي الحاج ابن قريعات الطنجي، وأخوه محمد المستشهد بعد ذلك في البحر، فعزمنا على قتالهم ورفعنا علماً، ثم سالمونا وسالمناهم، والحمد لله»(٤٠).

فلا شك أن شغفه بزيارة العلماء، والوقوف على مآثر العلماء، والاطلاع على زواياهم وروابطهم التي كانوا يتعبدون فيها، لمما جره للمرور في طريقه على جبال الريف وقُراه وحواضره، وهو ما نأمل أن تجود به الأيام، وتعرفنا بأحوال الريف وأهله، في عصر بني مرين وفيما سواه من العصور من قبل ومن بعد.

المراجع

١. النبوغ المغربي. عبدالله كنون ١/١٩٥.
٢. راجع ابن خلدون ٦/٢٨٣. والبيان المغربي لابن عذاري ١/١٧٦، والمغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص٩٠ وما بعدها.
٣. الروض المعطار ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧ وراجع ص ١٣٤ منه أيضاً.
٤. الروض المعطار ص١٢٨ والمغرب ص٩٠.
٥. المغرب ص٩٥.
٦. راجع ابن خلدون ٦/٢٨٥ وما بعدها والحلة السيراء لابن الأبار ١/١٩٣، والبيان المغرب ١/١٧٨ والمغرب ص٩٥.
٧. ابن خلدون ٦/٢٤٧، وقد ذكر المقري في نفح الطيب ٣/١٦٣ أن محمد بن يوسف الوراق كتب عن مدينة نكور فيما كتبه من تواريخ عن مدن الأقطار الإسلامية، ولست أدري أكان هذا المخطوط موجوداً أم هو مفقود.
٨. راجع كلام المختار العبادي في تحقيقه للفاضة الجراب ٢/٢٦٧ و ٢٦٨، في الهامش رقم ٦ والنفح ١/٢٣٨ والروض المعطار ص٥٤٥.
٩. نفح الطيب ٤/٥٢٩
١٠. ابن خلدون ٦/٢٧٦.
١١. نفسه ٧/٢٢٥.
١٢. الذخيرة السنية ص ٨٥.
١٣. ابن خلدون ٧/١١٢ والذخيرة السنية ص٨٩.
١٤. راجع بتفصيل ابن خلدون ١/٢٢٤ و ٢٢٥ والذخيرة السنية ص ٢٧ و ٢٨.
١٥. جذوة الاقتباس ١/١٦٤.
١٦. نفسه ١/١٦٤ و ١٦٥ ودرة الحجال ١/٢٠٧.
١٧. جذوة الاقتباس ٢/٤٣٩ و ٤٤٠.
١٨. نفسه ٢/٤٥٢ ودرة الحجال ٣/١٢٧.
١٩. درة الحجال ٣/١٢٧ وجذوة الاقتباس ٢/٤٥٢.
٢٠. درة الحجال ٣/٢٥٤ وجذوة الاقتباس ٢/٤٩١.
٢١. درة الحجال ٣/٥٤.
٢٢. جذوة الاقتباس ١/١٩٩ ودرة الحجال ١/٤٥ والإحاطة لابن الخطيب ١/٢٧٢.
٢٣. الإحاطة ١/٢٧٤.
٢٤. درة الحجال ٣/٢٠٤.
٢٥. بيوتات فاس الكبرى ص٥٤.
٢٦. جذوة الاقتباس ١/١٠٦ وبيوتات فاس ص٤٧.
٢٧. درة الحجال ٣/٢٤٤.
٢٨. جذوة الاقتباس ١/٢٢٧.
٢٩. نفسه ١/١١٩.
٣٠. بيوتات فاس ص٦٥.
٣١. جذوة الاقتباس ١/١٩٩.
٣٢. نفسه ١/١٦٤.
٣٣. نفسه ١/١٦٤.
٣٤. نفسه ٢/٤٣٩ ـ ٤٤٠.
٣٥. حققه الأستاذ سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٨٢م.
٣٦. راجع كتابه «من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني» ص ٢٢٦.
٣٧. نفسه.
٣٨. نفسه ص٢٣٠.
٣٩. نفسه.
٤٠. رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المنتصر الكتاني ٢/٧٥٦.

بول إردوس

الرجل الذي لا يعشق سوى الأعداد

أبو بكر خالد سعد الله

عناصر القبة . الجزائر

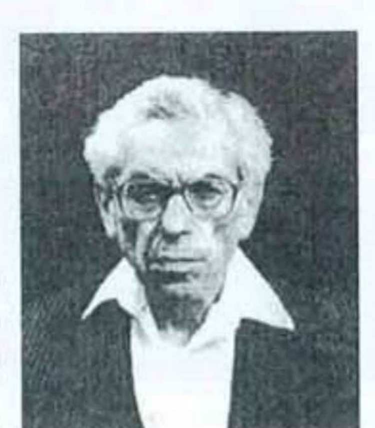
«إن لم أكن سعيدًا فإني أشتغل بالرياضيات لأسترجع سعادتي، وإن كنت سعيدًا فإني أشتغل بالرياضيات حتى أحافظ على سعادتي».

الرياضي المجري بول توران PAUL TURAN (١٩١٠ - ١٩٧٦م).

لكل عصر علماؤه، ولكل عالم مسار، ومسار الرياضي المجري بول إردوس ERDOS يختلف عن سائر مسارات الرياضيين الآخرين، إنه الملقب بـ «أمير أصحاب حلول المسائل، وملك ملوك واضعي المسائل». كيف لا وقد بلغ إنتاجه الرياضي ١٥٠٠ بحث منشور؟ إنه رقم قياسي لم يدركه أحد من قبله، وكيف يكون مساره كغيره، وقد شاركه في إنجاز ذلك العمل العظيم ٥٠٠ باحث؟! إنه رقم قياسي في العمل المشترك والتعاون العلمي لم يحلم بهما غيره.. وكيف لا وقد ظل إردوس طيلة حياته متمردًا، بلا وظيفة قارة، ولا بيت شخصي يأوي إليه، يجوب جامعات العالم المنتشرة في أزيد من ٢٥ دولة يحاضر وينشر المعارف الرياضية ويوجه.. وينكت؟

من هو بول إردوس؟

ولد بول إردوس ببودابست، عاصمة المجر، في ٢٦ مارس/آذار ١٩١٣م، وتوفي بوارسو، عاصمة بولندا في ٢٠ سبتمبر/كانون الأول عام ١٩٩٦م حين كان يحضر مؤتمرًا دوليًا في الرياضيات. وقد عثر في جيبه آنذاك على تذكرة طائرة كانت ستحمله إثر ذلك المؤتمر إلى مؤتمر مماثل بدولة لوتوانيا. وكان إردوس قد ولد في اليوم الذي توفيت فيه أختاه بالحمى مما جعل أبويه اللذين كانا يدرسان الرياضيات يرعيانه أشد الرعاية، ولا سيما والدته بعد أن سجن أبوه خلال ست سنوات. وعندما ألقي القبض على والده المتوفى عام ١٩٤٢م، أخرجته أمه من المدرسة، وواصلت تدريسه بالمنزل. وقد فقد إردوس عددًا من أفراد أسرته وزملائه الذين نشر معهم مقالات وبحوثًا، لدى دخول القوات النازية إلى المجر عام ١٩٤٤م.



بول إردوس

حصل بول إردوس على شهادة الدكتوراه عام ١٩٣٤م من جامعة بودابست. واهتم منذ صغر سنه بالأعداد؛ إذ يحكى أنه كان يقوم ذهنيًا بعمليات ضرب الأعداد الثلاثية الأرقام وعمره لم يتجاوز الرابعة. وعندما بلغ ١٧سنة اكتشف برهانًا جميلاً لنظرية كان قد أثبتها الرياضي الروسي الشهير تشيبتشيف CHEBYSHEV (١٨٢١ - ١٨٨٤م).

وبعد نيله شهادة الدكتوراه حصل إردوس على منحة بحثية من جامعة مانشيستر ببريطانيا حيث قضى أربع سنوات. وكان الوضع في المجر خلال الثلاثينيات لا يطاق، خصوصًا بعد صعود هتلر إلى الحكم في ألمانيا، وأدرك إردوس أن بلده سيمر بمرحلة صعبة، فقدم إلى بودابست يوم ٣ سبتمبر/أيلول عام ١٩٣٨م ليودع أهله وذويه، وغادر المجر في اليوم نفسه متجهًا إلى الولايات المتحدة. ولم يعد بعدها إلى بلده إلا في عام ١٩٤٨م.

ومن بين النتائج المهمة في نظرية الأعداد تلك المتعلقة بمواقع الأعداد الأولية وتوزيعها بين الأعداد الأخرى، وهي مسألة ما زالت مطروحة إلى اليوم. لقد كان هذا الموضوع من جملة اهتمامات إردوس. ومن المعلوم أن هناك مخمنة Conjecture (أي تخمين رياضي لم يتم التوصل إلى إثباته) أعلن عنها منذ القرن

الثامن عشر، ولم تثبت إلا عام ١٨٩٦م على أيدي الفرنسي جاك هادامار Hadamard (١٨٦٥ - ١٩٦٣م) والبلجيكي دي فالي بوسان De Vallee Poussin (١٨٦٦ - ١٩٦٢م)، كلاً على حدة، وذلك باستخدام ما يسمى بالتحليل العقدي (المركب).

والمفاجأة أن إردوس اكتشف بمعية أتل سيلبرج Selberg (١٩١٧-..) عام ١٩٤٩م برهاناً بسيطاً جداً على هذه المخمنة. لكن سيلبرج سارع إلى نشر هذا البرهان على انفراد دون إذن من إردوس، فنال بفضلها ميدالية فيلدس عام ١٩٥٠م. وميدالية فيلدس تعد أعلى وسام في الرياضيات، وهي تعادل جائزة نوبل، ولا تمنح إلا مرة كل أربع سنوات. ولم ينزعج إردوس من تصرف زميله انزعاجاً كبيراً. ذلك هو نوع المسائل الذي يهتم به بول إردوس: المسائل البسيطة الطرح العويصة الحل.

الأعداد الإردوسية

لقد قارب عدد البحوث والكتب التي نشرها إردوس ١٥٠٠ عنوان، واشترك معه في نشر هذه الأعمال نحو ٥٠٠ باحث. إنها أرقام لم يدركها أحد من قبل؛ لأن إردوس بدأ النشر في سن ١٧، وأنه عمر ٨٣ سنة، فإن معدل إنتاجه الرياضي السنوي هو ٢٣ مقالاً سنوياً، أي بمعدل بحث كل نصف شهر! ولم يتوقف إردوس عن النشر حتى أواخر سنوات عمره؛ إذ تشير الإحصاءات أن معدلها في تلك الفترة كان ١٢ بحثاً في السنة.

ولضخامة عدد الباحثين الذين اشتركوا مع إردوس في نشر البحوث والكتب الرياضية، ابتكر الباحثون ما أسموه بأعداد إردوس أو الأعداد الإردوسية. وهكذا زودوا بالعدد (٠)، وهو الوحيد الذي يتمتع بهذا العدد. ثم زودوا الباحثين الذين نشروا أعمالاً مع إردوس بالعدد ١. أما العدد ٢ فزود به كل من نشر مقالاً مع أحد الرياضيين الذين نشروا بحثاً مشتركاً مع إردوس، كما زودوا الرياضيين الذين نشروا مقالاً مشتركاً مع أحد الرياضيين ذوي العدد الإردوسي ١ بالعدد ٢، وهكذا دواليك. وقد فتحت على شبكة الإنترنت عدة مواقع تهتم بالأعداد الإردوسية، وتقدم قوائم بأسماء الرياضيين الذين حظوا بأعداد إردوسية. فعلى سبيل المثال تبين أن عدد الرياضيين الذين لهم عدد إردوسي أصغر من ٢ أو يساويه قد بلغ ٦١٠١ باحث.

قال أحد الرياضيين: إنه على علم، عن طريق زملائه، أن عدده الإردوسي يساوي ٧ منذ مدة طويلة، ثم أصبح الآن ٣، فسر بذلك. وذات مرة التقى بإردوس في لندن، ونقل له هذا النبأ السعيد والمشرف، فتأسف إردوس قائلاً: لو لم أكن مسافراً هذا اليوم لتمكنا من جعل هذا العدد يدرك أدنى قيمة له (بمعنى أنه لو أتيحت لإردوس فرصة البقاء في لندن لنشر مقالاً مشتركاً مع هذا الرياضي، ولصار عدده الإردوسي ١، وهو أفضل ما يمكن الوصول إليه).

سخاء إردوس

حصل إردوس عام ١٩٨٣م على أعلى جائزة قدرها ٥٠٠٠٠ دولار، لكنه لم يأخذ منها سوى ٧٢٠ دولاراً، وأوصى بتخصيص ٣٠٠٠٠ دولار لمنح دراسية باسم والديه، وترك الباقي للمعوزين. كما كان يستخدم نقوده للجوائز التي يعلن عنها لحل المسائل الرياضية العويصة. وفي أغلب الأحيان كانت النقود التي تمنح له مقابل محاضراته عبر جامعات العالم يهبها لأنجب الطلبة كي يتمكنوا من مواصلة دراستهم، أو للزملاء الذين يجدون أنفسهم في ضائقة مالية. ويذكر أنه زار الهند مرتين لإلقاء محاضرات، ولما علم أن أرملة علامة الهند سرينيفازا رامانوجان Ramanujan ١٨٨٧ - ١٩٢٠م تعيش في حالة فقر أمر بدفع مقابل محاضراته إلى هذه المسكينة مع أنه لم يرها قط.



يظهر بول إردوس في الصف الثاني على اليسار

ويروى أيضاً أنه كان قد حصل في مطلع الستينيات على منصب أستاذ زائر لمدة سنة في إحدى الجامعات البريطانية. وفي اليوم الذي منحته الجامعة فيه أول راتب شهري صادفه في أحد الشوارع متسول طالباً منه أن يتصدق عليه بما يكفيه لتناول كوب شاي. لكن إردوس تصدق عليه بكامل راتبه، ولم يحتفظ منه سوى بالنزر الذي يضمن له قضاء حاجاته العاجلة.

وذات مرة كان أحد الطلاب اللامعين من ولاية كاليفورنيا يريد الالتحاق بجامعة هارفارد الشهيرة لكن إمكاناته المالية حالت دون ذلك. وسمع به إردوس فالتقاه، ومنحه ألف دولار على أن يعيدها الطالب، إن شاء، في الوقت الذي يستطيع القيام بذلك. وبعد مرور عشر سنوات صار ذلك الطالب أستاذاً بجامعة مشيغان. وعند التقائه بأحد أصدقاء إردوس سأله: أريد أن أعيد نقود إردوس لكني لا أعلم هل كان يريد مني دفع فائدة؟ وهكذا طرح صديق إردوس هذا السؤال على إردوس ذاته. فكان جواب إردوس: «أبلغه أن يفعل بالألف دولار ما فعلته بها أنا».

من ذكريات إردوس

• أريد أن أدفع: في ربيع ١٩٧٩ كان إردوس مريضاً، لا يتنفس إلا بصعوبة، في غرفة فندق من فنادق مدينة بوردو الفرنسية، فزاره الطبيب، وترك له وصفة طبية قائلاً وهو يغادر الغرفة:

- سيدي، إني تركت لك الوصفة، وسوف لن أطلب بدفع مقابل زيارتي إليك.

فصاح إردوس بكل ما أوتي من قوة:

- إني أريد أن أدفع، إني رياضي عضو في أكاديمية العلوم المجرية، وكتبت عدة مؤلفات...

• لكل مخمنة ثمن: كان لإردوس عدد من المخمّنات. وعرف عنه أنه يقدر كلاً منها بثمن يدفعه لمن يتوصل إلى البرهان عليها. وتتوقف قيمتها على صعوبة المخمنة، وعلى مدى انشغال إردوس بها، فقد قدر إحداها بعشرة آلاف دولار، وتغير هذا السعر عبر الزمن، إلى أن خفض في آخر ما كتبه عام ١٩٩٦م سنة وفاته إلى ٥٠٠٠ دولار، مقدماً في الوقت نفسه مخمنة أخرى قدر ثمنها بعشرة آلاف دولار.

• الأطفال لا يموتون: يروي إردوس أنه اكتشف الموت في سنّ الرابعة: «بصفة عامة، فإن الأطفال لا يعتقدون بأن الموت سيمسهم ذات يوم. وقد كنت مثلهم إلى أن بلغت الرابعة من عمري. ففي يوم من الأيام كنت في صحبة والدتي في أحد المتاجر، وفجأة اكتشفت أني كنت مخطئاً في اعتقادي، فصحت باكياً لأني أدركت أني سأموت. ومنذ ذلك اليوم صرت أتمنى دوماً أن أكون أقل سناً».

• ما رأيك في ماركس؟: في مطلع الخمسينيات كانت لإردوس مشكلات مع الولايات المتحدة بسبب موجة الماكارثية ضد الشيوعية ومع الاتحاد السوفييتي (آنذاك)؛ لأنه كان يعد نظامه نظاماً فاشياً. وبعد الانتهاء من حضور أحد الملتقيات الدولية في أمستردام أراد إردوس العودة إلى الولايات المتحدة، وكان عليه المرور أمام ضابط الهجرة فسأله:

- هل قرأتم كتابات ماركس أو لينين أو ستالين؟

- لا...

- ما رأيكم في ماركس؟

- لست مؤهلاً للحكم عليه.. لكنه كان، بلا شك، رجلاً عظيم...

ونتيجة لهذا الرد رفض طلب تأشيرة دخوله إلى الولايات المتحدة، ولم تطأ قدماه هذه الأرض حتى الستينيات.

• إردوس الشاعر: إليك بيتين من الشعر كان يرددهما إردوس من حين إلى آخر:

A THEOREM A DAY BRINGS PROMOTION AND PAY

A THEOREM A YEAR AND YOU'RE OUT ON YOUR EAR

من مقولات بول إردوس

- الرياضيات ليست مستعدة بعد لمثل هذه المسائل.
- الرياضي هو الآلة التي تدير القهوة في النظريات.
- ما الجمال في الأعداد؟ هذا سؤال يشبه ذلك الذي يستفسر عن جانب الجمال في السيمفونية التاسعة لبيتهوفن.
- إن لم تدرك ذلك بنفسك فلا أحد يستطيع مساعدتك. أنا أعلم أن الأعداد جميلة، وإن لم تكن كذلك فأي شيء سيكون جميلاً؟
- التلفاز جهاز صنعه الروس للقضاء على التربية الأمريكية.
- قال أحد الاشتراكيين الفرنسيين: إن الملكية الخاصة نهب، وأنا أقول: إن الملكية الخاصة ضرر.
- سيكون لنا متسع من الوقت نقضيه في الراحة داخل القبر. (يقول ذلك عندما يدعوه زملاؤه إلى الراحة وعدم إجهاد نفسه).

من مصطلحات بول إردوس

تعود إردوس استعمال مصطلحات خاصة لا يفهمها إلا من عاشره. إليك بعضها:

- الضجيج = الموسيقى.
- ابسلون E (الحرف اليوناني) = الطفل.
- الرحيل إلى البلد الذي لا يتطلب الدخول إليه تأشيرة = الموت.
- غادر (الرجل) = مات.
- مات (عند الحديث عن الزملاء) = توقف عن الانشغال بالرياضيات.
- القادة = النساء.
- السلاف (نسبة إلى جنس السلافي) = الرجال.
- ألقي عليه القبض = تزوج.
- ألقي عليه القبض مجدداً = تزوج من جديد.
- تحرر = طلّق.
- السم = الخمر.
- الكتاب = كتاب، يتصور وجوده إردوس، يحتوي على كل النظريات الرياضية الجميلة ببراهينها.
- سام SAM = الولايات المتحدة.
- جو JOE = روسيا.

وهما بيتان يلخص فيهما وضعية الباحث:

(اكتشاف) نظرية كل يوم يؤدي إلى الترقية وإلى المزيد من المال

(اكتشاف) نظرية كل سنة يعصف بكم إلى خارج عصركم.

• إردوس العجوز: يصف ERDOS رحيل الإنسان عن هذا العالم بالعبارة «الرحيل إلى البلد الذي لا يتطلب الدخول إليه أي جواز سفر. وعندما تقدم في السن أصبح يضيف بعض الحروف لاسمه. وهكذا أضاف في البداية الحروف التالية P.G.O.M التي تعني POOR GREAT OLD MAN (أي الشيخ الكبير الفقير)، ثم أصبح يضيف كل خمس سنوات ابتداء من سن الستين حرفين: L.D التي تعني LIVING DEAD (أي الميت الحي).

A .D. التي تعني ARCHAEOLOGICAL DISCOVRY (أي الاكتشاف الأثري).

L.D. التي تعني LEGALLY DEAD (الميت شرعياً).

C.D التي تعني COUNTS DEAD (أي المعدود ميتاً).

N.D التي تعني NEARLY DEAD (أي الميت تقريباً).

وقد تنبأ بأن الأحرف الموالية ستقتصر على حرف واحد هو (DEAD) D أي «ميت»... وصدق تنبؤه.

• انتظره.. سيعود: يروي عن إردوس أنه لا يمكث بمدينة أكثر من ١٥ يوماً. ومعلوم أنه حاضر وقدم أبحاثاً في مئات المراكز والجامعات عبر العالم، فهو كثير التنقل لحضور الملتقيات، وإلقاء المحاضرات والعروض. كان زملاؤه يعلقون على كثرة تحركاته وأسفاره بالعبارة الرياضية (الطوبولوجية): «إنه مجموعة كثيفة حيثما كان على سطح الأرض»، ويضيفون: «إذا أردت أن تلتقي بإردوس فما عليك إلا أن تصبر، وتظل ماكثاً في مكانك.. حتماً، سيمر بك إردوس ذات يوم».

• سأسأل هيلبرت: كان إردوس يلقي محاضرة في آخر حياته حول امتداد المسائل التي طرحها العلامة الألماني ديفيد هيلبرت HILBERT (١٨٦٢ ـ ١٩٤٣م) في بداية القرن العشرين. قال إردوس: لا أدري ما إذا كان هيلبرت يريد تمديد مسألته في هذا الاتجاه.. سأسأله عما قريب!.. مشيراً بذلك إلى قرب رحيله والتقائه المرتقب بهيلبرت.

• الكتاب المقدس: ألف إردوس القول بأن كل النظريات الرياضية الجميلة مدونة في كتاب مقدس، وما علينا سوى اكتشاف وجودها. ولذلك عندما يريد التعبير عن إعجابه بإحدى النظريات يقول إردوس: «هذه النظرية مدونة في الكتاب». أما إذا لم ترقه نتيجة أو برهان فيقول: «هذا ما لم يأت في الكتاب».

• لا تقاطعني: يروى أن إردوس كان ذات مرة منهمكاً في مطالعة موسوعة طبية، وكان شديد التركيز، وبينما هو على تلك الحال اقترب منه أحد زملائه وسأله: ماذا تفعل؟ فأجابه إردوس: لا تقاطعني فإني أبرهن على نظرية!

• الأعمى والبصير: دعاه صديق عام ١٩٤٥م بفلاديلفيا لحضور حفل في بيت أحد زملائه، فقدم إردوس إلى الحفل، لكنه سرعان ما اختفى، وعندما انتهى الحفل، وهم الجميع بالانصراف حضر إردوس، وتبين، فيما بعد، أن لصاحب الحفل والداً ضريراً لاحظه إردوس جالساً منعزلاً في ركن بعيد عن مكان الحفل، ففضل إردوس قضاء مدة الحفل يناجي هذا الضرير ـ مع أنهما لا يعرف بعضهما بعضاً ـ بدل الاستمتاع بالحفل.

• عجباً: عندما اطلع إردوس على كتاباته التي نشرت قبل خمسين سنة تعجب قائلاً: عجباً لأولئك الذين تمكنوا من فهم ما كنت أكتب؟

• التأشيرة: منحت الولايات المتحدة تأشيرة خاصة لإردوس عام ١٩٥٨م حتى يتمكن من المشاركة في ملتقى بالكولورادو.. لكنها أرفقته بأحد رجال الأمن يصحبه حيثما حل خلال الملتقى، وقد كتب إردوس بهذا الشأن إلى أحد أصدقائه عام ١٩٦٢م قائلاً: يبدو أن وزارة الخارجية في الولايات المتحدة مصرة على أمرين اثنين هما:

- عدم السماح للصين الحمراء بدخول الأمم المتحدة.
- عدم السماح لإردوس بدخول الولايات المتحدة.

• اذهب حيث شئت: بعد وفاة ستالين بعامين منحت السلطات المجرية إردوس عام ١٩٥٥م جواز سفر خاصاً يمكنه من التحرك داخل المجر وخارجها كيفما يشاء. وكان إردوس المجري الوحيد الذي حظي بهذا الامتياز.

كانت النقود التي تمنح له مقابل محاضراته يهبها لأنجب الطلبة كي يتمكنوا من مواصلة دراستهم، أو للزملاء الذين يجدون أنفسهم في ضائقة مالية

الصديق الحميم

رونالد جراهام GRAHAM رياضي أمريكي تعرف إردوس في مطلع الستينيات، وربطته به علاقات متينة قل أن نجد مثلها بين الرياضيين. كان (ولا يزال) جراهام يعمل بشركة الهاتف الأمريكية الشهيرة AT & T BELL. وبعد وفاة والدة إردوس في بداية السبعينيات وتدهور حالة إردوس صار جراهام يسير، عند الضرورة، شؤون إردوس سواء تعلق الأمر بالجانب المالي، أو المراسلات، أو الحجز على الرحلات الجوية، أو طلب التأشيرات. فكان جراهام يقضي وقتاً في تسيير شؤون إردوس يعادل الوقت الذي يتطلبه منه الإشراف على الرياضيين والإحصائيين السبعين التابعين للشركة. وكان إردوس ينزل عنده ضيفاً بصفة دائمة، حتى إن جراهام بنى طابقاً ثانياً بمنزله ليستقل فيه إردوس كلما زاره.

وبجانب المخبر الذي يعمل فيه جراهام هناك حجرة خاصة بإردوس وضع فيها جراهام أزيد من ألف بحث لإردوس حتى يجد هذا الأخير ما يحتاج إليه عند الزيارة. ثم إن إردوس غالباً ما يكاتب جراهام طالباً منه إرسال بعض بحوثه إلى أحد الرياضيين، ولذا قرر جراهام تخصيص هذه الحجرة لأعمال إردوس. وقد كتبت على جدار مكتب جراهام بجوار هذه الحجرة المقولة «كل إنسان لا يتعامل جيدا مع الرياضيات ليس إنساناً كاملاً. وفي أحسن الأحوال فهو لا يعدو أن يكون إنساناً ثانوياً غير مرفوض، تعلم كيف يلبس حذاءه، وكيف يغتسل، وكيف لا يحدث فوضى في البيت؟».

وقد كتب جراهام بمعية إردوس ٢٧ بحثًا وكتابًا، وليس هذا فحسب، بل زوجة جراهام التايوانية الأصل، بارم شونغ CHUNG رياضية شهيرة، أستاذة بجامعة بنسلفانيا. وكانت شونغ تجالس إردوس عند زيارته، ونشرت معه ١٣ بحثًا ابتداء من ١٩٧٩م.

القادمون من المريخ

لم يقض إردوس بعد ١٩٣٤م، أكثر من ١٠٪ من حياته في وطنه المجر. ومع ذلك ينبغي ألا تعتقد أن إردوس أتى من عدم، ولم يتأثر بمآثر مسقط رأسه. فللمجر تقليد قديم في ترقية المواهب وتشجيعها في مجال الرياضيات. ويكفي أن نذكر هنا أن أحد الأساتذة، وهو دنيال أراني Arany، قد أصدر مجلة شهرية عام ١٨٩٣م تعنى بالرياضيات والتنافس فيها موجهة للتلاميذ والطلبة سماها KOZEPISKOLAI MATEMATIKAI LAPOK (باختصار KoMAL). وكان التلميذ إردوس وزملاؤه كثيري المشاركة في منافسات هذه المجلة، وأحرزوا مراتب مرموقة في هذه المنافسات، وصدرت صورهم في أعداد المجلة قبل بلوغهم سن الخامسة عشرة.

لقد كان لهذه المجلة فضل كبير في إبراز نخبة مجرية في مجال الرياضيات، ومن المعلوم أن عدداً كبيراً من هذه النخبة قد هجروا المجر، واتجهوا في معظمهم إلى الولايات المتحدة. فمنهم من كان وراء صناعة القنبلة الذرية وصناعة الحاسوب.. وكان كلهم وراء صناعة النظريات الرياضية.

وإن عدنا إلى إردوس فإننا نلاحظ أنه لم يسلك الطريق الذي سلكه، مثلاً، الرياضي أندريو وايلز حين برهن على نظرية فيرما FERMAT (١٦٠١ ـ ١٦٦٥م) في منتصف التسعينيات إثر كد وانعزال بمكتبه دام سبع سنوات.. إذ لم يعلم أحد بما كان يفعل قبل الإعلان عن نتيجته. فعلى العكس من ذلك، يعد إردوس الرياضيات أداة تعاون بين الناس. ومن هذا المنطلق تعاون مع ٥٠٠ رياضي في النشر المشترك، كما أسلفنا، وقد تطلب منه هذا التعاون وهذا النشاط المنقطع النظير في مجال النشر العمل بمعدل ١٩ ساعة يومياً أحياناً، خصوصاً بعد وفاة والدته؛ ولذا نجد إردوس عضواً في عدد كبير من الأكاديميات والمجامع العلمية. وقد كانت جامعتان أمريكيتان تدفعان له راتباً منتظماً منذ الأربعينيات.

من النادر أن نقرأ في الصحف العمومية نبأ وفاة أحد الرياضيين مهما كان شأنه بين زملائه، لكن نبأ وفاة إردوس شذ عن هذه القاعدة حيث تصدر الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمز. لقد دفن إردوس في بودابست في المقبرة الوطنية الخاصة بأبطال المجر. وحضر جنازته مئات الرياضيين من كل أنحاء العالم، وأقامت له السلطات المجرية مراسيم حضرها المئات من رجال السياسة، فكانت جنازته شبيهة بتلك التي تقام لرؤساء الدول وزعمائها. لقد صدق قول القائل: إن «الرياضيين العظام لا يموتون بل يفقدون بعض وظائفهم».. ذلك ما برهن عليه إردوس».

لم... ولم

ما لم يقم به المتمرد إردوس

- لم يتزوج قط.
- لم يحصل على رخصة سياقة.
- لم يمتلك حاسوباً (مع أن جزءاً كبيراً من مكونات الحاسوب قائم على نظرياته).
- لم يستخدم الحاسوب قط.
- لم يمتلك دفتر صكوك مالية ولا بطاقة قروض CREDIT CARD.
- لم ينقطع عن مكالمة والدته يومياً، حتى وفاتها.
- لم تكن له وظيفة قارة.
- لم يكن له منزل شخصي يأوي إليه.
- لم يكن يغادر بذلته البالية أو نعله الصيفي إلا نادراً.
- لم يكن يصافح أو يعانق الأهل والأصدقاء.
- لم يكن يفارق حقيبته البلاستيكية البرتقالية اللون في كل ترحاله.
- لم يكن يتمتع بأي ضمان صحي.
- لم تكن له هوايات.
- لم ينقطع، منذ رحلت والدته عام ١٩٧١م، عن شرب القهوة وتناول الأقراص المنبهة خلال العمل.. والمهدئة حتى ينام.

المراجع

١. الموقع على شبكة الإنترنت: http: www. imada. ou. dk/ btoft/ erdos. html

٢. الموقع على شبكة الإنترنت: http:// www. ams. org

٣. الموقع على شبكة الإنترنت: http://www. oakland. edu grosman/ erdoshp. html.

٤. الموقع على شبكة الإنترنت: http://www- history. mcs. st - andrews. ac. uk

5- Rosemary Schmalz Out of the mouths of mathematicians, Aquotation book for Philomaths, the Mathematical. Ass. of Am. Washington DC, 1993.

6- Robert Edouard Moritz. Memorabilia Mathematica, the philomath's quotation book, the math Asso. America. Washington DC, 1942.

7-Gerald Tenenbaum, IN Memoriam Paul Erdos IN La Gazette Des Mathematiciens. Janvier 1997.: PP 13-25.

من أعلام الموسيقا والشعر

ميخائيل خليل الله ويردي

نجاة شحادة
دمشق - سورية

هو ميخائيل بن خليل، من عائلة تعرف باسم (الله ويردي)، وهو لفظ تركي معناه بالعربية (عطاء الله). ولد في أحد أحياء دمشق القديمة المعروف بحي القيمرية(١) سنة ١٩٠٤م، وكان والده خبيراً بالتربية والتعليم، متضلعاً من العلوم المختلفة، متمكناً من التركية واليونانية، ملماً بالروسية.

تلقى تعليمه الابتدائي في إحدى مدارس البنات، وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره توفيت والدته، واستدعي والده إلى الخدمة الاحتياطية، فحرم من حنان الأم ورعاية الأب، وعاش مع أختيه وأخيه الأكبر سمعان خلال الحرب العالمية الأولى في ظروف قاسية كئيبة عانى أكثر الناس من أيامها الحالكة السواد كما يقول، وسرعان ما أعفي أبوه من الخدمة «فعاد إلى أسرته ليتابع أعماله مع تعليمي. فقد قرر أن ينشئني تنشئة خاصة - أما إخوتي فقد أرسلهم إلى المدارس»(٢).

كشف حقيقة الموسيقا الشرقية

وهكذا بدأ ميخائيل يأخذ عن أبيه دروساً في اللغة والأدب والفلسفة والعلوم الفيزيائية والرياضيات، فتمكن منها، لكنه استخدمها جميعها وسيلة لدراسة الموسيقا التي استحوذت عليه أكثر من أي علم آخر، وأفنى جلّ عمره ووقته وماله من أجل كشف النقاب عن حقيقة الموسيقا الشرقية وأصالتها وما تنطوي عليه من إمكانات، والرجوع إليها من أجل توحيد الموسيقا عالمياً، وقد تجلى ذلك كله في دراساته المعمقة التي أعربت عنها كتبه وأبحاثه المطبوعة والمخطوطة. وانكبّ على كتب الديانات السماوية يقرؤها وينعم النظر فيها، فخرج منها متشبّعاً بالقيم الإنسانية، كما أخذ عن أبيه اليونانية والتركية إلى أن أصبح يلم بهما. وتعلم فيما بعد الإنجليزية والفرنسية حتى أتقنهما، إلى جانب ما كان ينتقيه من ديوان العرب ليخزن في ذاكرته مختارات من الشعر القديم والحديث، وكان ما يعينه في ذلك كله مكتبة أبيه العامرة بالكتب والمجلات.

هذا المسار الذي رُسم لتنشئته عن طريق التربية الخاصة والتثقيف الذاتي ترك آثاره الإيجابية والسلبية في مجريات حياته، وفي تكوين شخصيته بكل ما يتفاعل فيها من تفكير وانفعالات وعلاقات اجتماعية، فهو من جهة لم يخوله الخوض في معترك الحياة، ولم يهيئ له بشكل طبيعي السبيل إلى عمل ملائم يكسب منه رزقه؛ لذلك شق لنفسه منفذاً جديداً يكفل له ذلك، فبدأ يعمل محاسباً في المحال التجارية في الوقت الذي أخذ يقرأ فيه قانون التجارة وما يقع تحت يديه من أبحاث حقوقية، ويطالع النشرة الشهرية (الاقتصادية) التي بدأت تصدرها غرفة التجارة بدمشق منذ عام ١٩٢٢م. فعهدت إليه المحاكم بمهمات متعددة. وما لبثت أعماله أن اتسعت بعد أن تخرج أخوه سمعان في الجامعة الأمريكية عام ١٩٣٠م، وافتتح معه مكتباً قرب سوق الحميدية، فأصبحت تشمل إلى جانب المهمات السابقة: «ترجمة الوثائق القانونية والمستندات الحكومية وما يتعلق بالمراسلات التجارية ومواصفات السلع المستوردة من الخارج عن طريق وزارة الاقتصاد الوطني»(٣).

ومن جهة أخرى هيأه هذا المسار لأن يكون إنساناً مثالياً، ذا نزعة صوفية، يسعى إلى أن تصل نفسه إلى أعلى مراتب الكمال، ويأمل أن يعم السلام في العالم، وتسود القيم الإنسانية العليا المجتمع البشري، فلم تستأثر به مغريات المادة الفانية وبهارج الحياة الزائفة، أو تستهويه نزوات الشباب «فأعمالي الكثيرة وتربيتي الخاصة أبعدتني عن المغريات، فكنت أرفه عن نفسي بالمطالعة الدائمة، ثم درست الموسيقا، وعزفت النوطة على العود، وأولعت بهوايات التصوير الشمسي، وجمع الطوابع البريدية، وإنشاء المقالات والمنظومات»(٤).

وفي الوقت ذاته لم ييأس ميخائيل أو يُهزَم أمام ما يلاقيه من إخفاق في تجاربه الخاصة، ولم يخلد إلى الصمت وعدم المبالاة أمام ما

تتعرض له البشرية من أهوال، فانصرف إلى هواياته المحببة التي كان ينميها يوماً بعد يوم، وإلى موضوعاته التي استأثرت بعقله وقلبه وملكت عليه حياته، والتي كان يمحصها ويتعمق فيها إلى آخر أيامه، وكأن تلك التربية التي نشأ عليها قد وجهته إلى أن يكون مفكراً صاحب رسالة عليه أن يسعى إلى نشرها من أجل رفعة أمته، ومن أجل خير الإنسانية.

آثاره

. المطبوعة:

- «فلسفة الموسيقا الشرقية في أسرار الفن العربي»، مطبعة ابن زيدون بدمشق، ١٩٤٨م.
- «بدائع العروض»، ١٩٤٨م وقد عممته وزارة المعارف السورية بتاريخ ٣١ يناير/كانون الثاني ١٩٤٩م.
- «الموسيقا في بناء السلام» محاضرة ألقاها في مؤتمر الأونيسكو الثالث في بيروت في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨م.
- «العروبة والسلام» ١٩٥١م.
- «زهر الربى» شعر، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٥٤م.
- «نحو الكمال» بالإنجليزية ١٩٥٤م.
- «الأدب في بناء السلام» رسالة مطبوعة قدمها في مؤتمر الأدباء العرب المنعقد في بلودان سنة ١٩٥٦م.
- «جولة في علوم الموسيقا العربية» محاضرة ألقاها في المؤتمر الدولي للموسيقا العربية ببغداد سنة ١٩٦٤م، وكانت الدعوة موجهة إليه من الأونيسكو.
- «شيء عن الموسيقا العربية» دراسة مطبوعة قدمها إلى مؤتمر الموسيقا العربية المنعقد في فاس سنة ١٩٦٩م، بناء على طلب المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في سورية(٥).
- «العروض والموسيقا» مقال في مجلة المعرفة (السورية) ع٦، آب ١٩٦٢م.
- «هل نستطيع إبداع موسيقا تصويرية» مقال في مجلة المعرفة السورية نشر في العددين ٨و٩ بتاريخ أكتوبر/ تشرين الأول ونوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٢م.

. المخطوطة:

- «الموسيقا الطبيعية وهرمنتها»(٦)، و«الحل السلمي لقضية فلسطين».، و«الرياضيات الحديثة في النسبة المتواصلة الموسيقية»، و«التجزير على أساس السلم الموسيقي»، و«السلاسل الفيزيائية للأنغام الطبيعية»، بالإضافة إلى ٢٠٠ لوحة في علم الموسيقا(٧) ومخطوطات وجداول تمثل السلم الطبيعي، سنأتي على ذكرها بعد قليل.

وهناك مجموعة من الرسائل المتبادلة بينه وبين أصدقائه ومعارفه، وآخرين من الباحثين والمسؤولين في مؤسسات ومنظمات عربية وعالمية. وكانت شقيقته قد وعدت بعد وفاته بتقديم هذه الرسائل إلى متحف دمشق ليصار إلى حفظها(٨). ومنها ما كان يتبادله كل أسبوع تقريباً مع الفنان كمال الصباغ الذي كان يحاضر في مجمع جورج بومبيدو في باريس ويبشّر بآراء أستاذه ميخائيل فيما يتعلق بعظمة الموسيقا الشرقية(٩).

مساهمته في النهضة الفنية

رافق ميخائيل النهضة الفنية التي عرفتها دمشق بين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٣٢م فعمل على تأسيس النادي الأدبي لنشر العلم والموسيقا، وشارك سنة ١٩٢٨م. مع نخبة من الهواة يتقدمهم فخري البارودي . في تأسيس النادي الموسيقي السوري الذي علّم الكثيرين مجّاناً، وأقام حفلات كبيرة على مدرج الجامعة السورية(١٠).

ويذكر صميم الشريف في كتابه «الموسيقا في سورية» أنه في مستهل الثلاثينيات قامت مجموعة من أعضاء النادي الموسيقي «الشرقي» وهم ميشيل الله ويردي، وتوفيق الصباغ، ونصوح الكيلاني، وداود قروشان بتأسيس نادي الفنون الجميلة، واتخذوا له مقرّاً في «باب توما»(١١).

وبعد أن انفرط عقد النادي الموسيقي السوري أعاد ميخائيل الكرة، وأسس الرابطة الموسيقية التي كانت بمنزلة نقابة للموسيقيين، وأكبر هيئة فنية عرفتها البلاد؛ إذ ضمت اثني عشر أستاذاً ونحو سبعين عضواً من الهواة، وكان تقدمها ملحوظاً وكذلك نشاطها؛ إذ علّمت الكثيرين، وأقامت حفلات رائعة، لكنها انحلّت أخيراً لأسباب مادية بسبب نفقاتها الباهظة التي لا تسددها الاشتراكات(١٢).



شكري القوتلي

هذا النشاط العملي كان يرافقه نشاط فكري في مجال الفن، بدأه ميخائيل في سن مبكرة، وكانت أولى مقالاته ما نشره سنة ١٩٢٤م في العدد الثالث من مجلة «روضة البلابل»(١٣) التي كانت تصدر بالقاهرة، وذلك حول تقسيم السلّم الموسيقي والقاعدة الرياضية للنسب الموسيقية، وهو ما توسع بعرضه فيما بعد.

الله ويردي الموسيقي

عندما انعقد مؤتمر الموسيقا العربية في القاهرة في ١٤ آذار/مارس . ٣ نيسان/ إبريل ١٩٣٢م واطلع الله ويردي على خلاصة أعماله كما وردت في الكتاب الذي صدر عنه، وعلى ما دار فيه من مناقشات، أسف لأن المؤتمر لم يتوصل إلى نتائج حاسمة في أكثر القضايا والمشكلات الموسيقية المطروحة، فصمّم هو على حلّها، وبذل كل جهده في تمحيص تلك العلوم «الموسيقية» التي عرفتها البشرية على مدى خمسة وعشرين قرناً؛ ولمّا تمكن من تمييز الغث من السمين، ومعرفة النواقص والأخطاء(١٤)، شرع سنة ١٩٣٧م في تأليف كتابه «فلسفة الموسيقا الشرقية في أسرار الفن العربي».

وبعد عمل متواصل امتد عشر سنوات تخللتها رحلات إلى العواصم للاستقصاء والبحث(١٥). أصدر الله ويردي كتابه سنة ١٩٤٨م في أكثر من ستمئة صفحة من القطع الكبير، ويشتمل على سبعة أقسام تبحث في فلسفة الموسيقا وطابعها ونشأتها، والمفاضلة بين الموسيقيين الشرقية والغربية، وأصالة الأصوات، والسلالم الموسيقية، والجمال

الموسيقي، وسلاسل الأنغام، والتوزيع والإيقاع «الموازين الشعرية الموسيقية»، والكتابة الموسيقية. فجاء الكتاب موسوعة في العلوم الموسيقية، كما عالج جميع المشكلات الفنية التي طرحت في مؤتمر القاهرة، وعمل على حلّها بالقواعد العلمية والبراهين الرياضية، ودعا إلى العودة إلى السلم الشرقي الذي تتفرّع أشكاله وفق أذواق أهله من أمم الشرق، والذي ينبغي لنا أن نسميه السلم العربي «على اعتبار أن العرب أقروا جميع تلك الأشكال في موسيقاهم، وقد عرفت هذه الطريقة أيضًا بالطبيعية؛ لأن أصواتها منسجمة متجاذبة، خاضعة لقواعد علمية دقيقة ومتفقة مع ذلك النظام الرياضي العام الذي كان القدماء يعتقدون أنه يشمل كل ما حوته البسيطة»(١٦) أما ذلك السلم المقسّم إلى أجزاء متساوية صوتيًا، سواء أكانت أنصافًا أم أرباعًا أم أكثر، وهي طريقة الإفرنج عامة ومن جاراهم من أمم الشرق المتفرنجة، وهو المعروف بالسلم الغربي أو المعدّل، فيجب نبذه وعدم الأخذ به «والأجدر أن تسمّى طريقته صناعية أو مشوهة؛ لأن أصواتها لا تمثل الطبيعة ذات الألوان الحية الزاهية، وإنما هي ألوان مشعّثة مغبّرة تكسف بها الفكرة الفنية التي ترتديها مهما كانت قوية سامية»(١٧). وكان الله ويردي قد أشار في عدة مواضع من كتابه إلى إخفاق المشاركين في مؤتمر القاهرة في التوصل إلى نتائج إيجابية، وإلى أن أكثرهم «كانوا من المغرمين بسلّم الأرباع المعدّل، وقلّ من يعرف شيئًا عن الموسيقا العربية الصحيحة»(١٨)، وأنهم «لم يستطيعوا أن يكشفوا أسرار السلم العربي»(١٩) بل إن بعض المستشرقين منهم مثل البارون كاراده فو قد ذهب إلى القول بأن السلم العربي لا وجود له؛ لأن السلم العربي عند أمثاله المحرفين الذين يلجؤون إلى التعديل الإفرنجي شوكة تقض مضاجعهم، فلا ترتاح أفكارهم مادام في الدنيا سلّم يبيّن حقائق الأنغام، فمن الخطأ أن يدعوا إلى مؤتمر يبحث في السلم العربي، لأن اشتراكهم به كاشتراك عشاق المادة وعبدة الأصنام في مؤتمر الفن والخيال والشعر والإلهام(٢٠).

وتعرض الله ويردي للحجج الواهية التي يستند إليها دعاة تقسيم السلم إلى ٢٤ ربعًا متساويًا، فردّ عليهم مفندًا ترهاتهم بما لا يدع لهم مجالاً لتضليل البسطاء(٢١).

وأخيرًا كان الكتاب دعوة إلى توحيد لغة الموسيقا عالميًا «كدرجة أولى لتقريب الأذواق وبناء السلام»(٢٢) ولا يتحقق ذلك - في رأيه - «إلا إذا درس الغربيون مادة الموسيقا العربية، وأدركوا عظمتها، وتعاونوا مع العرب على استنباط آلات تؤديها بدقة ونظام»(٢٣).

وكان لهذا السفر القيّم أثر كبير في الشرق والغرب، فأعاد طباعته ثانية عام ١٩٥٠م مصدرًا بمقدمات وكثير من كلمات الشكر والإعجاب من باحثين وفنانين وأدباء عرب وأجانب، وهيئات ومنظمات محلية وعالمية، منها كلمة وزير معارف سورية آنذاك الدكتور منير العجلاني الذي قدّم الكتاب باسم وزارة المعارف إلى العالم العربي، ورأى في صاحبه مؤلفًا من نسيج خاص، وذكر في تقديمه أنه عرض الكتاب «على فخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية فظفر باستحسانه، وأمر بأن يولى ما يستحقه من عناية ورعاية».

ومن تلك الرسائل والكلمات ما ورد من الموسيقار الشهير متري المر والعلامة شبلي ملاط، والموسيقار محمد فخري شيخ الهواة في الإسكندرية، والمستشرق البريطاني هنري فارمر، والمستشرق ألفرد غيليوم، ومعهد فؤاد الأول للموسيقا العربية، ومنظمة الأونيسكو، والكونت فولك برنادوت الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة الذي أرسل نسخة من الكتاب مشفوعة بخط يده إلى مؤسسة نوبل، وما لبث الكتاب أن رُشح لجائزة نوبل في ٢٣ شباط ١٩٥١م.

واتسعت شهرة ميخائيل الله ويردي، وتخطّت آثاره حدود القطر، ووجّهت إليه دعوات للمشاركة في مؤتمرات المحافل الدولية، فحاضر في الأونيسكو، وشارك في مؤتمر الأدباء العرب سنة ١٩٥٦م، وفي المؤتمرات الموسيقية التي عقدت في بغداد ١٩٦٤م وفي فاس ١٩٦٩م بينما ظل مغمورًا منسيًا في بلده، وقلّ من يعرفه، حتى إن بعض من يسمع به كان ينعته بأنه مصاب بالهستريا. وهو ما قيل لأحد طلاب العلم (نوري الرحيباني) قبل أن يزوره في بيته، عندما كان يعدّ أطروحة الدكتوراه التي قدمها بعد ذلك إلى قسم الموسيقا الشرقية في جامعة برلين. وقد كتب الرحيباني بعد الزيارة يقول: «فوجئت بمقابلتي الوحيدة التي أجريتها مع هذا العلامة بحيوية هذا الإنسان وهو يشرح طريقته، ويدافع عنها بقوة وحرارة مفعمة بروح الشباب، وتأثرت جدًا بهذه المقابلة، وبالطريقة العملية المبرهنة رياضيًا، والتي ينادي بها لإصلاح الموسيقا.. وقد سألت مدير معهد العلوم الموسيقية في مدينة لايبزغ عن رأيه في السلم الطبيعي وطريقة الأستاذ ميخائيل، فأجابني بأن الأستاذ ويردي على حق بما جاء به، وأن النظرية صحيحة». ويذكر الرحيباني أن العلامة ميخائيل وضع قصة السلم الطبيعي بمخطوطات وجداول على ورقة طولها ستة أمتار، وعشرون سنتيمترًا، أخذ نسخة منها تلميذه كمال الصباغ، وعرضها في باريس على العقل الإلكتروني ماري كوري بإشراف مدام شارماس والذي حوله بدوره إلى أكبر عقل إلكتروني في العالم في واشنطن، حيث فكك رموزه، وبعث برسالة شكر لواضع هذا المخطط مخبرًا بذلك مدام شارماس(٢٤). ومن ثم يدعو الرحيباني إلى تشكيل لجنة من علماء الموسيقا لدراسة نظريته وأبحاثه، وهو ما كان قد أراده ميخائيل قبل وفاته عندما أوصى بأن تؤول ملكية بيته إلى الدولة ليكون مركزًا من أجل تحقيق هذا

من آرائه أن الرجوع إلى الأنغام الطبيعية التي تقرها الموسيقا الشرقية «أو العربية» من شأنه أن يوحد أذواق البشر في العالم ويؤدي إلى السلام

الغرض، أو لتحويله إلى معهد لتعليم الموسيقا، وكذلك كتبه المخطوطة، ومنها «الموسيقا الطبيعية وهرمنتها»، و«التآلف اللحني».

الله ويردي ودعوته إلى السلام

ألقى ميخائيل محاضرته «الموسيقا في بناء السلام» بالعربية في مؤتمر الأونيسكو الثالث في بيروت مساء الخميس ٩ يناير كانون الأول ١٩٤٨م، وقد ترجمها المؤتمر إلى الإنجليزية والفرنسية، ووزع نسخاً منها على كثير من العلماء والمعاهد والجامعات، وأذيعت من عدة محطات لاسلكية. وقدّمه إلى المؤتمرين صديقه الشاعر أنور العطار الذي كان يومها رئيس ديوان الإنشاء في وزارة المعارف السورية.

يقول الله ويردي في هذه المحاضرة: «إن كثيراً من المفكرين رأوا أن الوسيلة المثلى لتعزيز السلم هي بناؤه على أسس معنوية، فحاولوا توحيد المذاهب والمعتقدات، ولمّا لم تثمر تلك المساعي حاول بعضهم توحيد اللغات، فذهبت أتعابهم أدراج الرياح؛ لأن هذه القضايا كلها هي الدرجات العليا من سلّم السلام، فلابد قبل الوصول إليها من المرور على درجاته الدنيا بالتدريج. وأولى هذه الدرجات من الوجهة المعنوية هي العمل على تقارب الأذواق في القضايا الثقافية والفنية، والموسيقا هي الوسيلة الفعالة لتقريب أذواق البشر وتوحيدها، والتأليف بين قلوبهم خطوة في سبيل السلام، ولا يكون ذلك إلا بتعميم الموسيقا الشرقية التي رسمتها الطبيعة للبشر، وحبتها سر التناسب وروعة الجمال مما يجعلها تولّد عنصر اللطف والهدوء، فتلطف الطبائع، وتزيل أسباب الخصام، وتتحوّل اهتزازاتها إلى موجات مشعّة تؤثر في الأرواح والأجسام؛ فبالرجوع إلى الأنغام الطبيعية التي تقرها الموسيقا الشرقية (أو العربية) تتوحّد أذواق البشر في العالم كله، فتتلاقى الأغراض والمقاصد مما يؤدي إلى السلام وإلى تحقيق الأهداف السامية للارتفاع بالإنسانية نحو الكمال».

سفرة إلى القاهرة

بعد مرور سنوات على انعقاد المؤتمر الموسيقي في القاهرة، وجّهت إحدى لجانه المكلفة بمتابعة البحث، وهي لجنة السلم الموسيقي، إلى فخري البارودي - الذي كان معروفاً في سورية بأنه في طليعة المهتمين بالموسيقا - كتاباً يتضمن أسئلة فنية حول السلم العربي وأنغامه، وعلاقة هذه الأنغام بالآلات الموسيقية التي يمكن أن تؤديها، فما كان من البارودي إلا أن أحال الكتاب إلى صديقه ميخائيل الله ويردي ليقينه بأن ليس هناك أقدر منه على الرد على تلك المسائل.

غير أن ميخائيل، بعد أن بعث بإجابته الخطية إلى اللجنة في أواخر عام ١٩٤٥م، لم يكتف بذلك، وأبى إلا أن يقابل أعضاء اللجنة كي يتداول الأمر معهم ويناقشهم بشأن أمور في الموسيقا العربية كانوا قد أغفلوها في مؤتمرهم، ويعرض عليهم ما توصل إليه. فتوجّه إلى القاهرة في أوائل عام ١٩٤٦م مزوّداً برسالة من رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي إلى المفوضية السورية هناك، وكان على رأسها السيد جميل مردم بك، واجتمع إلى علماء الموسيقا وأعضاء لجنة السلّم في جلسة عقدت بدار المستشار توفيق اليازجي، ولكن الاجتماع انفض بلا طائل(٢٥).

الله ويردي الشاعر

ولم يشأ ميخائيل أن يعود إلى دمشق قبل أن يحقق رغبته الجامحة في الاطلاع على المعالم الأثرية في مصر، وكان من بينها مسجد محمد علي باشا الذي هو من أبرز معالم قلعة الجبل أو قلعة صلاح الدين الأيوبي التي تقوم على أحد مرتفعات جبل المقطّم. ويحدثنا عن زيارته هذه بقوله: «لمّا زرت مسجد محمد علي في القاهرة سنة ١٩٤٦م فتنت بروعة ما فيه من بدائع الفن، ولا سيما قصيدة «البردة» للبوصيري المنقوشة فوق نوافذه بخط جميل مذهّب، وتمنيت أن يفتح علي بقصيدة مثلها تستحق هذا النصيب»(٢٦) وهو الذي شغف منذ حداثته بنظم الشعر، ونشر بعض القصائد والمقطوعات وما اتّبع فيه مجرى التخميس والتشطير.

وإذا كانت أمنيّته قد تنحت عن سطح شعوره سنوات، وبدت أنها غارت في بئر النسيان، إلا أنها في الحقيقة كانت تكمن وتتخمر في أعماق اللاشعور ريثما تجد مسرباً يتيح لها أن تنبثق وتتحقق في لحظة ما للتعبير عن



كمال الصباغ

نفسها، وكان ذلك بعد بضع سنوات، ففي ليلة سنة ١٩٥١م استيقظت من نومي وبعد برهة وجدت أنني على استعداد تام لتحقيق أمنيتي، فكتبت مطلع القصيدة:

أنوار هادي الورى في كعبة الحرم
فاضت على ذكر «جيران بذي سلم»

وتتالت أبياتها بسرعة عجيبة»(٢٧). وما لبث الشاعر أن أكملها خلال ثلاثة أيام، وقد بلغت مئة وخمسة وعشرين بيتاً يعرض فيها مآثر العرب والإسلام وما اصطفى الله به رسوله الكريم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم من مكارم الأخلاق وحميد الصفات وطيب النفس، وما جاء به من مبادئ إنسانية وسنن خالدة، وما دعا إليه من تعاليم سمحة لو اتبعها الناس لما ضلوا سواء السبيل، ولما فرقتهم النظم والمذاهب الاجتماعية التي لم تورث البشرية إلا النكبات والحروب. ويهيب بأمة العرب أن يتنبهوا للمكر والدسائس التي تعصف بهم، وتفكك وحدتهم، وأن يعودوا إلى الإخاء الذي دعا إليه الرسول وقد بدأه في المدينة المنورة:

ليت الإخاء الذي في يثرب انتشرت
راياته ظلّ فينا غير منفصم
إن القلوب إذا ألفتها ائتلفت
والودّ حبل فإن تصرمه ينصرم
فانفخ بنا نخوة تجمع أواصرنا
وابعث بنا همة يا باعث الهمم

وعلى العرب أن يستجمعوا أمرهم، وينبذوا

الفرقة فيما بينهم كي لا يصبحوا هدفًا للغزاة والطامعين، وتذل كرامتهم، إلى أن يقول:

يا أيها المسلمون الفخر فخركم
ونحن إخوانكم في النطق والعلم
فأيدوا بالفعال الغرّ دينكم
فقيمة الحب عندي أعظم القيم
ما الدين إلا هوى في نفس عاشقه
ومن يبح بالهوى يوم النوى يُلم

ويعود ثانية ليذكر محاسن محبوبه ويعبر عن حبه الذي يصل إلى حد العشق، ويفخر بممدوحه الذي ألهمه هذا الشعر المنزّه عن أي غرض:

يا أجمل الخلق سيماء وأظرفهم
طبعًا وأوفاهم بالعهد والذمم
عشقت فيك صفات جلّ مبدعها
كالغيد تفتن لبّ الشاعر الفهم
وحسن شعري بكم من شمسكم قبس
والنبع ما سال لولا صوب الديم
فإن أجدت بهذا الطل مدحكم
فكل معنى بكم كالهاطل العرم

ويختم القصيدة بقوله:

صلى الإله على ذكراك ممتدحا
حتى تؤم صلاة البعث بالأمم

وكان الله ويردي بقصيدته هذه (وحي البردة) «أول شاعر مسيحي يعارض (البردة) الذائعة الشهرة»(٢٨) وهو فيها كما في كل شعره يعبّر عن انفعالاته ومشاعره بصدق وعفوية، بعيدًا عن التكلف والتزيّد، نلمس ذلك باطلاعنا على ديوانه «زهر الربى» المطبوع في ثلاثمئة صفحة من القطع الكبير، والذي قسمه ثلاث رياض: الروضة الأولى مجموعة من القصائد تحت اسم «الورد والأقحوان»، والثانية ما نظمه في التخميس والتشطير تحت عنوان «الفل والنسرين»، والثالثة «شقائق النعمان» وهو ما قاله من أبيات جاءت ثنائيات وثلاثيات.

وقد ابتعد ميخائيل في شعره عن الموضوعات التقليدية كالمديح والرثاء والهجاء والخمريات، ولم ينظم إلا ما كان يشعر به ويتأثر(٢٩) فجاء شعره مرآة لما يعتلج في نفسه من عواطف، فصور فيه أحلامه وتأملاته الصوفية التي تطير به إلى عوالم ينتشي فيها بعطر الهوى العذري، ويهيم في بهاء الجمال الروحي، ويشير إلى ما كابده في تجربته المريرة من حب طاهر بريء انتهى إلى الإخفاق، كما صور معاناته الذاتية تجاه ما يحيط به من مغريات ومفاسد، وما يواجه العالم من قوى الشر المتمثلة بالأطماع والحروب التي تهدد البشرية بالدمار والهلاك.

غير أن ذلك كله، ومع كل ما اعترى نفسه من كآبة وما لاقاه من أذى وإساءة، لم يثنه به إلى الهرب من الواقع أو الانطواء على النفس كما نراه عند أغلب الشعراء الرومانسيين، بل ظل على الرغم من كآبته وخيبة آماله، متفائلاً بالحياة، داعيًا في شعره - كما في كتبه ومحاضراته - إلى عالم يسود فيه الإخاء، وتعم العدالة، وينتشر السلام.

كما نلمس في شعره نفحة وطنية إنسانية تنبع من أعماقه بحكم انتسابه - كما يقول مفتخرًا - «إلى أمة ليس لها من القوة والغنى ما لغيرها من الأمم، ولكن لها تراثًا روحيًا تليدًا لا تفوقها فيه أمة أخرى»(٣٠).

ويطول بنا الحديث لو أمعنا النظر في شعره، ورحنا نجول بين رياضه، ونعبّ من روائح زهره، وننتقي منه طاقات معبرة عمن نتحدث عنه.

توفي ميخائيل في منزله بحي المزرعة بدمشق يوم الجمعة في ٨ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٧٨م «بهدوء وصمت»؛ إذ لم يعرف بموته «إلا قلة من أصحابه ومعارفه»(٣١).

وبعد وفاته «قلّدت وزيرة الثقافة والإرشاد القومي في سورية شقيقة المرحوم ميخائيل خليل الله ويردي وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى نيابة عن أخيها تقديرًا للخدمات الثقافية التي قدمها لبلده وشعبه»(٣٢). فشكرتها الآنسة نزهة وقالت لها: «إنها كانت تتمنى أن يُمنح هذا الوسام لأخيها في حياته.

المراجع والهوامش

١. أيوب سعدية (وسام الاستحقاق السوري للكاتب الفنان ميخائيل خليل الله ويردي) مجلة (هنا دمشق) ع ١٠٢ تاريخ ١ - ١٥/١٠/١٩٨٠م ص٥٢.
٢. ميخائيل الله ويردي: ديوان «زهر الربى» كلمة المؤلف ص ١٧.
٣. أخبرني بهذا الأستاذ يوسف عبد الأحد الذي كان من أصدقائه.
٤. ديوان «زهر الربى» كلمة المؤلف ص١٨.
٥. ورد ذكر الدراسات الثلاث الأخيرة في مقال ليوسف عبدالأحد - إثر وفاة ميخائيل - في جريدة (البعث) تاريخ ١١/ديسمبر/كانون الأول ١٩٧٨م.
٦. ورد ذكره في مقاله المنشور في العدد الثامن من مجلة (المعرفة) تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٢م.
٧. ورد ذلك مع أسماء المخطوطات الأربعة الأخيرة في مقال يوسف عبد الأحد (مرجع سابق).
٨. أيوب سعدية (مرجع سابق).
٩. انظر حسيب كيالي في مقال له نشر في جريدة «البعث» تاريخ فبراير/شباط ١٩٧٩م.
١٠. ميخائيل الله ويردي «فلسفة الموسيقا الشرقية»، هامش ص ٢٩، و«زهر الربى» كلمة المؤلف ص١٨.
١١. صميم الشريف: «الموسيقا في سورية، أعلام وتاريخ»، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩١م، ص٥٢.
١٢. «فلسفة الموسيقا الشرقية»، ص٢٩.
١٣. «روضة البلابل» مجلة موسيقية كان يحررها رئيس المعهد الموسيقي المصري إسكندر شلفون.
١٤. «زهر الربى» ص١٨.
١٥. «فلسفة الموسيقا الشرقية» مقدمة وجيه بيضون.
١٦. «المرجع السابق»، ص١٥.
١٧. «المرجع السابق»، مقدمة الطبعة الأولى.
١٨. «المرجع السابق»، ص٣٤٥.
١٩. «المرجع السابق»، ص١٢٨.
٢٠. «المرجع السابق»، ص١٣٠.
٢١. «المرجع السابق»، ص١٠٦.
٢٢. «المرجع السابق»، مقدمة الطبعة الأولى.
٢٣. «المرجع السابق»، ص١٦.
٢٤. نوري الرحيباني: «العلامة الموسيقي ميخائيل الله ويردي ونظرية السلم الموسيقي الطبيعي» جريدة «تشرين» السورية ٢٢ فبراير/شباط ١٩٧٩م.
٢٥. «فلسفة الموسيقا الشرقية»، ص٣٧.
٢٦. «زهر الربى»، المقدمة ص٢٠.
٢٧. «المرجع السابق»، الصفحة نفسها.
٢٨. «المرجع السابق»، المقدمة ص٢٢.
٢٩. «المرجع السابق»، ص٢٣.
٣٠. «المرجع السابق»، ص٢٨.
٣١. يوسف عبد الأحد، «المرجع السابق».
٣٢. أيوب سعدية، «المرجع السابق».

لمحات من تاريخ النوبة

فرج الله أحمد يوسف
الرياض - السعودية

النوبة: هو الاسم الذي يطلق على البلاد التي تقع جنوب الشلال الأول، وتمتد من أسوان في الشمال إلى مدينة الدبة في الجنوب (تقع مدينة الدبة إلى الجنوب من مدينة دنقلة)، وقيل: إن حدود النوبة كانت تمتد إلى مشارف مدينة الخرطوم، وكان يطلق على النوبة في اللغة المصرية القديمة أسماء عدة: منها: «كوش»، وهو الاسم الأكثر شيوعاً منذ عهد الدولة الوسطى(١)، وبهذا يمثل الشلال الأول الحدود الطبيعية بين النوبة ومصر، ولكن هناك من يرى أن حدود النوبة تمتد شمالاً حتى جبل السلسلة - يقع شمال أسوان بنحو ٥٠كم (٢).



ينحدر النوبيون من أصل مشابه للمصريين، وتشبه حضارتهم الأولى حضارات ما قبل التاريخ في مصر، ومنذ عهد الدولة القديمة كان النوبيون يصدّرون إلى مصر الذهب على هيئة حلقات، وسبائك، وتبر، والعاج، والأبنوس، والبخور، والغنم، والماعز(٣) وتنقسم النوبة قسمين: الشمالي: وهو جزء من مصر يمتد من أسوان شمالاً حتى وادي حلفا جنوباً، ويعرف بالنوبة السفلى. والجنوبي: وهو جزء من السودان يمتد من وادي حلفا شمالاً حتى الدبة جنوباً، ويعرف بالنوبة العليا(٤).

النوبة في العصر الفرعوني

أطلق المصريون القدماء أسماء كثيرة على النوبة، لعل من أقدمها اسم «كينست»، و«تاستي» الذي يعني بلاد حاملي الأقواس. وعاشت في بلاد النوبة السفلى عدة قبائل ذكرها قدماء المصريين منها: قبيلة الواوات، وسكنت حول قرية كرسكو، وقبيلة الايرثت، وسكنت حول قرية توماس، وقبيلة ستاو، وسكنت حول قرية توشكي، وقبيلة إيام، وسكنت حول قرية أرمنا، وقبيلة مدجاو وهي من القبائل الرحل التي لم تستقر في منطقة معينة، بل كانت تجوب مناطق السودان والنوبة السفلى(٥). وتنتمي هذه القبائل إلى الجنس الحامي الذي ينتمي إليه سكان شمال إفريقية، وأثبتت الدراسات الآثارية أن أهل النوبة السفلى استقروا في أرضهم منذ الألف الخامس قبل الميلاد على الأقل، ووصلوا إلى المستوى الحضاري نفسه الذي وصل إليه المصريون(٦).

بدأت عناية المصريين بالنوبة تزداد منذ عصر الأسرة السادسة، ومن أدلة ذلك قيام أحد عظماء تلك الأسرة، واسمه «أوني»، بحفر خمس قنوات في صخور الشلال الأول لتسهيل الملاحة في اتجاه النوبة، وسجل أعماله تلك على نصب ذكر فيه أن قبائل الايرثت، والواوات، والمدجاو قد ساعدته على حفر القنوات. وفي عهد الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ق.م) دارت حروب طويلة بين المصريين والنوبيين، انتهت بانتصار المصريين الذين قاموا بتشييد عدة حصون على طول الطريق من أسوان حتى الشلال الثاني، من أهمها: حصنا «سمنة وقُمه»(٧).

ومنذ عصر الأسرة الثامنة عشرة (القرن السادس قبل الميلاد) في عهد الملك أحمس انضمت النوبة السفلى والعليا حتى الشلال الرابع إلى مصر، وتأثرت بالثقافة المصرية، وتعبدت إلى الآلهة المصرية وانتشرت في النوبة المعابد المصرية التي كانت بمنزلة مراكز ثقافية يتعلم فيها الناس الدين والعلم. ومنذ عهد الملك أمنحوتب الأول عهد المصريون بإدارة بلاد النوبة إلى موظف كبير كان يلقب بلقب «ابن الملك المولى على كوش»(٨)، واستمر الحال على هذا المنوال حتى القرن الثامن قبل الميلاد حين ظهرت أسرة نوبية قوية انتهزت فرصة اضطراب الأوضاع في مصر منذ القرن التاسع قبل الميلاد، فأخذت تعمل جاهدة على تحقيق الحلم النوبي المتمثل في الاستيلاء على عرش مصر، حتى تمكن أحد أفرادها وهو الملك «بعنخي» من تحقيق ذلك الحلم، وتأسيس الأسرة الخامسة والعشرين في التاريخ الفرعوني، وأهم ملوك تلك الأسرة بالإضافة إلى الملك بعنخي، شباكا،



ارتبط النوبي بالذهب وعرفت النوبة ببلاد الذهب

و شباتاكا، و طهارقا الذي دخل في حرب طويلة مع الآشوريين ظلت سجالاً إلى أن تمكنوا من هزيمته سنة ٦٧٠ق.م، فعاد إلى عاصمة النوبة نباتا، وبعد موته خلفه ابنه تانوت آمون الذي زحف شمالاً نحو منف، واستعادها من الآشوريين، لكنهم ما لبثوا أن انتصروا عليه وأجبروه على الانسحاب منها، وبخروجه انتهى الحكم النوبي لمصر، ولم يحاول النوبيون بعد ذلك الرجوع إلى مصر، واكتفوا بسيطرتهم على مناطق النوبة السفلى، واستمرت دولتهم هذه فترة تزيد على ثلاثة قرون من سنة ٦٦٣ - ٣٠٠ ق.م.(٩).

وبعد فتح الإسكندر الأكبر لمصر تغلغل البطالمة في بلاد النوبة، وسيطروا على المنطقة التي تقع جنوب أسوان بنحو ١١٠كم، وأطلقوا عليها اسم «الدوديكاشينوس» وكانت تشمل البلاد التالية: دابود - ثافا - كلابشة - جرف حسين - الدكة - كوبان - قورتة - المحرقة، ومن الملوك النوبيين الذين تأثروا كثيراً بالثقافة اليونانية الملك أركامون الذي كانت تربطه صلة وثيقة بالملك بطليموس الثاني(١٠)، ثم سقطت دولة البطالمة في مصر، وانتقل الحكم إلى الرومان، فبدأت سلسلة من الثورات ضد الحكم الروماني في جنوب مصر، وشارك النوبيون في تلك الثورات، وقدموا في إحداها مساعدات كبيرة لأهل طيبة الذين ثاروا ضد الحاكم الروماني كورنيلوس جاللوس في عهد الإمبراطور أغسطس، وبعد أن تمكن الحاكم كورنيلوس من القضاء على الثورة في طيبة توجه جنوباً لمعاقبة النوبيين، لكنه لم ينجح في مهمته، وترك النوبيين متمتعين بالاستقلال مع الاعتراف الاسمي بسيطرة الرومان. وفي سنة ٢٥ق.م قام النوبيون بثورة كبيرة ضد الرومان، وتغلّبوا على الحامية الرومانية ونهبوا جزيرتي فيها من كنوز إلا أن كلّ ذلك لم يضعف مقاومة النوبيين الذين تجمعت قواتهم تحت قيادة الملكة كانداكي، وتقابلوا مع الجيش الروماني عند أبريم، فآثرت الملكة كانداكي قبول الصلح مع الرومان الذي تم بموجبه إعفاء النوبيين من دفع الجزية للرومان، ووقعت تلك المعاهدة في سنة ٢٠ق.م، وقام الرومان بعد ذلك بتشييد المعاقل

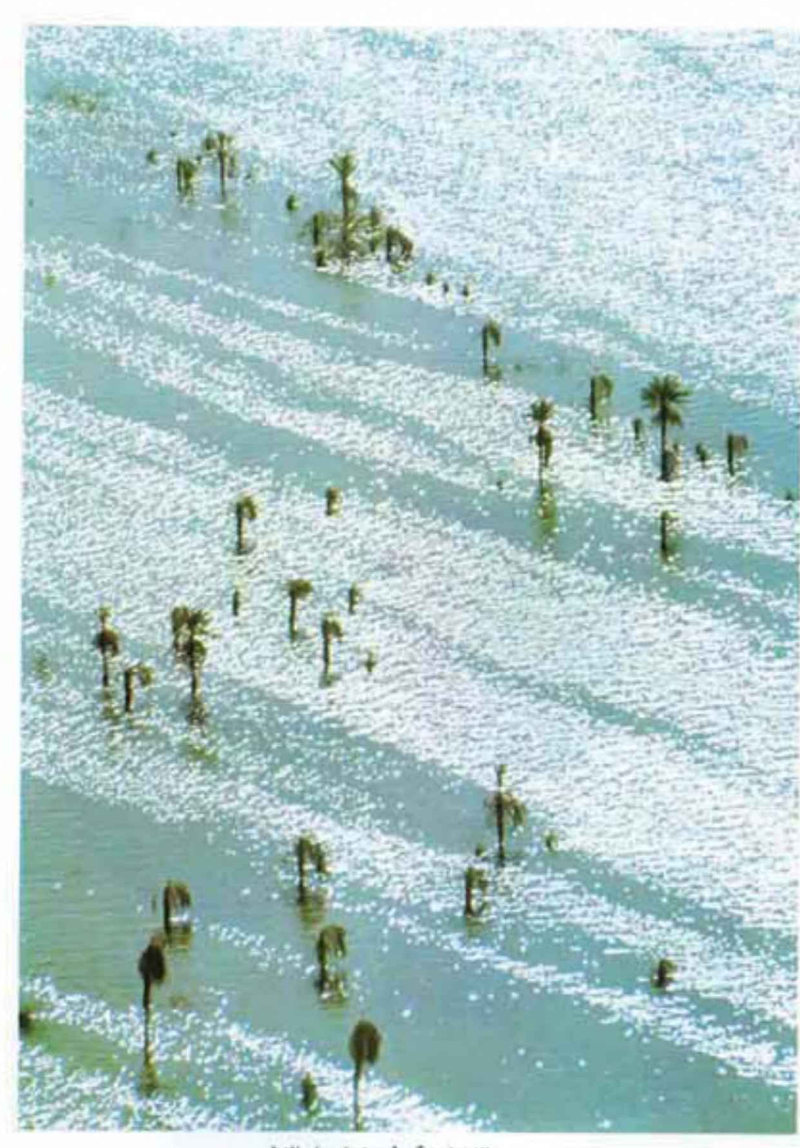


أوانٍ ذات نقوش مختلفة

أنس الوجود، والفنتين، ومدينة أسوان، فخرج الحاكم الروماني بترونيوس على رأس جيش كبير التقى الجيش النوبي عند الدكة، وكانت الغلبة للرومان الذين تقدموا جنوباً، وحاصروا فلول الجيش النوبي في قلعة أبريم، واستولوا عليها، ثم واصلوا زحفهم صوب عاصمة النوبة نباتا، وتمكّن بترونيوس من تدميرها، ونهب ما والحصون في الدكة وكلابشة ودابود(١١).

النوبة بعد دخول المسيحية

دخلت المسيحية بلاد النوبة في منتصف القرن السادس الميلادي، وفي سنة ٥٧٧م افتتح رئيس مطارنة أسوان معبد إيزيس (فيلة) بعد تحويله إلى كنيسة، وتحولت معظم المعابد الفرعونية في النوبة إلى كنائس، وقامت في النوبة العليا



النخيل وقد غمرتها مياه النيل

دولة مسيحية اتخذت من مدينة دنقلة عاصمة لها، وسيطرت على معظم مناطق النوبة السفلى، وشيّد الملك النوبي مركوريوس كنيسة في مدينة ثافا على بعد ٤٢ كيلو متراً إلى الجنوب من أسوان(١٢)، ومن أشهر ملوك النوبة في تلك الفترة الملك سلكو الذي حارب قبائل البجة، وتمكن من طردهم من بعض مناطق النوبة التي استولوا عليها أكثر من مئتي سنة، وكان الملك سلكو حاكماً على كلابشة، وسجل انتصاراته على نصب عثر عليه في كلابشة قائلاً: «وجئت إلى طلمي وتافة مرة ومرتين وتقاتلت مع البلمبيين، ومنحني الرب النصر، وفي المرة الثانية نلت نصراً حاسماً، ففتحت مدنهم، واحتلتها قواتي، وأخضعتهم، فأدوا إليّ مظاهر الاحترام، وعقدت الصلح معهم، واقسموا بآلهتهم، فقبلت ذلك منهم على أنهم ناس شرفاء، وقد تقاتلت مع البلميين من بريم إلى تنل» (١٣)، وبعد انتصاره على البجة أصبح الملك سلكو من أقوى الحكام المحليين، والزعيم الأوحد للنوبة السفلى، وامتدت أملاكه من الشلال الأول شمالاً حتى الشلال الثالث جنوباً، وعلى ضفتي النيل، وأكد الملك سلكو سيطرته على النوبة بقسميها العليا والسفلى، وسجل ذلك على النصب السالف الذكر «ففي البلاد السفلى أنا الأسد وفي البلاد العليا أنا الدب» وفي أسفل النصب نحتت صورة الملك مرتدياً عباءة وسترة قصيرة مشابهة لأباطرة الرومان وعلى رأسه تاج مزين بقرون الإله خنوم، وريش الإلهة معات، والأفاعي الملكية «الأوريات»، وهذا النوع من التيجان استخدمه ملوك النوبة السفلى منذ القرن الثامن الميلادي حتى القرن الثالث عشر(١٤).وانتهت فترة حكم الملك سلكو في سنة ٥٥٩م، فخلفه الملك إيريانمة، وعثر في معبد دندور على نصب يرجع إلى عهده يحمل تاريخ ٢٧ تيب من الأندوقتيون السابع الموافق ٢٣ يناير سنة ٥٥٩م، وسجل على النصب اللقب الذي كان يطلق على حكام النوبة السفلى في ذلك الوقت وهو لقب: "هيبارخ"، بالإضافة إلى الألقاب البيزنطية الأخرى التي كانت تطلق على علية القوم مثل: هيبوتران، وفيلارخ، والأسماء المسيحية مثل: بافنوطيوس، وإبيفانوس، ومرقص، ويذكر النصب أيضاً أسقف فيلة والقس التابع له، وهو يوحنا القبطي



البيت النوبي تحفه الخضرة والنخيل، وتزدان واجهته بالأطباق والنقوش

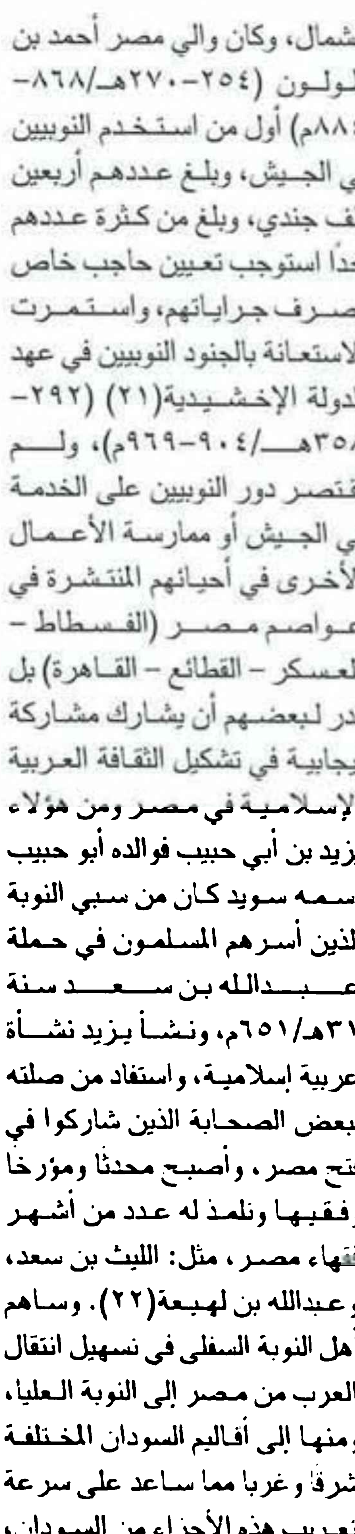
الذي رفع الصليب عند تكريس معبد دندور(١٥).

النوبة بعد دخول الإسلام

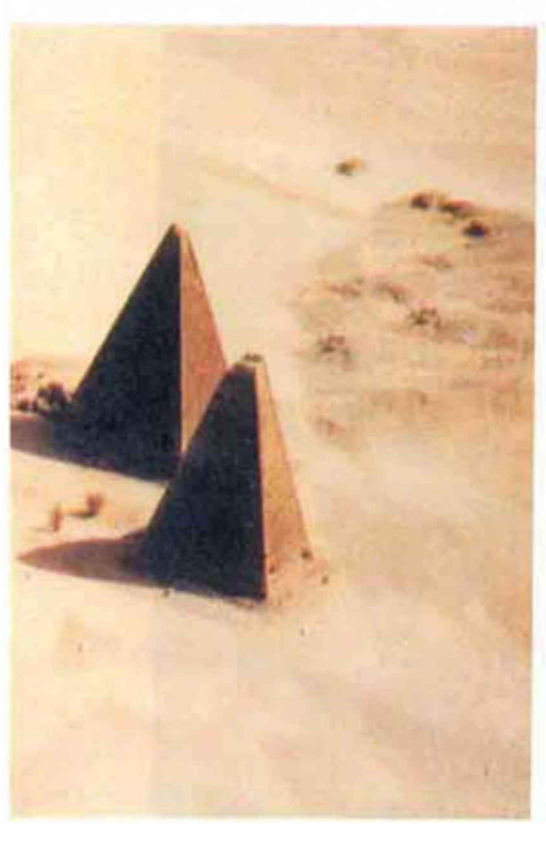
عرف العرب النوبة باسم "مريس أو مريسة"، ويقول المسعودي: «الريح التي تسمي ببلاد مصر المريسية مضافة إلى بلاد مريس من أوائل أرض النوبة في أعالي النيل»(١٦)، أما ياقوت فيقول «المريسة جزيرة صغيرة في بلاد النوبة يجلب منها الرقيق»(١٧).

بعد الفتح الإسلامي لمصر سنة ٢١هـ/٦٤١م توقفت الجيوش الإسلامية عند أسوان، وتقدمت في العام نفسه فرقة من الجيش الإسلامي بقيادة عقبة بن نافع صوب النوبة السفلى، لكنها لم تتقدم كثيراً؛ لأنها واجهت مقاومة شديدة أبداها النوبيون الماهرون في الرمي بالسهام حتى أطلق عليهم المؤرخون العرب "رماة الحدق" لدقتهم الفائقة في الرمي، وعقدت معاهدة بين الطرفين توقف بموجبها المسلمون عن التوغل جنوباً في بلاد النوبة(١٨).

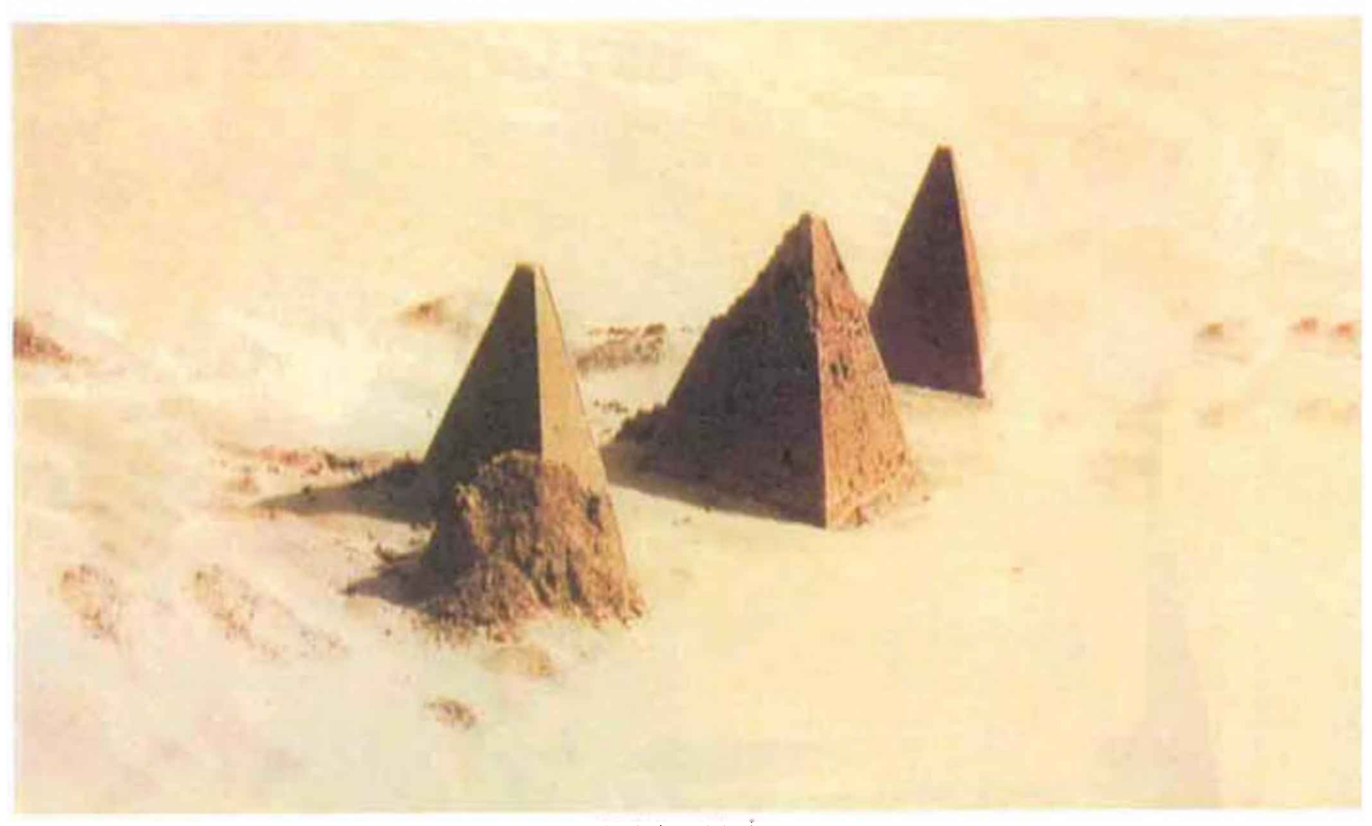
وفي خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قاد والي مصر عبدالله بن سعد بن أبي السرح حملة تمكنت من التوغل جنوباً حتى وصلت إلى مدينة دنقلة، واستولت عليها، ومع ذلك فقد وقع عبدالله بن سعد معاهدة مع النوبيين عرفت باسم «معاهدة البقط» (البقط تعني الضريبة التي تدفع عيناً)، وكتب عبدالله بن سعد للنوبيين عهداً يعد أساساً للعلاقات بين الخلافة الإسلامية و مملكة النوبة المسيحية ووقعت تلك المعاهدة في سنة ٣١هـ/٦٥١م(١٩)، وبهذا دخل الإسلام النوبة السفلى في وقت مبكر جداً عن النوبة العليا، وبعد هذه المعاهدة بدأت الجماعات العربية المختلفة في النزوح من مصر إلى بلاد النوبة السفلى، وتأثر النوبيون بهذه الجماعات العربية المسلمة التي استقرت معهم واعتنق كثير منهم الإسلام، ولم يعد لملوك النوبة المسيحيين في النوبة السفلى سوى نفوذ اسمي(٢٠) وبمرور الزمن نزحت العناصر النوبية إلى



الشمال، وكان والي مصر أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٧٠هـ/٨٦٨-٨٨٤م) أول من استخدم النوبيين في الجيش، وبلغ عددهم أربعين ألف جندي، وبلغ من كثرة عددهم حداً استوجب تعيين حاجب خاص لصرف جراياتهم، واستمرت الاستعانة بالجنود النوبيين في عهد الدولة الإخشيدية(٢١) (٢٩٢-٣٥٨هـ/٩٠٤-٩٦٩م)، ولم يقتصر دور النوبيين على الخدمة في الجيش أو ممارسة الأعمال الأخرى في أحيائهم المنتشرة في عواصم مصر (الفسطاط - العسكر - القطائع - القاهرة) بل قدر لبعضهم أن يشارك مشاركة إيجابية في تشكيل الثقافة العربية الإسلامية في مصر ومن هؤلاء يزيد بن أبي حبيب فوالده أبو حبيب اسمه سويد كان من سبي النوبة الذين أسرهم المسلمون في حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١هـ/٦٥١م، ونشأ يزيد نشأة عربية إسلامية، واستفاد من صلته ببعض الصحابة الذين شاركوا في فتح مصر، وأصبح محدثًا ومؤرخا وفقيها ونلمذ له عدد من أشهر فقهاء مصر، مثل: الليث بن سعد، وعبدالله بن لهيعة(٢٢). وساهم أهل النوبة السفلى في تسهيل انتقال العرب من مصر إلى النوبة العليا، ومنها إلى أقاليم السودان المختلفة شرقاً وغربا مما ساعد على سرعة تعريب هذه الأجزاء من السودان، وانتشار الإسلام والثقافة العربية في ربوعه الواسعة(٢٣). ومن أبرز الأحداث التي توضح العلاقة بين الدولة الإسلامية والنوبيين هي الزيارة التي قام بها ولي عهد مملكة النوبة جورج بن زكريا بن يحنس لبغداد في زمن الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) وقد اهتمت الأوساط المسيحية في العالم الإسلامي عموماً، وفي مصر خصوصاً، بتلك الزيارة؛ وذلك لأن النوبة كانت في ذلك الوقت لا تزال تضم أكثرية مسيحية. وأشار ساويرس بن المقفع إلى الزيارة في كتابه «تاريخ البطارقة» بقوله: «فلما وصل إلى مصر - ولي عهد النوبة - اجتمع به الأب المنبوط البابيوساب... وبدا يمشي في الطريق إلى بغداد وسأله أن يدعو له أن يعيده الله إليه بسلام»(٢٤)، وذكر المؤرخ المسيحي القس بارهبروس بطريرك اليعاقبة السريان أسباب الزيارة بقوله: «في سنة ٨٣٦م بعث الخليفة المعتصم برسالة إلى ملك النوبة طالباً الجزية ومهدداً في حالة عدم إرسالها بالحرب، وحين رأى زكريا قوة العرب قال للمبعوث: صحيح أن من واجبنا أن نبعث سنويا ٣٦٠ عبداً وعدداً من القردة المدربة، والزراف، وسن الفيل، وجلود الفهود، ولكن من واجب العرب أن يبعثوا لنا بكميات من القمح والثياب الفاخرة، وأن يسمحوا لرجالنا بجمع الهبات من النوبيين المقيمين ببلاد العرب، وبما أنكم امتنعتم عن ذلك، فقد امتنعنا نحن أيضاً، هذا وقد سمعنا بطيبة ملكهم، وعظمة أسرته، ولذا فلن نتحدث في هذا الأمر إلا معه،



وسيقوم ولي العهد بنفسه ليقدم فروض الولاء والطاعة له»(٢٥). وفي عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أرسل القائد جوهر الصقلي بعثة إلى ملك النوبة برئاسة عبدالله بن أحمد بن سليم الأسواني يدعوه إلى الإسلام لكنه رفض، وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٧٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م) أصبح ملك النوبة السفلى عربيا مسلما، وذلك عندما اعتلى عرش مملكة النوبة أبو المكارم هبة الله الذي استطاع القبض على أحد الخارجين على الخليفة الحاكم، فأنعم عليه الخليفة بلقب «كنز الدولة»، وفيما بعد أطلق لقب الكنوز على أتباعه ومن ثم أطلق



أهرامات جبل البركل

الاسم على سكان الجزء الشمالي من النوبة السفلى، واستمرت التسمية إلى الآن(٢٦)، وشهد عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله تعاون النوبيين مع الوزير بدر الجمالي (٤٦٦-٤٨٧هـ/١٠٧٣-١٠٩٤م) ضد القبائل العربية في الصعيد(٢٧).

سكان النوبة السفلى

ينقسم سكان النوبة السفلى ثلاثة أقسام:

- **الكنوز**: كانوا يقطنون المنطقة الممتدة من أسوان في الشمال إلى قرية المضيق في الجنوب، وكان أثر العرب كبيرا في الكنوز منذ الفتح الإسلامي لمصر، وسكنت بجوارهم قبائل عربية، ويذكر الرحالة بوركهارت الذي زار النوبة سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م أن قبائل عربية قدمت من العراق واستوطنت بمنطقة الكنوز، وكان أحفادهم في أثناء زيارة بوركهارت للنوبة يعرفون بالبغدادية، ويسكنون في دهميت والأمبركاب(٢٨).

- **العرب**: يسكنون المنطقة الممتدة من قرية المضيق شمالا حتى قرية كروسكو جنوبا، وهم عرب من الحجاز ينتسبون إلى عقيل بن أبي طالب، ويعرفون باسم العقيلات استقروا في سيناء أولا، ثم هاجروا إلى بلاد النوبة، وكان مرعي بن سلمي الرواف العقيلي أول من نزل منهم بالنوبة، وبرفقته سبعة وثلاثون فارسا من العقيلات قدموا ضمن حملة أرسلها السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون لمحاربة ملك النوبة سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٧م، ويذكر بوركهارت أنه عندما زار سيناء وجد قبيلة من البدو في أودية سيناء الجنوبية تسمي بالعقيلات، وأكدوا له أن عرب العقيلات بالنوبة أبناء عمومتهم(٢٩).

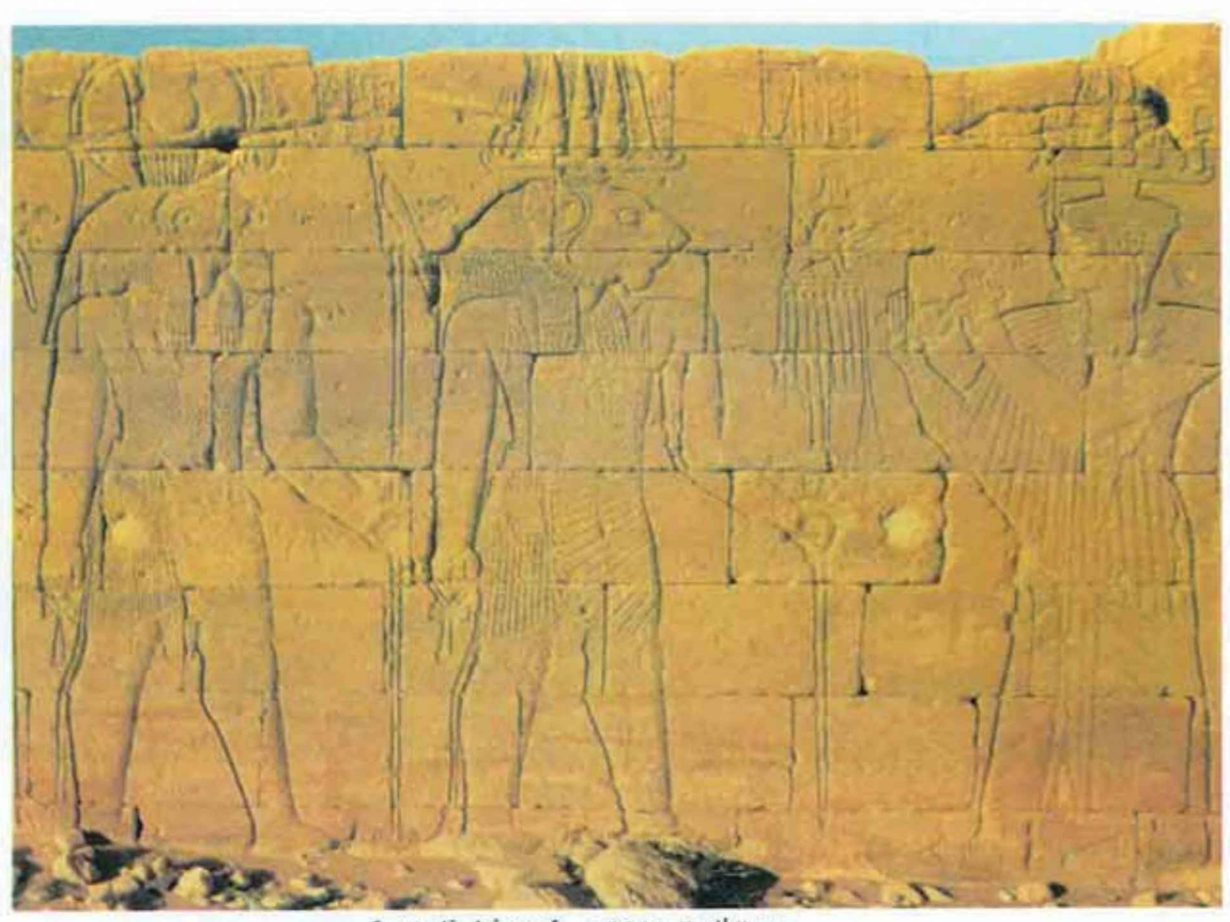
- **الفديجة**: كانوا يقطنون المنطقة الممتدة من قرية كرسكو شمالا حتى الشلال الثاني جنوبا، وهم أصلا من الجماعات المعروفة في النوبة العليا باسم السكوت والمحس - يسكن السكوت والمحس المنطقة الواقعة بين الشلال الثاني والشلال الثالث - وهاجروا إلى النوبة السفلى في القرن التاسع عشر لصعوبة العيش في المناطق التي


المرأة النوبية تبدع في تزيين بيتها

كانوا يقطنون فيها(٣٠). ويرى بعض المؤرخين أن هجرتهم كانت بسبب الظلم والتعسف الذي عانوا منه مما دفعهم إلى الهجرة شمالاً واتخذوا لأنفسهم اسماً جديداً هو الفدجة، ومعناه في لغتهم «أننا سنهلك» مما يشير إلى أنهم كانوا هاربين من هلاك، لذلك يعتقد هؤلاء المؤرخون بأن هذه التسمية لا ترجع إلى أبعد من عهد الثورة المهدية «أواخر القرن التاسع عشر الميلادي»(٣١).

لغة أهل النوبة

اللغة النوبية من اللغات الحامية، لكنها تأثرت بمؤثرات لغوية خارجية على مر العصور؛ لذلك نجد فيها عناصر مصرية قديمة وقبطية ويونانية ومرويتية، بالإضافة إلى عدد من الكلمات العربية، وظلت اللغة النوبية مدة طويلة لا تكتب حتى نهاية العصر البيزنطي. (أواسط القرن السابع الميلادي)، حيث يرجع تاريخ المخطوطات النوبية التي عثر عليها مكتوبة بالحروف اليونانية، وظل النوبيون متمسكين بلغتهم حتى بعد اتخاذهم الإسلام ديناً، فاستطاعت اللغة النوبية أن تحافظ على كيانها على الرغم من انتشار اللغة العربية في مصر، ووجود جماعات من العرب استوطنت النوبة، واللغة النوبية ليست لغة واحدة، بل هي لهجتان، الأولى يتحدث بها الفدجة في النوبة السفلى والسكوت والمحس في النوبة العليا، وتعرف هذه اللهجة باسم المريسي (الجنوبي)، واللهجة الثانية يتحدث بها الكنوز في النوبة السفلى والدناقلة في النوبة العليا وعلى الرغم من أن الكنوز والدناقلة غير متجاورين إلا أن التشابه في لهجتيهما يرجع إلى متانة الروابط التجارية التي كانت تربط بينهما عبر الصحراء تجنباً لطول مجرى النيل، وكثرة ما فيه من جنادل كانت تعوق الملاحة، وتعرف هذه اللهجة بالمتوكي «الشمالي»(٣٢).



يبدو التأثر بالحضارة المصرية واضحاً في آثار النوبة

حرف النوبيين وصناعتهم

كانت الزراعة هي الحرفة الرئيسة للنوبيين الذين كانوا يزرعون أراضيهم الضيقة على ضفتي النيل، وكانوا يعتمدون في الري على السواقي التي تديرها الماشية لرفع المياه إلى الأراضي الزراعية وذلك لارتفاعها عن أعلى مستوى لمياه النيل، ويذكر الرحالة بوركهارت أن ملكية الرجل من الأراضي الزراعية كانت تقدر بعدد السواقي التي يملكها، وكان عدد السواقي في النوبة في أثناء زيارته لها في القرن التاسع عشر الميلادي يقدّر بين ٦٠٠ - ٧٠٠ ساقية، وارتفع العدد في بداية القرن العشرين إلى أكثر من ١٦٠٠ ساقية، أغلبها كانت توجد في المنطقة الواقعة جنوب قرية كرسكو، وبصفة خاصة في الضفة الشرقية لنهر النيل، حيث الأراضي أكثر اتساعاً، غير أن عدد السواقي تناقص كثيراً بعد إنشاء سد أسوان في سنة ١٩٠٢م فارتفع مستوى مياه نهر النيل من ٨٩ متراً إلى ١٠٦ أمتار، وبعد إتمام التعلية الأولى في سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٢م وصل مستوى المياه إلى ١١٣ متراً، وبعد التعلية الثانية في سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م بلغ مستوى المياه ١٢١متراً، ليتقلص عدد السواقي في نهاية الخمسينيات الميلادية إلى نحو ٤٠٠ ساقية، واستخدم النوبيون الشادوف في رفع المياه إلى الأراضي المرتفعة، وبعد التعلية الثانية لسد أسوان استخدمت الماكينات (الطلمبات) العائمة والثابتة لري الأراضي الزراعية، وكانت أهمها توجد في قرى: الدكة، وعنيبة، وبلانة، وتوشكي(٣٣). ولضيق المساحات المزروعة، وصعوبة وسائل الري اتجه النوبيون إلى زراعة المحاصيل التي تسد حاجاتهم مثل: القمح والشعير والذرة الرفيعة والفول واللوبيا والكشرنقيق، ولا تذكر الزراعة في النوبة إلا ويذكر

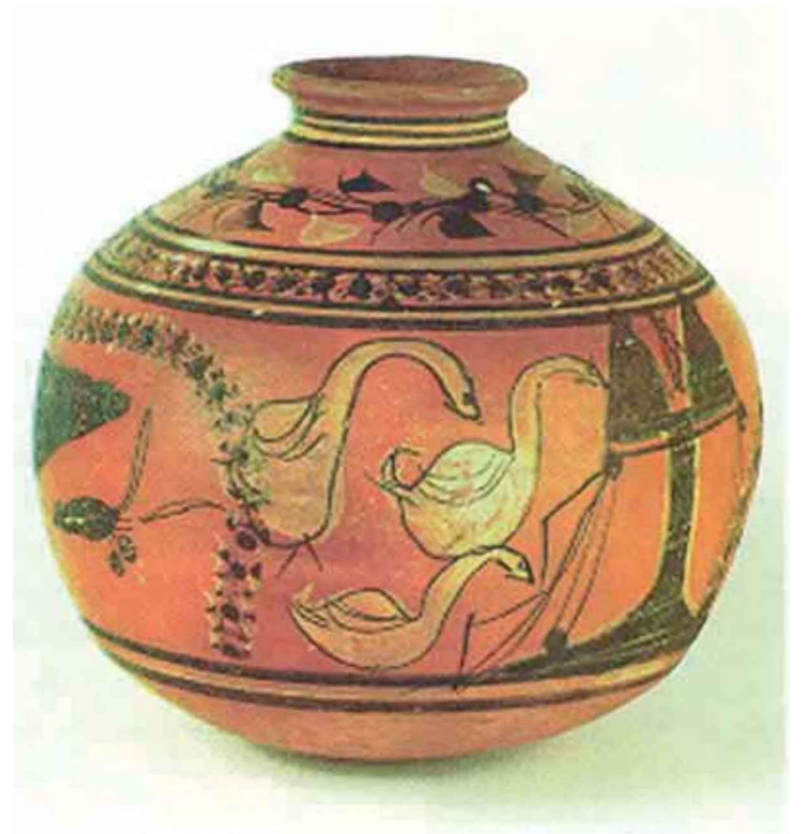


صوامع لتخزين التمور

النخيل الذي كانت له أهمية كبرى في الاقتصاد النوبي، فقد كان التمر هو السلعة التجارية الرئيسة، لما له من شهرة فائقة في الأسواق المصرية والسودانية، وقدر عدد النخيل في النوبة في بداية القرن العشرين بنحو نصف مليون نخلة غرق الكثير منها بعد بناء سد أسوان، وكانت قريتا الدر وأبريم تشتهران بإنتاج أجود أنواع التمر وإن كانت الثانية فاقت الأولى شهرة لارتباط أحد أجود أنواع التمر باسمها حتى الآن، وهو البلح الأبريمي، و كانت القريتان بالضفة الشرقية لنهر النيل، وكانت الدر في أوائل القرن التاسع عشر أهم بلاد في النوبة، اتخذها حكام النوبة مقرا لهم، وفي سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م كان أمراء النوبة هم حسن كاشف، وأخويه حسين ومحمد أبناء سليمان كاشف وينحدر أمراء النوبة وأكثر أهل الدر وأبريم من جنود البوسنة الذين أرسلهم السلطان العثماني سليم الأول للسيطرة على النوبة بعد الفتح العثماني لمصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، أما أبريم التي يصفها بوركهارت عند زيارته لها سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م بأنها تقع على ربوة صخرية منعزلة تشرف على النيل، وبيوتها مبنية من الحجر الرملي، ويحيط بالبلدة سور حديث على حد وصف بوركهارت في ذلك الوقت. وكانت أبريم والإقليم الذي يتبعه، وكان يبدأ من جنوب الدر شمالا إلى توشكي جنوبا، مستقلين عن حكم أمراء النوبة، ويحكمهما أغا أبريم، وكان سكان الإقليم لا يدفعون الضرائب سواء لأمراء النوبة أو للأغا لذلك تمكن أهل أبريم من اقتناء ثروات طائلة، ويكفي أن نعرف أنه في أثناء تقهقر المماليك أمام جيوش إبراهيم باشا بن محمد علي سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م استولوا من أبريم على ألف ومئتي بقرة، وعدد من قطعان الأغنام والماعز، وسجنوا وجهاء البلد وأثرياءها، ولم يطلقوا سراحهم إلا بعد دفع فدية تجاوزت مئة ألف ريال إسباني، وكان أولئك المماليك قد فروا من القاهرة بعد مذبحة القلعة الشهيرة سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م، فطاردتهم جيوش إبراهيم باشا حتى وصلوا إلى النوبة، والتقى الطرفان في معركة دارت رحاها عند قرية كشتمنة شرق نهر النيل في بداية

سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م فانهزم المماليك، وفروا إلى الجبال وعندما علموا بعودة جيش إبراهيم باشا إلى أسوان في جمادى الأولى سنة ١٢٢٧هـ/ مايو/أيار سنة ١٨١٢م عادوا إلى ضفاف النيل، وعبروا إلى الضفة الغربية عبر مخاضة عند قرية كشتمنة، وواصلوا السير جنوباً حتى وصلوا أبريم، ومنه إلى بلاد السكوت والمحس(٣٤). وإلى جانب الزراعة اشتهر النوبيون بممارسة بعض الأنشطة الأخرى مثل التجارة التي اشتهر بها عرب العقيلات الذين كانت لهم تجارة ناشطة مع السودان عبر الصحراء، واتخذوا من مدينة بربر في السودان مركزاً لتجارتهم، وكانت الرحلة من منطقة العرب إلى مدينة بربر تستغرق ثمانية أيام، وكانت تسلك ذلك الطريق قافلة تضم أربعة أو خمسة جمال تسافر كل أسبوع إلى بربر، وكانت لعرب العقيلات طرق أخرى منها طريق يبدأ من شمال السودان، ويسلك الصحراء غرب النيل متجها إلى الواحات الداخلة والخارجة في رحلة تستغرق ثلاثة وعشرين يوماً، ومنها تتجه القوافل إلى أسيوط والقاهرة، وهناك طرق أخرى تبدأ من شمال السودان إلى صعيد مصر عبر الصحراء غرب النيل حيث ذكر الرحالة بوركهارت أنه سمع في أثناء وجوده في قرية الدر عند زيارته للنوبة سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م بقافلة يقودها عرب العقيلات كانت في طريقها من بلاد المحس في النوبة العليا إلى مدينة أسنا في صعيد مصر، ومن قوافلهم أيضاً قافلة السبوع التي تتجه كل شتاء من السبوع إلى القاهرة، وتضم في العادة بين ثلاثين إلى أربعين بعيراً(٣٥).

ومن المهن الأخرى التي اشتغل بها النوبيون الملاحة النهرية بين مصر والسودان، وإرشاد السفن النهرية بعد تنظيم خطوط الملاحة النهرية بين أسوان ووادي حلفا، ولا يزال النوبيون حتى اليوم مشهورين بقدرتهم الفائقة على الملاحة النهرية، خصوصاً وسط الجنادل والصخور والتيارات المائية الصعبة، ومارس النوبيون أيضاً صيد الأسماك، وجمع ثمرة نوع من أشجار السنط تعرف بالقرض، وتصديرها إلى مصر حيث تستخدم في دبغ الجلود، إلى جانب بعض الحرف البسيطة مثل صناعة الأواني الفخارية والغزل والنسيج والحصر والسلال، وللنوبيين ذوق خاص في التطريز يتبين في زخرفة غطاء الرأس للرجال (الطاقية والعمامة). ومنذ أمد بعيد هاجر عدد من النوبيين من بلادهم ملتمسين كسب العيش، وكانت أهم المدن التي يهاجرون إليها القاهرة والإسكندرية والسويس والإسماعيلية في مصر، ووادي حلفا وبربر وعطبرة وبورسودان والخرطوم في السودان.

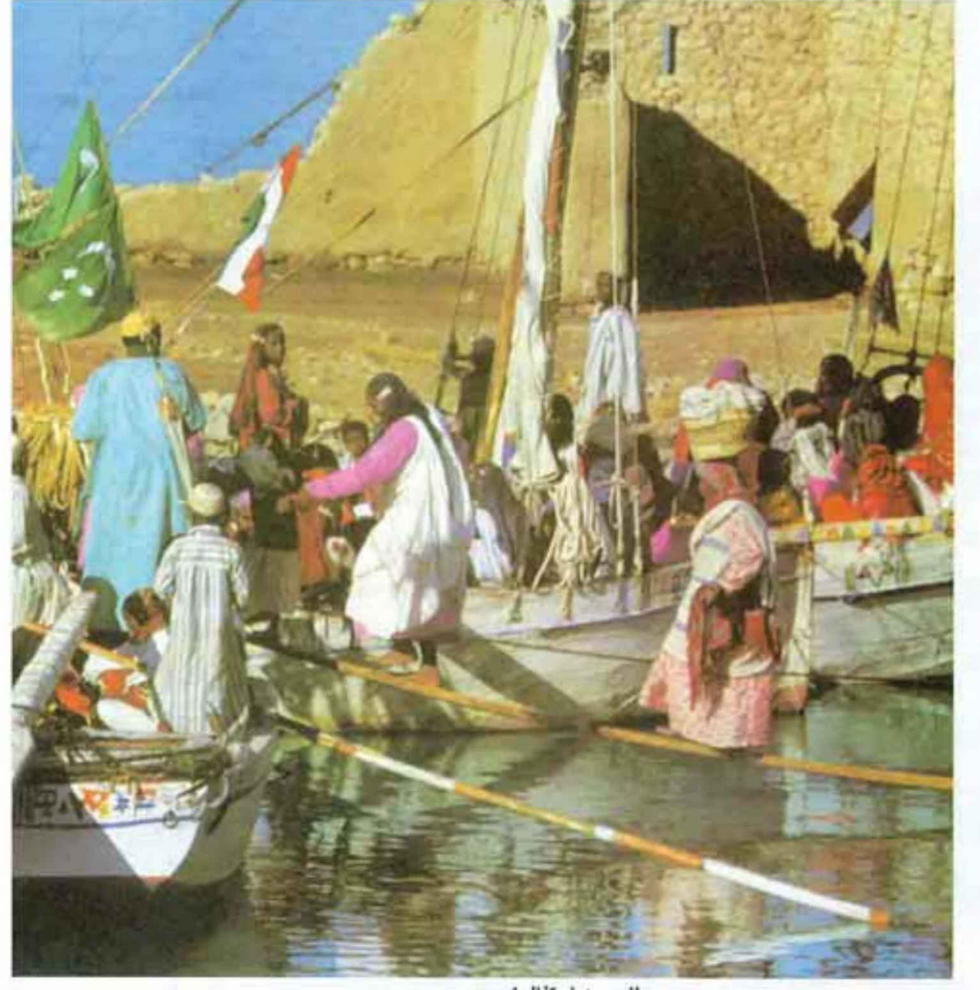


أبدع الإنسان النوبي في صنع الفخار وتزيينه بالرسوم المختلفة

آثار النوبة السفلى

يرجع تاريخ استيطان النوبة إلى العصر الحجري القديم، وتنسب أقدم الرسوم المحفورة على الصخور في النوبة السفلى إلى الحضارة السبيلية المتأخرة. وهي تمثل سفناً وحيوانات مختلفة مثل الفيل والزراف، وعثر على تلك الرسوم في وادي العرب، كما عثر على رسوم أخرى ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات في جرف حسين والسيالة والدر وأبريم وأبوسمبل، واكتشفت رسوم أخرى في السبوع سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م(٣٦)، ويوجد في النوبة السفلى ستة عشر معبداً سأذكرها فيما يلي مرتبة حسب موقعها الجغرافي من الشمال إلى الجنوب:

- **معبد فيلة:** فيلة هي تحريف لكلمة "بيلاك" التي تعني في اللغة المصرية القديمة النهاية لوقوع المعبد في أقصى جنوب مصر عند حدود النوبة، ومعبد فيلة شُيِّد في عصر البطالمة لعبادة إيزيس.
- **معبد دابود:** يقع على مسافة ٢٠ كيلو متراً جنوب سد أسوان، وبناه الملك النوبي أزخر آمون سنة ٣٠٠ق.م.
- **معبد قرطاسي:** يقع على بعد ٤٥ كيلو متراً جنوب سد أسوان، وشُيِّد في العصر الروماني.
- **معبد تافا:** يقع على مقربة من معبد قرطاسي، وشُيِّد مثله في العصر الروماني.
- **معبد كلابشة:** يبعد عن سد أسوان بنحو ٧٥ كيلو متراً، ويعد من أكبر المعابد المشيدة في النوبة السفلى، تم تشييده في عصر الملك أمنحتب الثاني (الدولة الحديثة) إلا أن المعبد في شكله الحالي يعود لعصر البطالمة، ويمتاز المعبد بتخصيصه لعبادة إله الشمس النوبي ماندوليس، ويوجد به



جانب من احتفال نوبي

النصب الذي سجل عليه الملك النوبي سلكو انتصارات على البجة.
- **معبد بيت الوالي:** يقع بالقرب من معبد كلابشة، وهو من أول معابد الملك رمسيس الثاني المنقورة في الصخر ببلاد النوبة.
- **معبد دندور:** يقع على الشاطئ الغربي للنيل وعلى بُعد ٧٨ كيلو متراً جنوب أسوان، شيّده الإمبراطور الروماني أغسطس سنة ٣٠ ق.م وخصص لعبادة شخصين من الأبطال تم رفعهما إلى مصاف الآلهة وهما: باديسة ومعناه عطية إيزيس، وباهور ومعناه عبد حورس، وتم تحويل المعبد إلى كنيسة في عهد الملك النوبي اكيسبانومي سنة ٥٥٧م.
- **معبد جرف حسين:** وهو ثاني معابد رمسيس الثاني المنقورة في

الصخر ويقع على بعد ٩٠ كيلو مترا جنوب سد أسوان، شيّده ستاو الذي كان يشغل منصب نائب الملك المولى على كوش، وخصص المعبد لعبادة الإله بتاح إله مدينة منف والإله بتاح نانتن والإلهة سخمت والملك رمسيس الثاني بوصفه أحد آلهة المنطقة.

– **معبد الدكة:** يقع على مسافة ١٠٧ كيلو مترات جنوب سد أسوان، شيّده الملك النوبي اركامون في عصر البطالمة.

– **قلعة كوبان:** تقع على مقربة من معبد الدكة، يرجع تاريخ إنشائها إلى عصر الأسرة الثانية عشرة (الدولة الوسطى ٢٠٠٠ق.م)، وكانت القلعة هي حلقة الوصل بين وادي النيل ومناجم الذهب، حيث كانت كميات الذهب المستخرجة تخزن في القلعة تحت حراسة مشددة حتى يتم نقلها إلى مصر.

خريطة توضح أهم المناطق في بلاد النوبة (النوبة العليا والنوبة السفلى)

– **معبد وادي السبوع:** يقع المعبد على بعد ١٥٠ كيلو مترا جنوب سد أسوان، وهو المعبد الثالث من معابد رمسيس الثاني المنقورة في الصخر، تعود التسمية إلى صفين من التماثيل على هيئة أبو الهول أمام المعبد.

– **معبد عمدا:** يقع على بعد ١٨٥ كيلو مترا جنوب سد أسوان، وهو أقدم المعابد في النوبة إذ يعود تاريخ تشييده إلى عهد الملك تحتمس الثالث، وأدخلت عليه زيادات في عهد كل من: الملك أمنحتب الأول والملك تحتمس الرابع، وخصص المعبد لعبادة الإله آمون.

– **معبد الدر:** يقع على مسافة ٢٠٠ كيلو متر جنوب سد أسوان، وهو المعبد الرابع من معابد رمسيس الثاني المنقورة في الصخر، وكان المعبد خاصا بعبادة الإله حور أختي والملك رمسيس بوصفه إله المنطقة.

– **قلعة قصر أبريم:** تقع على بعد ٢٣٥ كيلو مترا إلى الجنوب من سد أسوان، ويوجد بها خمسة هياكل صغيرة منقورة في الصخر، وعلى جدران القلعة توجد صور تمثل ملوك النوبة يتعبدون إلى آلهة المنطقة. والسبب في وجود هذه الهياكل يرجع إلى قرب القلعة من عاصمة بلاد النوبة السفلى في عصر الدولة الحديثة وهي المعروفة باسم ميعم (عنيبة)

– **معبد أبوعودة:** يقع على الشاطئ الشرقي أمام معبد أبوسمبل نقره في الصخر الملك حورمحب أول ملوك الأسرة التاسعة عشرة (القرن الرابع عشر قبل الميلاد).

– **معبد أبوسمبل:** وهما في الواقع معبدان نقر كلاهما في الصخر في عهد الملك رمسيس الثاني، ويعد هذان المعبدان الخامس عشر والسادس عشر بالنوبة في عهد هذا



جانب من منازل الكنوز على ضفاف النيل

الملك، والمعبد الأول للملك رمسيس الثاني والمعبد الثاني للملكة نفرتاري (جميلة الجميلات، وهي نوبية الأصل) ولا يفصل بين المعبدين إلا واد صغير ويعد المعبد الأول من أكبر المعابد في العمارة البشرية، والمنطقة التي شيّد فيها المعبدان من الأماكن المقدسة عند قدماء المصريين منذ أقدم العصور، فقد شيّد بها معبد يرجع إلى عصر الملك خوفو (الأسرة الخامسة - ٢٨٠٠ق.م)، واستعان الملك رمسيس الثاني ببعض الفنانين والنحاتين النوبيين في تشييد المعبدين، ويظهر ذلك في عدم إتقانهم لنسب التشريح التي اشتهر بها الفنانون المصريون طوال العصر الفرعوني. ومن ملوك النوبة الذين دفنوا في بلادهم الملك بننوت الذي عاصر الملك رمسيس السادس، وشيّدت مقبرته بمدينة ميعم «عنيبة»(٣٧). وكشفت هيئة الآثار المصرية بين سنتي ١٩٥٨-١٩٥٩م عن ١٢٢ مقبرة في بلانة، منها: ٣١ مقبرة وجدت سليمة لم تمتد لها يد من قبل، وكان أصحاب تلك المقابر من الملوك والملكات حيث عثر على التيجان على رؤوسهم(٣٨).

وبعد؛ فهذه لمحات خاطفة من تاريخ النوبة وآثارها وأهلها الذين ظلوا يعيشون في ظل هذا الرصيد الحضاري الضخم حتى قدموا أرضهم فداء لمصر عندما اقتضى بناء السد العالي غمر أرضهم بالمياه المخزونة خلف السد فتم تهجيرهم بين سنتي ١٣٨٣ - ١٣٨٤هـ/١٩٦٣ - ١٩٦٤م إلى منطقة تقع شمال أسوان، كما تم تهجير النوبة في السودان من حلفا إلى حلفا الجديدة وتشاء إرادة الله أن ترتبط النوبة دائما بالخير لمصر، حيث يجري الآن على أرضها إقامة واحد من أكبر المشاريع الزراعية في العالم هو مشروع توشكي.

المراجع

- أبوبكر. عبد المنعم: بلاد النوبة. المكتبة الثقافية ٥٨ - أول أبريل ١٩٦٢م. (١، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ٢٦، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٧)، ص٩ - ٦٩.
- خليفات. عوض محمد:العرب والنوبة في صدر الإسلام. مجلة دراسات تاريخية - العدد الثامن - رجب ١٤٠٢هـ/أبريل / نيسان١٩٨٢م - دمشق(٢٧). ص٥٠-٧٦.
- خير. حاج حمد محمد:زيارة ولي عهد النوبة إلى بغداد في زمن المعتصم. مجلة المؤرخ العربي - العدد الثالث والعشرون - سنة ١٩٨٣م - بغداد. (٢٤، ٢٥) ص١٢٠ - ١٢٣.
- سعد. مصطفى:معاهدة البقط. (مجلة كلية العلوم الاجتماعية - العدد الخامس ١٣٩٥هـ١٩٧٥م - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض. (١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣) ص٤٤٧-٤٨٥.
- شبيكة. مكي: السودان عبر القرون. بيروت. من دون تاريخ. (١٨) ص٢٩.
- عكاشة. ثروت وأخرون:بلاد النوبة. القاهرة. من دون تاريخ. (٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٨) ص٣٢ - ٦٦.
- كوبيشانوف. يوري ميخايلوفتش: الشمال الشرقي الأفريقي في العصور الوسطى المبكرة. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم - عمان ١٩٨٨م. (١٣، ١٤، ١٥، ١٧) ص١٥٦، ١٥٨.
- كوتريل. ليونارد وأخرون:الموسوعة الأثرية العالمية. ترجمة محمد عبدالقادر محمد وأخرون - القاهرة ١٩٧٧م. (٢، ٣، ٨) ص٧١٧.
- المسعودي. أبو الحسن علي بن الحسين بن علي:التنبيه والإشراف. تحقيق عبدالله الصاوي - القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٨٣م. (١٦) ص١٨.
- المقريزي. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. بيروت. من دون تاريخ. (٢١) ص ٣٢٠/١.
- بوركهارت د.ت: (١٢) ٢٨، ٢٩، ٣٤، ٣٥ ص١٦ - ٣٠.

الأديب الداغستاني رسول حمزاتوف:

صمت الشاعر ممنوع

حوار خاص بالفيصل أجراه: **إيغور يرماكوف**
موسكو - روسيا الاتحادية


رسول حمزاتوف

بلغ الشاعر الشعبي رسول حمزاتوف في سبتمبر/أيلول ١٩٩٩م الستة والسبعين من عمره. لقد ولد وقضى الجزء الأكبر من حياته في العهد السوفييتي، ونال شهرة عالمية، مع أنه ينتمي إلى قومية صغيرة في شمال جبال القفقاس، في داغستان بلده. ذهب من هناك ليشارك مع الجيش الروسي في الحرب ضد ألمانيا النازية في عام ١٩٤١م، وهو في الثامنة عشرة من عمره. وكان يعود إلى داغستان من أي مكان في العالم حينما كان يشارك في نشاطات منظمات دولية متعددة بما في ذلك ندوات ومؤتمرات العالم الإسلامي والعربي.

وكنت محظوظًا - أنا المستعرب السوفييتي الروسي ومترجم الأدب العربي إلى الروسية - حينما تعرفت إلى هذا الإنسان الطيب الحكيم، وهذه الشخصية التي لا تنسى أبدًا.

وكانت بداية تلك المعرفة سنة ١٩٧١م عندما أصبحت أعمل في اتحاد الكتاب السوفييت في موسكو في مكتب العلاقات الخارجية مستشارًا في الأدب العربي. وكنت

أرافقه وزوجته الجميلة اللطيفة فاطمة هانوم في بعض رحلاتهما إلى بلدان الشرق الأوسط، وكنت أترجم أحيانًا خطاباته وأشعاره في لقاءات اتحاد كتاب آسيا وإفريقية في

السنوات العشرين من عام ١٩٧١م حتى عام ١٩٩١م، حينما انقسم اتحاد الكتاب السوفييت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. لكن لحسن الحظ لاتزال الصلات القديمة حية ونتقابل ونتخابر من وقت إلى آخر، وأنا سعيد أن أستمع إلى صوته بالهاتف حينما يريد أن يتشاور معي في موضوع الأدب العربي المعاصر، وحينما أزوره في شقته في موسكو من أجل أن أحمل إليه كتاباً عن العرب أو عن الإسلام أو ترجماتي الحرفية لأشعاره إلى العربية، وهو مهتم بإعداد رحلة بدعوة من بلد عربي. وفي السنوات العشر

عديمو الموهبة يزدادون في أدبنا المعاصر

يا رسول حمزاتوفيتش! - أتوجه إليه كالعادة بطريقة الاحترام الروسي، وأذكر اسمه الأول وكنيته بالأب - توجد لدى الشاعر الروسي فلاديمير ماياكوفسكي سطور شعرية تقول: «حينما أجمل نتائج ما أمضيتها..»، فما النتائج لحياتكم الكبيرة والغنية بالحوادث التي من الممكن أن تذكروها اليوم؟

- يخيّل إليّ أنه لا توجد نتيجة

في أيام طفولتنا؛ لأننا لا نعرف أشياء كثيرة... وقد صحّ قول فلاديمير ماياكوفسكي: «الحسن للذي مُختَبَرٌ سيئًا». لكنني كنت في القمم، وعرفت كثيراً، وكان تمرلانك على حق حين قال: «فتتذعر البشرية إذا عرفت من هم معبودوهم».

وبالوجه العام كنت أعرف كثيرين من أناس طيبين، فكل إنسان جديد، وكل عقل جديد بالنسبة إليّ سعادة جديدة.

هل خابت آمالكم في الديموقراطية؟

- لم تعجبني الحرية الراهنة والديموقراطية هذه على الإطلاق أبداً. فلهذا السبب لا داعي للخيبة. قال فلان: «حينما أرى الاشتراكية أريد أن ألجأ إلى الرأسمالية. وحين أبصر الرأسمالية أريد أن أهرب إلى الاشتراكية». أتشابه إنساناً لا يعرف من أين يمكن أن يشتري مأكولاته - من المخزن أو من السوق: هنا ما فيش وهناك ممنوع. ربما لهذا يسمى عهدنا عهداً فوضوياً مختلطاً.

هل كل ما يحدث في بلادنا نتيجة للديموقراطية؟، الشعب يعيش في فقر مدقع، عمال المناجم يستلقون على القضبان، يقطعون السكك الحديدية. هل هذا ديموقراطية؟ وهل الإنسان حرٌّ اليوم؟

- طبعاً كانت نقائص كثيرة في السنين الماضية، ولكن إن رمیناها وأغمضنا عيوننا ولم ننظر إليها



الطيب صالح



ألكسندر بوشكين

حمزاتوف مع زوجته فاطمة في زيارة لأحد المتاحف



الأخيرة كان يسافر إلى البلدان العربية بما في ذلك المملكة العربية السعودية بصفته الشاعر المسلم المؤمن، يقوم بالحج ويزور مكة المكرمة والمدينة المنورة والرياض.

ويتأمل رسول حمزاتوف كثيراً في السنوات الأخيرة في دينه الإسلامي، وفي مصير شعبه الداغستاني، وفي دربه الشخصي في الحياة مع زملائه وأصدقائه.

أجرينا مع هذا الشاعر الداغستاني الشهير هذا الحوار الذي تناول قضايا مختلفة.

للفنان بل توجد مواصلة...

وما السعادة في اعتقادكم؟

- السعادة هي مهارة تلافي السعادة. وكل صباح أشعر بالسعادة والفرح إذا ما داهمت المصيبة بيتاً لفلان ما... أما أكثر اليوم حظاً بالنسبة إليّ فهو حينما أسأل «كيف الحال؟» فيجيبون عليّ: «كالمعتاد». لكنني أفكر أنه غير ممكن أن يكون اليوم «كالمعتاد»: إما أن يكون هناك نقص وإما أن يحدث شيء غير متكهن. ومبدئياً لكل عهد من الزمان سعادة تناسبه. إننا سعداء

فالعالم كان بالفعل جميلاً، وإذا تتبعنا (الموضة) اليوم يلزمنا أن نشتم الشيوعيين بكلمات فاحشة.

كيف تعملون اليوم في مثل هذا الوضع؟

- أعمل بصعوبة. هكذا حدث وأسقطت هذه الأحداث عليّ وأنا قد شخت، لكنني لا أشتكي، أتمتع بشهرة لدرجة ما، وأنا معروف فالناس يزورونني، لكن يؤسفني أنني لا أستطيع أن ألبي طلبات كثيرة. يوجد «رصيد حمزاتوف»، يساعد الفقراء بالمأكولات، وتوجد مؤسسة «رصيد طيور اللقلق» تقدم مساعدة ما للبسطاء، لكن كل هذا قليل، قليل جداً؛ ولهذا السبب لا أكتب بسهولة، مع أنني أفهم أن صمت الشاعر اليوم ممنوع. في أيامنا هذه يكثر الأذلاء والمظلومون، وعلى الأدب أن يكون إلى جانبهم. وما يحدث في الواقع هو أن هذا الأدب متروك للأغنياء وللزعماء، وهو يخدمهم. ازداد العدد من عديمي المواهب في أدبنا المعاصر: توجد عندهم نقود، وفي استطاعتهم أن ينشروا ما يريدون. مثل هذا التعبير الذاتي ممكن أن يقتل كرامة الأدب في روسيا.

بوصفكم شاعراً كيف عبرتم عن البيريسترويكا (الانفتاح) والإصلاحات؟

- لم أحاول. إنني ببساطة لا أعرف ما معنى هذه الكلمة: إعادة البناء؟ ليس لديّ وقت لأتأمل وأفهم هذه الظاهرة. إنه ضروري أن يوصفها الأدب السياسي، وليس الشعر بالذات. والشيء المعاكس هو حياة الإنسان الروحية: إيمانه واعتقاداته ودينه.



يسجل ملاحظاته خلال جولة له في متحف يضم مقتنيات إسلامية

هل جاءت إليكم في يوم من الأيام فكرة تغيير مكان السكن؟ هل استلمتم اقتراحاً لتبقى خارج روسيا وتعيش في بلد آخر، في الغرب أو في الشرق؟ إن زملاء لكم كثيرين رحلوا وراء الحدود؟.

- لا، من أكون أنا وراء الحدود مع أن أشعاري باللغة الأفارية؟ طبعاً، أستطيع أن أعيش من دون الأشعار، لكن كيف أعيش من دون داغستان ومن دون أهلي الداغستانيين؟ ولو نُقل إلى هناك كل شعوب داغستان وقومياته لا أريد أن أترك بلدي على الإطلاق.

إنني كنت دائماً أتمنى شيئاً آخر: أن تذوب الحدود. إن الطيور والرياح والزهور لا تعرف الحدود؛ أما نحن فنخترع هذه الحدود أكثر فأكثر.

ما اتجاهكم نحو المرأة؟

- لقد كنت دائماً أعبّر عنها في أشعاري. يوجد شعراء يكتبون عن

طيور اللقلق

رسول حمزاتوف

ترجمة: أبوبكر يوسف

يبدو لي أحياناً أن الجنود
الذين لم يرجعوا من ميادين القتال
لم يواروا في ثرى البلاد
بل أصبحوا لقالق بيضاء
ومنذ تلك العهود البعيدة
وهم يحلقون صائحين بنا...
أليس ذلك سبب صمتنا وحزننا
عندما نتطلع إلى السماء!
والآن أرى اللقالق البيضاء
تطير فوق أرض غريبة في ضباب الغسق
في نسقها المعهود
كما كانت تمشي على الأرض بشراً
يطير مثلما المكدود في السماء
في ضباب الغروب
وفي هذا النسق ثمة فجوة
ربما كانت مكاناً لي!
سيأتي اليوم الذي أرحل فيه
مع سرب اللقالق في هذا الغسق
وأنادي حزيناً من أعالي السماء
كل من تركتهم ورائي على الأرض

لا أعرف البيروسترويكا، وليس لدي وقت لتأملها وفهمها

الرجال، أما أنا فكتبت عن النساء منذ الطفولة، ولم أخنهن أبداً. إن النساء أمينات ويشعرن بالشعر بالشكل الرقيق، وأعتقد أن للرجل الحق للمحاربة في الحالين فقط: الدفاع عن المرأة الجميلة، والدفاع عن شرف الوطن.

لقد تقابلتم وعرفتم شخصياً عدداً من الشعراء والأدباء و قرأتم مؤلفاتهم. من الذي تعده أكثرهم قيمة؟

ـ إن الكبير تراه من بعيد.. أرى رواية «الدون الهادئ» لميخائيل شولوخوف أكبر رواية في القرن العشرين. وفي اعتقادي أنه من الممكن أن نعد من كبار الأدباء ميخائيل بولغاكوف مؤلف رواية «الأستاذ ومارغريتا» وفاسلي غروسمان مؤلف رواية «الحياة والمصير»، وتشنغيز أيتماتوف. وكان الثاني والثالث ضيفين عليّ في بيتي... نعم، ولو كان في استطاعة الأحجار في بيتي أن تتكلم! كم من الأدباء العظام كانوا يزورونني!! منهم شعراء روس كبار مثل إليكسندر تفاردوفسكي، وبوريس باسترناك ونيكولاي غوميليوف، وسرغي يسينين، وشاعرات مثل مارينا تسفيتايفا، وآنا أخماتوف...

ومن من الأجانب والعرب مثلاً؟

ـ إنني أذكر من بين الشعراء العرب في القرون الوسطى اسم الشاعر العظيم أبي العلاء المعري، أما في عهدنا هذا فكان لي صديق حميم هو معين بسيسو من فلسطين، وقد قرأت روايات الطيب صالح والطاهر وطار. طبعاً قرأت مؤلفاتهم في الترجمات الروسية.. وأذكر صديقة لطيفة من الكويت هي ليلى العثمان تعرفت إليها في عام ١٩٨٩م وسميتها «وزيرة الفرح» بالفعل... لكن حدث هذا قبل حرب الخليج، ولا أعرف أين هم اليوم؟ أصدقائي العرب كثيرون، منذ عهد نشاطات اتحاد كتاب آسيا وإفريقية ومجلة

معين بسيسو

محمد الجواهري

«لوتس» التي كنا نصدرها في القاهرة وبيروت وتونس...

يا رسول حمزاتوفيتش، ماذا يجري بالأدب الآن، بالأدب الروسي المعاصر؟

ـ على الأدب أن يكون مشعلاً، وأن يضيء الزمن، وألا يكون ظله؛ لكن ـ للأسف ـ لا يحدث هذا، حتى انطفأت تلك المشاعل التي كانت تضيء سابقاً. كنا نملك أدباً متعدد الألوان واللغات؛ وفقدناه. والأكثر رعباً لنا أننا فقدنا قارئنا. إن الأغنياء الجدد لا يقرؤون الكتب أما الفقراء فلا يملكون فلوساً ليشتروا بها الكتب. العصا العوجاء ليس بها ظل قائم.

هل تنشر مؤلفاتكم في موسكو بالكثرة نفسها أو بكميات النسخ نفسها مثلما كان في العهد السوفييتي؟

ـ كلا لم تسمح الصحف والمجلات في تلك الفترة أن أمر في الشارع، فكانت تلاحقني باستمرار. لقد كنت شاعراً يعطي لها أرباحاً. أما اليوم فأنا «سابق». لا أريد أن أدق على الأبواب المغلقة. لكن توجد دار نشر أصدرت لي ديوان شعر في السنة الماضية ـ قبل موعد يوبيلي ـ الخامس والسبعين.

كما صدر قرص صوتي لأغانٍ من أشعاري، فالمغنون معروفون في روسيا ـ مسلم ماغومايف من أذربيجان، وأنا حيرمان من بولندا، ويورى أنطونوف الروسي، ويوسف قوبزون...

قد ذكرتم بأن عمركم ـ أكثر من خمس وسبعين سنة... هل هذا كثير لرجل أم قليل؟

ـ لكل واحد حسابه فما يبدو قليلاً لبعض الناس يكون كثيراً لبعضهم الآخر. هذا مثل المال، فمبلغ خمسة وسبعين روبلاً بالنسبة إلى الغني يبدو قليلاً لا يساوي شيئاً. أما بالنسبة إلى الفقير فإنه ثروة كاملة. كما قال إليكسندر بوشكين العظيم بالضبط: «الشعر مزاج» والعمر ودافع الحياة متعلقان بالمزاج.

حينما أكتب وأكتب بسهولة أريد أن أعيش، وحينما لا أستطيع أن أكتب شعراً أفكر وأتأمل: لماذا لا أزال حياً؟ أنا شخصياً أشكر العمر. لم أعمل شيئاً لأطيل حياتي. وأعتقد

هكذا: إذا أمضى إنسان حياته في الكدح فسينقص العمر المعطى له، وإذا كان يعيش بلا فائدة وبلا هدف فستصبح سنوه الطويلة مثل الإفراط في هندسة البناء. يلزمنا ألا نعيش طويلاً، بل نعيش بغنى المضمون. إن الأدباء الكبار كانوا يواجهون مثل هذه المعضلة. إيفان بونين، الأديب الروسي الفائز بجائزة نوبل، كتب: «سابقًا في الماضي كنت أفكر في الحياة السهلة، أما اليوم فأفكر في الموت السهل».

كيف تنام الآن؟ هل ترى أحلامًا؟ ما هي؟

- أنام نومًا رديئًا الآن. أعاني


ميخائيل شولوخوف

الأرق. هكذا كان عنوان أحد دواوين شيخ الشعر العربي محمد مهدي الجواهري الذي عرفتني به.. هل تذكر؟ نعم، آخذ منومات. وأرى أحلامًا مختلفة متناقضة. أحيانًا يزورني فلان بالملابس البيضاء يرسله إليّ أبي أو ترسله أمي فيقول إنّ والدي غير راضيين عني. فأسأله: لماذا؟ أطلب الجواب منه فأستيقظ. وكثيرًا ما يعضني كلب في الحلم. أحلام مختلفة وقصيرة. أرى أحيانًا كيف أقوم بانتصارات لم أقم بها في الواقع أبدًا. ولكن أرى والدي في أغلب الأحوال...

وما أحلامكم في النهار؟ ما أفكاركم؟

- أحلامي طبعًا عن الناس، عن قريتي الجبلية، عن مصير بلدي داغستان. إني أتأمل لماذا ومن أجل أي شيء أستشهد ملايين من الناس في الحرب، وبينهم إخواني؟ من هو المذنب الحقيقي في فوضى الحياة هذه؟ هل هذا درب نختاره ونسير متعبين فيه؟ أم أنهم فرسان بلا رؤوس؟ أبطال رواية أمريكية.. قد أعلن أندرون ميخالكوف - كونتشالوفسكي، وهو مواطن روسي وفي الوقت نفسه مخرج سينمائي أمريكي، أن «الذي لا يحب نفسه لا يستطيع أن يحب الآخرين». أنا غير متفق معه في تصوره هذا. إنني أعتقد أن اهتمام الإنسان بنفسه بحذر ينتهي باستخفافه بالآخرين. وحينما لا تحب الآخرين لن تستطيع أن تحب نفسك.

إننا لا نختار دربًا لأنفسنا. إن الدرب يختارنا. كثيرًا ما أفكر: أليس من الأفضل لو مرت حياة الإنســــان على العكس: من الشيخوخة الحكيمة إلى الفتوة القوية العزم، ومنها إلى الشباب الطري وإلى الطفولة. لا. لا أمزح إطلاقًا. أنا جدي في كلامي. ولكن...

يختم رسول حمزاتوف كلامه.

ماذا أسأله في الختام؟ ما نتيجة حديثنا؟ هل سيكون هناك ديوان شعري جديد له في داغستان أم ديوان بالعربية في بلد ما؟ أم كتاب مذكرات؟

كما قال لي الشيخ رسول في بداية حديثنا: لا توجد للشاعر نتيجة، بل توجد مواصلة...

رسول حمزاتوف في سطور

- ولد في عام ١٩٢٣م في القرية الداغستانية - تسادا.
- والده حمزة تسادا سا - شاعر داغستاني وطني.
- أنهى معهد المعلمين وعمل معلمًا، وممثلاً، ومحررًا صحفيًا.
- نشر أولى قصائده في عام ١٩٣٧م، ثم أصدر مجموعته الشعرية الأولى في عام ١٩٤٣م بعنوان «حبٌ لاهبٌ وحقد متأجج».
- أنهى دراسته في معهد غوركي للآداب في موسكو في عام ١٩٥٠م.
- شغل خلال مدة طويلة منصب نائب داغستان في مجلس السوفييت الأعلى (البرلمان السوفييتي) وكان عضو هيئته العليا، وعضو مجلس التضامن مع بلدان آسيا وإفريقية، ورئيس اتحاد كتاب داغستان.
- حاز على جائزة الدولة السوفييتية في عام ١٩٥٠م، وجائزة لينين في عام ١٩٦٣م، ويحمل لقب «شاعر داغستان الوطني» و«شاعر الاتحاد السوفييتي الوطني» وحامل لقب «بطل العمل الاشتراكي» أكثر من مرة.
- بعد نشر أولى قصائده في عام ١٩٣٧م توالت أعماله: «عام ولادتي»، و«كلمة عن الأخ الأكبر»، و«غنائيات»، و«قصائد وملاحم»، و«جبالنا»، و«وطني الجبلي»، و«ربيع داغستان»، و«قلبي في الجبال»، و«النجمة العالية»، و«النجمة تحكي للنجمة»، و«نجمة داغستان»، و«الساعة الثالثة»، و«سونيتات»، و«أجراس هيروشيما»، و«ديك داغستان»، و«العسل المر»، و«علي يغادر الجبال»، و«أقبل الأيدي الأنثوية»، و«اللقاء الجديد»، و«حافظوا على الأمهات»، و«أرضي»، و«زاريما» وهذا اسم ابنته، و«المرأة الجبلية» - وقد مثلتها المسارح، وأخرجت سينمائيًا - و«أناس البيت الواحد»، و«أقاصيص»، و«عن أساطير وخرافات داغستان»، و«رباعيات»، و«هجائيات»، وكتاب نثر «داغستان بلدي» في ثلاثة أجزاء - ترجم الجزء الأول والثاني إلى العربية، وغيرها كثير.
- كان رسول حمزاتوف حتى التسعينيات رجل النشاط الاجتماعي السوفييتي، وشارك في أعمال اتحاد كتاب آسيا وإفريقية، وترجمت أعماله إلى كثير من اللغات ونشرت بالشكل الخاص في مجلة «لوتس»..

هل للفطام عمر محدد؟

منيرة البياتي
سري - بريطانيا

يتغير طعام الطفل عند الفطام من حليب الأم، أو حليب البقر إلى طعام الأسرة، وتتحول عملية الأكل عنده من الرضاعة البدائية والغريزية Sucking reflex إلى عملية إرادية يديرها الجهاز العصبي الذي يكون قد تطور بشكل كبير. ويتمكن بواسطة حركة لسانه من نقل الطعام من الملعقة إلى مؤخرة فمه ثم ابتلاعه، ويحدث هذا في الشهر الرابع تقريباً، ويبدأ الطفل في قضم الطعام ومضغه عند ظهور أسنانه في الشهر السادس تقريباً.



ينمو الطفل بشكل سريع في سنته الأولى

الغذاء والسعرات الحرارية

يوفر الطعام للطفل الطاقة والسعرات الحرارية الضرورية للأعمال الحيوية وبناء الجسم والنمو والنشاط البدني، ويقاس عدد السعرات بحسب العمر والوزن والجنس؛ فالطفل الحديث الولادة مثلاً يحتاج إلى ١١٠ سعرات حرارية لكل كجم من وزنه، ويتناقص هذا العدد مع تقدم العمر، فيصبح ٣٥ سعرة حرارية لكل كجم عند الإنسان البالغ. ولكي تتوافر السعرات الحرارية الضرورية ينبغي أن يحتوي الطعام على جميع مكونات الغذاء الأساسية، مثل البروتينات التي تمده بـ ١٤٪ من السعرات الحرارية، والكربوهيدرات (النشويات والسكريات) التي تمده بـ ٥٥٪ من السعرات الحرارية، والدهنيات التي تمده بـ ٣٠٪ من السعرات الحرارية، إضافة إلى الفيتامينات التي تساعد على تحرير الطاقة من الطعام، وكذلك المعادن والماء.

ينمو الطفل بشكل سريع في سنته الأولى، ويصبح وزنه نحو ١٠ كجم في نهايتها، أي ما يساوي ثلاثة أضعاف وزن الولادة (ثلاثة كجم) كما يصبح طوله ٧٥ سنتيمتراً بزيادة ٢٥ سنتيمتراً على الطول عند الولادة (٥٠ سنتيمتراً) ومثل هذا النمو السريع لا يحدث إلا عند البلوغ. وتشتد حاجة الطفل إلى الطعام الغني بمادة الحديد، كالخضار واللحوم وصفار البيض وغيرها؛ إذ ينخفض مخزونه في الجسم في نهاية الشهر الثالث، وينفد تماماً عند مطلع الشهر السادس، ويصبح حليب الأم غير كاف لاحتياجات جسم الطفل من الحديد، إذ يدخل الحديد في تركيب هيموجلوبين الدم، وقد يؤدي نقصه إلى فقر الدم (الأنيميا).

عمر الفطام

تؤثر العوامل الاجتماعية والصحية والثقافية عادة في تحديد العمر الذي يفطم فيه الطفل. وتختلف الطرائق المتبعة في الفطام باختلاف العادات والتقاليد، ويتأخر الفطام أو يتعدّم لأسباب دينية أو اجتماعية. وتميل الأم المرضع عادة إلى تأخير الفطام لبعض الوقت لمحاولة عناية إطعام طفلها التي تغمره من خلالها بالعاطفة والحنان، ويكون الأمر معكوساً عند الأم التي ترضع طفلها الحليب المصنع فهي تفضل الفطام المبكر.

وتوصي منظمة الصحة العالمية والضمان الاجتماعي DHSS بالتريث في تحديد عمر الفطام الذي يختلف عادة من طفل إلى آخر. وإذا ما استمر الطفل جائعاً بعد تناوله رضعة جيدة من الحليب أو تمكن خلال اليوم من تناول لتر كامل من الحليب، فإن هذا يعد دليلاً مهماً وضرورياً للبدء في الفطام، وتقديم الأطعمة الأخرى إضافة إلى الحليب. وينبغي في البداية التريث واتباع الفطام على مراحل تدريجية من أجل ألا يتحفز جهاز المناعة ضد الأطعمة الجديدة التي تبدأ الأم بتقديمها إلى طفلها، ويفضل أن تكون كمية الطعام قليلة في البداية، وتأخذ بالارتفاع تدريجياً.

ومن الضروري الاهتمام بفترة الفطام إذ تتكون خلالها عادات الطعام عند الطفل وتستمر معه إلى البلوغ، وإذا قُدم للطفل طعام صحي ومتكامل بمكوناته الأساسية منذ البداية فإن ذلك سيخفض احتمال إصابته بأمراض القلب والشرايين وغيرها في المستقبل.

مراحل الفطام

يتم الفطام خلال ستة أشهر تقريباً، ويتضمن ثلاث مراحل: تبدأ الأولى بين الشهر الرابع والسادس بعد الولادة، وهي تختلف عادة من طفل إلى آخر، إذ تبلغ حاجة الطفل في هذه الفترة ٥٤٥ سعرة حرارية تقريباً في اليوم. ويفضل أن تكون الأطعمة في البداية على شكل سائل، ثم تركّز تدريجياً كالعصائد والحساء (الشوربة) مثل عصيدة الرز المهيأة بحليب الأم، أو حليب البقر أو عصائد الفواكه والخضار التي يجب أن تهرس بعد الطبخ ويمكن تناول عصائد الفواكه بمختلف أنواعها، كالتفاح والكمثرى والخوخ وغيرها، وكذلك الخضار، كالجزر والبطاطا والبازلاء، ولا يفضل الفلفل في هذا العمر. وبسبب كمية الطعام الصغيرة التي يتناولها الطفل في هذه المرحلة فليس لمحتواها الغذائي، من أهمية تذكر، إذ لا تتجاوز وجبته ملعقة صغيرة تزداد تدريجياً لتصبح ملعقتين صغيرتين بعد مرور أسبوعين، وهكذا، تبقى الرضاعة في هذه الفترة مستمرة بالكامل. وتستهوي الطفل تجربة الطعام الجديد، فمذاقه وألوانه تختلف عما اعتاده سابقاً، وقد يحدث أن يرفض الطفل هذا الطعام أحياناً، وينبغي عندئذ تحري الأسباب، وإعادة المحاولة بعد عدة أيام، وإجراء بعض التغييرات في طريقة الطبخ والتهيئة.



عصائد الفواكه مفيدة للطفل

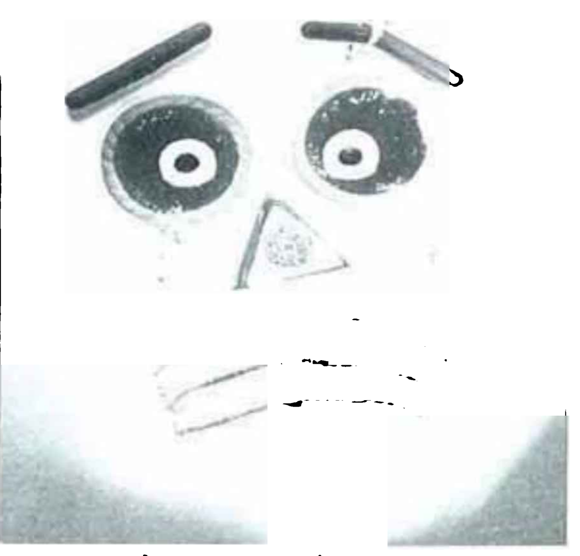
وتبدأ المرحلة الثانية عند الشهر السادس، ويحتاج الطفل فيها إلى ٦٩٠ سعرة حرارية تقريباً في اليوم، ويفضل أن يقدم الطعام على ثلاث وجبات، ويزداد ثخناً من طعام الفترة الأولى، فبدلاً من أن يهرس

تؤثر العوامل الصحية والاجتماعية في تحديد العمر الذي يفطم فيه الطفل، كما تختلف الطرائق المتبعة في الفطام باختلاف العادات والتقاليد

الطعام بالخلاطة كما هو معمول به في المرحلة الأولى عادة، يفرم باليد ناعماً، ويتم تقديمه للطفل بالملعقة. وهكذا يتعلم الطفل تدريجياً تناول المواد الصلبة من الطعام التي تحفز أمعاءه للقيام بوظائفها. وفي نهاية الشهر السادس تزداد كمية الطعام بشكل تدريجي إلى أن تبلغ نصف كوب يومياً. ومن الضروري أن يتنوع الطعام بإضافة اللحوم بأنواعها، كلحوم البقر والضأن والدجاج والأسماك، كما تضاف المعكرونة والسباكتي والكاسترد والجبن الناعم واللبن (الزبادي)، وكذلك مخ البيضة أو ماحها وهو الجزء الأصفر منها، ويترك أحها وهو (البياض) إلى الشهر التاسع. ويقدم عصير الفاكهة الطازج مخففاً مع الماء في البداية ثم يركز تدريجياً ويفضل عصير الجزر والبرتقال والكثرى والمشمش والتفاح، ويتم اختزال عدد الرضعات خلال هذه المرحلة.

وعند المرحلة الثالثة يشارك الطفل في طعام الأسرة، ويأخذ مكانه أول مرة على مائدة الطعام وقد بلغ الشهر الثامن محاولاً أن يمسك قطعة الخبز والبسكويت بين أصابعه؛ وليتعلم المضغ يقطع الطعام له قطعاً صغيرة، وتقدر كمية الحليب التي يحتاج إليها الطفل في هذا العمر بـ ٥٠٠ مليلتر في اليوم، ويستمر هذا المقدار إلى السنة الخامسة من العمر. وتقدر حاجته إلى السعرات الحرارية بـ ٨٢٥ في اليوم.

وعند إتمام الطفل عامه الأول يشجع على استعمال الملعقة والأكل وحده، وينبغي مراقبته خوفاً من الاختناق بالطعام، ويفضل في هذه الفترة الموز والبسكويت والخبز لنعومتها، ويترك التفاح والجزر بعد التأكد من أن الطفل قد تعلم مضغ الطعام الصلب جيداً، ويمنع الطفل في فترة الطفولة عن المكسرات، مثل البندق واللوز والجوز والفول السوداني للسبب نفسه، وكذلك بسبب الحساسية من الطعام، كالتي يسببها الفول السوداني مثلاً، وتصل حاجة الطفل في هذه الفترة من السعرات الحرارية إلى ٩٢٠ سعرة حرارية في اليوم.



لا بد من مراقبة الطفل في أثناء تناوله الطعام خوفاً من الاختناق

في عمر السنتين

تنخفض حاجة الطفل إلى السعرات الحرارية العالية عند إكماله عامه الثاني بسبب انخفاض سرعة نموه، ونتيجة لذلك تنخفض شهيته للطعام، وقد يسبب هذا قلقاً للأسرة؛ إذ لا تجد مسوغاً لسلوكه الرافض، فقد تقوم بإرغامه على الأكل مما يسبب مشكلة لجميع أفراد الأسرة؛ لأن تغيّر شهية الطفل في هذه المرحلة يعد حالة طبيعية، ولا تدعو إلى القلق بتاتاً.

ويتعلم الطفل في هذه المرحلة عادات الطعام، وتفضيل بعضه على بعض، فيرغب في أكلات معينة - كما يفعل الكبار - وينأى عن الأخرى، وينبغي على الأم إعادة تهيئة الطعام الذي يرفضه الطفل بطريقة مختلفة، أو استبدال طعام آخر يحتوي على الخواص الغذائية نفسها به. ويفضل تنوع الطعام في الوجبة الواحدة كأن يحتوي الفطور على

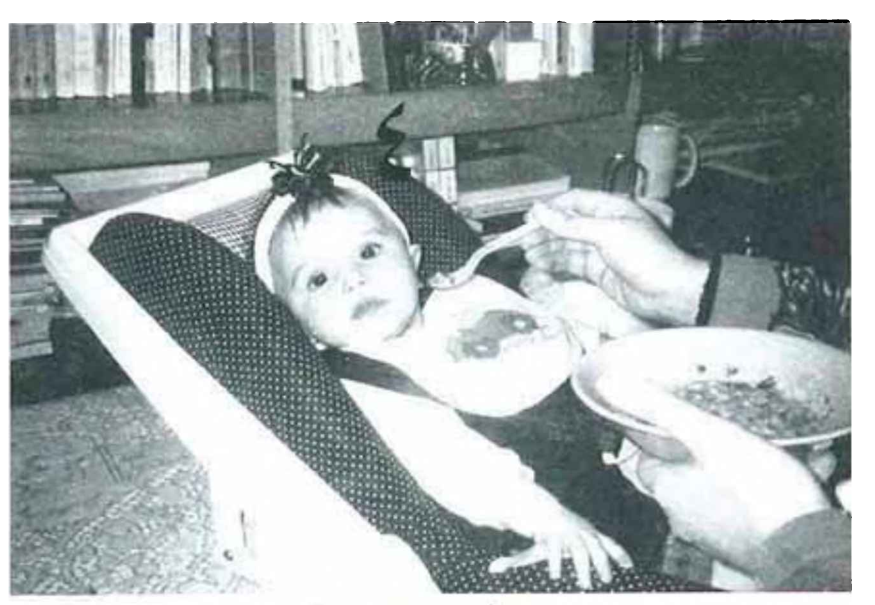
كوب من عصير البرتقال، أو عصير الطماطم مع بيضة وقطعة خبز، أو رقائق القمح أو الذرة (كورن فلكس) بلا سكر، وملعقة صغيرة من الزبد، وكوب من الحليب، وتتضمن وجبة الغداء قطعة من اللحم الخالي من الدهن، ويفضل لحم البقر أو الضأن أو الدجاج أو الأسماك مع بيضة وصحن من السلطة الطازجة وقطعة من الخبز وملعقة صغيرة من الزبد، وقطعة من الفاكهة الطازجة، وكوب من الحليب. ويحتوي العشاء على قطعة من اللحم مع صحن من الخضار وقطعة من الفاكهة وكوب من الحليب.

وينبغي أن يكون الطعام غير لاذع وخاليًا من التوابل والملح والسكر لأجل ألا يتعود الطفل تفضيل الطعام المملح أو المحلى. وللارتواء عند العطش يمكن شرب الماء المبرد بعد الغلي، ويحتاج أطفال المناطق الحارة إلى الماء بكميات أكبر بسبب التعرق.

ويفضل تناول الفيتامينات (D ،C ،A) منذ الشهر الأول من العمر، إلى سن الخامسة، وتؤخذ على شكل قطرات. وتضاف مادة الفلوريت في المناطق التي لا يحتوي ماؤها على هذا المعدن المهم الذي يحافظ على الأسنان من التسوس.

ويفضل الأطفال غالبًا الطعام الحلو المذاق؛ لوجود براعم صغيرة على سطح اللسان تعكس عبر الجهاز العصبي الشعور بالراحة والاستمتاع عند أكله، وكذلك بسبب تعودهم حليب الأم الحلو المذاق. ولكن ينبغي التحذير من الأطعمة الحلوة التي تسبب تسوس الأسنان، ولاسيما مصاصة الحلوى المتنثة بالسكر، التي يستغرق أكلها فترة من الزمن، وكذلك التحذير من الطفل الذي يأخذ قنينة عصير الفاكهة أو الحليب معه إلى السرير The baby bottle syndrome فالحوامض الموجودة في عصير الفاكهة والحليب تسبب تلف الأسنان.

تنخفض حاجة الطفل إلى السعرات الحرارية عند إطلالة عامه الثاني ونتيجة لذلك تنخفض شهيته للطعام



يفضل الأطفال الطعام الحلو المذاق

حساسية الطعام

تتفادى العوائل التي تعاني من أمراض الحساسية تغذية طفلها بالأطعمة المعروفة لديها والمسببة للحساسية، في الأشهر الستة الأولى من العمر. على الرغم من ندرة إصابة الأطفال في هذه المرحلة بأمراض الحساسية من الطعام، إلا أن بعضهم يصاب في الفترة الأولى من العمر بحساسية سكر الأكتوز الموجود في الحليب، سواء أكان حليب الأم أم حليب الأبقار. ويرجع السبب إلى انخفاض إنزيم اللاكتيز Lactase deficiency، الذي يساعد على تحلل سكر اللاكتوز الثنائي إلى سكر أحادي، لكي

يسهل امتصاصه في الأمعاء، أو فقدانه في أمعاء الطفل.

وتكون أعراض هذا النوع من الحساسية بشكل إسهال وهزال، ويعالج باستخدام الحليب الخالي من سكر اللاكتوز. وعند التحول من حليب الأم إلى حليب الأبقار يعاني الطفل من حالة مشابهة سببها

عند ظهور حساسية الطعام عند الطفل يمنع من الأطعمة المعروفة المسببة للحساسية مثل الحليب والبيض والشكولاتة



الخضار والفواكه ضرورية لوقاية الأطفال من السمنة

الحساسية من بعض المواد البروتينية التي توجد في حليب الأبقار فقط Cow's Milk Protein Intolerance وتكون أعراضها ألما في البطن، مع القيء والإسهال وظهور الدم مع البراز، وتتغير الأعراض أحيانا، وتظهر بشكل طفح جلدي (Urticaria) أو رشح أنفي Rhinitis، ويعالج الطفل باستخدام الحليب الخالي من هذا البروتين. وتمنع الأم المرضع من استخدام حليب البقر في غذائها؛ لأن المادة البروتينية الموجودة في هذا الحليب تنفذ إلى الطفل مع حليبها عبر الثدي. وحالة الحساسية الأخرى التي تنقل وراثيا تعرف بحساسية الجلوتين Coeliac Disease Gluten، وهي المادة البروتينية الموجودة في الحنطة والشعير.

وتظهر أعراضها عند أكل الخبز أو البسكويت، ويعاني الطفل من انتفاخ في البطن مع انخفاض الشهية وتأخر النمو وضمور العضلات، وتعالج باستعمال دقيق خال من الجلوتين في صنع الخبز أو الأطعمة التي تحتوي على الدقيق. وفي حالة مشابهة كمرض التليف الكيسي cystic fibrosis الذي تتوارثه العائلة بسبب انخفاض بعض الأنزيمات المساعدة على الهضم في الأمعاء أو فقدانها، وأعراضها الهزال وتأخر النمو والتهابات في الجهاز التنفسي. ومن أمراض الحساسية الأخرى التي يصاب بها الطفل في فترة الفطام هي حساسية الجلد (الأكزما) Eczema وأعراضها الحكة واحمرار الجلد وتقشره، ويمنع الطفل في هذه الحالة من الأطعمة المعروفة المسببة للحساسية مثل الحليب والبيض والشكولاته.

أضرار الفطام المبكر والمتأخر

يصاب الأطفال الآسيويون بخاصة في فترة الفطام بمرض الكساح، أو ليونة العظام Rickets؛ والسبب في ذلك هو تأخر الفطام، أو سوء التغذية. وأعراضه ليونة عظام الساقين واعوجاجها، وللوقاية يوصف فيتامين (د) مع التعرض لأشعة الشمس. وقد يصاب الطفل بالسمنة نتيجة الفطام المبكر، وتقديم كميات كبيرة من الطعام ولاسيما السكر، ولعلاج هذه الحالة تقلل الحلوى، وتزاد الخضار والفاكهة. كما يعاني بعض الأطفال من حالة الإمساك المتأتية من قلة الخضار والفواكه والماء، ويؤدي الإمساك إلى تشقق فتحة الشرج مسببا آلاما شديدة عند التبرز.

ويعد الحليب غذاء مهما، ولا يفضل أن يتناول الطفل الحليب الاعتيادي، أي الذي تتناوله الأسرة إلا بعد السنة الأولى، لأنه لا يمد بالكمية الكافية من الحديد والفيتامينات التي يحتاج إليها الطفل في هذه المرحلة المبكرة من عمره. وينبغي تجنب استخدام الحليب نصف الدسم إلا بعد السنة الثانية من العمر، والحليب الخالي الدسم بعد السنة الخامسة من العمر، وينبغي كذلك تجنب الحمية في مرحلة الطفولة عموما.



أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٢٧٨)

شعبان ١٤٢٠هـ ـ نوفمبر / ديسمبر ١٩٩٩م

الفائز الأول: **خالد أحمد مطبق ـ السعودية.**
الفائز الثاني: **محمد شريف فرحان المحمد ـ سورية.**
الفائز الثالث: **محمد سمير ياسين ـ سورية.**
الفائز الرابع: **مشاعل عبدالكريم صالح السيف ـ السعودية.**

حل مسابقة العدد (٢٧٨)

أبو إسحق الإصطخري جغرافي ورحالة عربي . **دلمون** الاسم القديم للبحرين . **سيمون بوليفار** عسكري ومناضل سياسي فنزويلي.
البيوتان مركب غازي ملتهب يكون في البترول . **السلوقي** كلب صيد منسوب إلى قرية سلوق اليمنية.

مسابقة الشهر (العدد ٢٨١)

ضع علامة ✓ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) ذي عين: ☐ قرية قديمة تتبع «منطقة الباحة» في الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية
☐ أحد الألقاب الشهيرة لزرقاء اليمامة.

(٢) من قائل هذا البيت: يعطيكَ من طرفِ اللسانِ حلاوةً ويروغُ منك كما يروغُ الثعلبُ
☐ صالح بن عبدالقدوس ☐ الحطيئة.

(٣) جون دايفيس: ☐ ملاح إنجليزي اكتشف جزر فوكلاند ☐ كيميائي بريطاني اكتشف عددًا من العناصر الكيميائية.

(٤) البارجيل: ☐ برج التهوية الشائع في الدور الخليجية التقليدية ☐ سناد خشبي أو معدني مثلث الشكل يكون تحت رف.

(٥) من أشهر الأطباء العرب صاحب كتاب «الحاوي» ورسالة «الجدري والحصبة»: ☐ ابن سينا ☐ أبو بكر الرازي.

الاسم: .... ص.ب: ....
العنوان: .... الرمز البريدي: ....
المدينة: .... هاتف: ....
الدولة: .... ناسوخ: ....

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها في فترة لا تتعدى نهاية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملا داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....)

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

الجوائز

الجائزة الأولى:
١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).
الجائزة الثانية:
٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).
الجائزة الثالثة:
٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).
الجائزة الأخيرة:
(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

عنوان المجلة:

ص.ب (٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

ما بعد إكسير إعادة الشيخ إلى الشباب

كتابان يفحصان العُمْرَ والموت من وجهة نظر علمية

جون هورغان
ترجمة: صلاح [illegible]ياوي
ماديسون - الولايات المتحدة الأمريكية

منذ أربع سنوات أبدى هارفي سابولسكي HARVEY SAPOLSKI المختص بالعلم السياسي في الصحيفة TECHNOLOGY REVIEW قلقه على مصير العِلْم الأمريكي فيما بعد العصر السوفييتي قائلاً: «لقد ألغت نهاية الحرب الباردة تسويغا عظيماً للبحث والتنمية الأمريكيين؛ وكي يُبقي العلميون على مستويات اعتماداتهم المالية عالية، فهم بحاجة إلى إيجاد «بُعبع» آخر ليحل محل إمبراطورية الشيطان».

ماذا يرشح سالبوسكي؟ إنه يرشح الفناء أو الموت مشيرا إلى أن أغلب دافعي الضرائب يريدون العيش طويلا، أو حتى إلى الأبد؛ ويزيد على ذلك أن العلميين لن يهزموا الموت مطلقا على نحو مؤكد تقريبا، وهكذا يستطيع العلميون البقاء على لائحة المخصصات، أي الاعتمادات المالية المخصصة للبحث إلى الأبد.

لا شك أن سابولسكي مسرور بنظرته الغريبة هذه، إذ خلال السنوات الكثيرة الماضية هبطت المخصصات الفيدرالية للمستفيد الأول من الحرب الباردة ألا وهو علم الفيزياء، وارتفعت مخصصات البحث الطبي الحيوي ارتفاعا كبيرا؛ وغدت الشيخوخة على نحو خاص أحد المواضيع العلمية الأكثر فتنة وسحرا. ومن الناحية الفعلية يعلن الباحثون كل أسبوع - على ما يبدو - اكتشافا جديدا لجين (مورثة GENE)، أو بروتين، أو شيء ما متعلق بالعمر** وجاء تخمين وسائل الإعلام ليطلق العنان للإعلان عن هذه المكتشفات. وقد يظن المرء أننا على شفا أن نغدو من سلالة أحد أسلاف نوح (عليه السلام) الذي عُمِّر ٩٦٩ سنة.

هل يعود العمر إلى الوراء؟

العيش إلى الأبد

ووجهت مجلة اسكواير ESQUIRE على صفحة الغلاف الأولى في عدد أيار (مايو) المنصرم السؤال التالي:

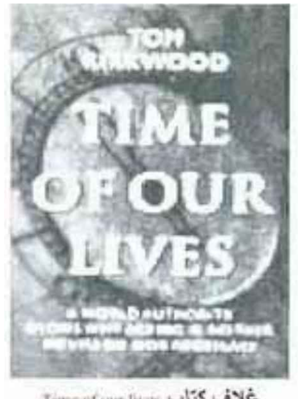
- «هل ترغب في العيش إلى الأبد؟ على الأرجح أنك ترغب في ذلك.. أليس كذلك؟! انظر في الداخل».

إن بإمكان من يرغب في تقويم

أوضح لبحث العمر أن يختار الآن بين كـتـابين راسـخين في العلم حـول الموضـوع (وقد صـدر كـلاهمـا عن الناشر نفسه).

يتناول المؤلفان في كليهما على نحو مثير علم الشيخوخة، غير أنهما يشددان أيضًا على المدى الذي لايزال على "الباحثين" إنجازه لاكتشاف نبع الشباب الحيوي.

ينظر كيركوود بازدراء إلى الأكاسير المضادة للشيخوخة، ويرى بعضها يقصر الحياة ويسبب سرطانات وتأثيرات جانبية



غلاف كتاب Time of our lives
لمؤلفه توم كيركوود


غلاف كتاب [illegible]
لمؤلفه وليام كلارك

إن كـتـــاب TIME OF OUR LIVES «زمان حياتنا» لتوم كيركوود KIRKWOOD المختص البـريطاني البارز في دراسة علم الشيخوخة هو مفعم بالحيوية إلى حد بعيد؛ ذلك أن كيركوود موجه عذب الحديث، يوشي نصه باستعارات مشرقة، ووقائع فكهة هازلة.

يتناول كيركوود حدود مدة حياة الإنسان على الأرض فيحكي قصة «جـان لويز كـالمنت JEANNE LOUISE CALMENT المـرأة الفرنسية التي ما عرف العلم إنسانًا أطول حياة منها. ففي عام ١٩٦٥م عندما كانت في التسعين من العمر عقدت صفقة مع محاميها الذي وافق على أن يدفع لها مرتبًا شهريًا حتى وفاتها مقابل امتلاكه لشقتها بعد موتها، وقد بدت الصفقة للمحامي صفقة تعقدها امرأة تفتقر إلى الذكاء. لكن الأمر كـان على عكس ذلك؛ إذ عـاشت «كـالمنت» ٣٢ سنة أخرى تكدس الدفعات التي تجاوزت قيمة شقتها بكثير، لا بل مات المحامي العاثر الحظ قبلها بسنتين.

نظرية «الجسد النبوذ»

يقول كيركوود: «لا بد يومًا ما تقريبًا أن يحطم رقمها القياسي. ولكن بكم سنة؟» لقد قاده تتبعه لأسئلة كهذا السؤال في السبعينيات إلى اقتراح نظريته التي شاعت؛ إنها نظرية «الجسـد النبـوذ» DISPOSABLE SOMN، ويفسر ذلك بالقول: إن الانتقاء الطبيعي قد ساعد على الحفاظ على الخلايا الجنسية: المبيضات والنطف، غير أن الانتقاء الطبيعي يلقي نظرة أكثر عرضية على خلايانا الجسدية - أجسامنا - التي لا تقوم إلا بحمل الخلايا الجنسية الداسرة إلى أجيالنا المقبلة. لقد صممت أجسامنا كي تعيش حياة تطول بما يكفي لإعادة إنتاج الذرية وضمان بقاء هذه الذرية على قيد الحياة، وبعد ذلك تأخذ بالتهافت تدريجيًا.

يقول كيركوود: «تنبئنا نظرية الجسد النبوذ بأن الشيخوخة لا يحتمل أن تنجم عن آلية وحيدة فقط، لأنها تنطبق على جميع أنظمة صيانة الجسد المختلفة وترميمه على حد سواء».

إنه يرى في السرطان ومرض القلب والتهاب المفصل والعنة وآلام الكهول منتجات ثانوية لوهن واعتلال شديدين في أنظمة الصيانة الخلوية الأساسية للبدن. وهو يوازن بدن الكهل بحانوت إصلاح سيارات يسيره ميكانيك أو تقنيات العمر، ويقول:

- «إن مقدرة هذه التقنيات على مسايرة التيار الثابت لضروب التعطل والحوادث ستضعف ببطء. أما إذا ازداد معدل الحوادث نتيجة لتقدم السائقين في العمر أيضًا، فإن الوضع سيغدو في آخر الأمر وضعًا لا يمكن تشغيله، أو جعله في "الشكل المطلوب"».

وبما أن كيركوود ليس جبريًا، أي لا يؤمن بالقضاء والقدر فهو يقول:

- «إن بإمكاننا العيش حياة أطول، وفي حالات أكثر صحية بأكل الكثير من الخضار والفواكه والأسماك، والقيام بالتمارين الرياضية، والتزاوج، وتجنب اللحم الأحمر، والأغذية الدسمة، والتبغ».

أكاسير تقصر الحياة

ولكنه تنسى الإشارة إلى أن «كالمنت» ظلت تدخن حتى بلغت ١٢٠ عامًا. غير أن كيركوود ينظر شزرًا وبازدراء إلى المزيد من الأكاسير الغريبة المضادة للشيخوخة سواء أكانت

مراهم للتجاعيد التي تحتوي على حمض الرتينونيك RETINOIC ACID، أم زرق خلايا جنين غنمة. إنه يدعوها ونكا - فايتس WONKA - VITES (الفيتامينات المغلوطة أو فيتامينات الاعتلال) مستعيراً ذلك من الحبوب التي تجعل الجدة جوجينا أكثر شباباً في قصة رولد دهل «تشارلي والمصعد الزجاجي العظيم» "CHARLIE AND THE GREAT GLASS ELEVATOR" ROALD DAHL.

يقول كيركوود: «لا شيء من هذه الحبوب يوصل إلى نتيجة، لا بل إن بعضها قد يقصر الحياة مسبباً سرطانات أو تأثيرات جانبية أخرى».

يتحدى كيركوود الاعتقاد الشعبي المتزايد الذي مضمونه أن بإمكاننا إطالة حياتنا على نحو جيد بإشغال أنفسنا بالجينات؛ ويقول: إن شغل أنفسنا هذا لا طائل منه. وهو يخالف في الرأي مختصي الوراثة الذين يصفون تقدماتهم بأنها مبشرة ببلوغ الإنسان ٢٠٠ عام من العمر، أو أولئك الذين يتغاضون عن الصحافيين الذين يلمعون إلى ذلك، وهو يعدهم جديرين بالازدراء. وهو يشير إلى أن المعالجات الجينية قد أخفقت حتى هذه النقطة في مقاومة حتى الأمراض التي يسببها جين طافر وحيد. وسيكون من الأصعب جداً إيجاد معالجات جينية لعلل متعلقة بالعمر تنبع من عدد من العوامل الجينية البيئية المتفاعلة فيما بينها بأساليب معقدة كالسرطان ومرض القلب.

اختلاف في الأسلوب

إن الفرق الواضح بين كتاب كيركوود والكتاب A MEANS TO AN END «وسيلة إلى نهاية» لويليام ر. كلارك WILLIAM R. CLARK هو الاختلاف في الأسلوب. إن كلارك هو أستاذ المناعة المتقاعد في جامعة كاليفورنيا لوس أنجلس، وهو يقدم وقائعه ونظرياته بصراحة نوعاً ما. وتختلف وجهة نظره في العمر عن وجهة نظر كيركوود أيضاً من حيث الأسلوب.

يصور كلارك الشيخوخة على أنها أثر جانبي عاثر الحظ للاستقلاب أو الأيض METABOLISM المعتمد على الأكسجين. فالأكسجين يزوّد الخلايا بمصدر طاقة قوي، غير أنه آني، ومطفر، وأكال، ومتقلب، وبإمكانه إحداث دمار في الدنا DNA، وفي المكونات الخلوية الحيوية الأخرى. وأن الانتقاء الطبيعي يسعفنا بآليات تجعل الضرر من الأكسجين في حده الأدنى، إلا أن جميع هذه الآليات غير كاملة. وهو يحذر من التمرين الرياضي العنيف الذي على الرغم من فوائده الجلية يمكن أن يسرع الشيخوخة بأساليب خبيثة ماكرة من الصعب ملاحظتها؛ وذلك بزيادة استهلاكنا للأكسجين.



يصور كلارك الشيخوخة على أنها أثر جانبي عاثر الحظ للاستقلاب أو الأيض المعتمد على الأكسجين

ويستنتج بحذر أن بعض الأغذية ومتممات الراتب الغذائي المدعوة مضادات أكسدة يمكن أن تنقص من خطر السرطان ومرض القلب وعلل العمر مقاومة ضرر الأكسجين. إن مأخذاً حساساً على ما يدعى تجارب القصر الحراري التي يقوم فيها الباحثون بإنقاص الرواتب الغذائية للفئران ولحيوانات أخرى على نحو حاد، والذين توصلوا إلى زيادة مدة

حياتها بأكثر من ٥٠٪، كما أن بإمكان عدد منا الإفادة من إنقاص مقدار الأكل. يقول كلارك: «من غير المرجح أن يتيح لنا القصر الحراري العيش ١٥٠ سنة، أو يزيد كما يزعم بعض المتحمسين».

ويؤكد كلارك: «يوحي البحث بأن المأخوذ الحراري المفرط يقصر العمر، أما القصر الحراري فلا يمد في طول العمر».

إن لكلارك نظرة أكثر دموية من كيركوود عن أسس الشيخوخة. وعلى الرغم من كل شيء كان

تنبؤات كيركوود وكلارك تفكير تواق مبني على الرغبة لا على الحقيقة والواقع

الباحثون قد اكتشفوا الجينات التي عندما تعالج ببراعة يمكن أن تمد في طول عمر ذباب الفواكه والديدان والكائنات الحية البسيطة الأخرى.

لقد حددت هوية الجينات ذات البنى المماثلة في البشر. زد على ذلك أن أمراض البشر كمتلازمة ورنر WERNER'S SYNDROME التي تحاكي أعراض الشيخوخة يسببها جين طافر فريد. لقد أقنعت هذه الاكتشافات كلارك بأن شيخوخة البشر لا يمكن أن تنشأ من عوامل جينية لا تحصى - كما يعتقد كيركوود - بل من عدد قليل لا يتجاوز سبع جينات. وهكذا فإن كلارك أكثر تفاؤلاً حول توقعات تعزيز طول العمر عبر العلاجات الجينية.

متوسط العمر المتوقع عند الولادة حول العالم (بالسنين)

البلد	الرجال	النساء
سيراليون	٣٧٫٥	٤٠٫٦
اليمن	٤٩٫٩	٥٠٫٤
الاتحاد السوفييتي	٦٠٫٦	٦٢٫٦
إندونيسيا	٦١٫٦	٦٤٫٥
الجزائر	٦٥٫٨	٦٦٫٣
إيران	٦٧٫٠	٦٨٫٠
الولايات المتحدة	٧٢٫٢	٧٨٫٨
ألمانيا	٧٢٫٨	٧٩٫٣
فرنسا	٧٢٫٩	٨١٫٢
المملكة المتحدة	٧٤٫٢	٧٩٫٤

لقد اخترنا هذا الجدول من الجدول الطويل (الصادر عن الأمم المتحدة) الوارد في كتاب كيركوود الذي يضم الكثير من البلدان، والذي لم يورد من البلدان العربية سوى البلدان التي أوردناها هنا.

نحو حياة أطول من حياة السيدة كالمنت

غير أنه يضائل من الفورة حول التلومرات TELOMERES. تقوم التلومرات - التي هي حزم من الدنا تتوج نهايات الصبغيات (الكروموزومات) - على ما يبدو بدور حاسم في الحد من مقدرة الخلايا على التكرار؛ وكلما انقسمت الخلايا غدت التلومرات أقصر طولاً، وفي نهاية الأمر تتوقف الخلايا عن الانقسام جملة بعد نحو خمسين انقساماً احتمالاً.

ويأمل الباحثون في التمكن من الحيلولة دون معاناة التلومرات للقصر، فيمكن بذلك جعل الخلايا الفردية وحتى الكائنات الحية بأكملها خالدة. يشير كلارك إلى مشكلتين:

الأولى: أن جعل الخلايا خالدة يجعلها أيضاً أكثر احتمالاً لأن تغدو سرطانية.

والثانية: تتوقف بعض الخلايا المهمة - كالخلايا الموجودة في أدمغتنا - عن الانقسام قبل سن الرشد بمدة طويلة؛ وهكذا لن يكون للعلاج التلوميري تأثير فيها.

ويثير عدد من المقالات الحديثة حول العمر فينا فكرة أن المعالجة التلومرية والتقدمات المفاجئة في المعارف أو التقنيات الأخرى يمكن أن تجعلنا نعيش مدة أطول من حياة السيدة «كالمنت».

إن هذه التنبؤات ما هي حتى الآن إلا تفكير تواق مبني على الرغبة لا على الحقيقة والواقع. ولكن تذكر أن للموت بطانة فضية - على الأقل عند العلميين - فما دمنا نكبر ونغدو كهولاً ونموت فإن العلم يعيش!

الهوامش

- ترجمة بتصرف لعنوان المقال [illegible] المتضمن في كتاب «زمان حياتنا».
- [illegible]العمر: العيش زماناً طويلاً.

قصة المغناطيس

من الحجر إلى الكهرباء

الشافعي منصور محمد حسن

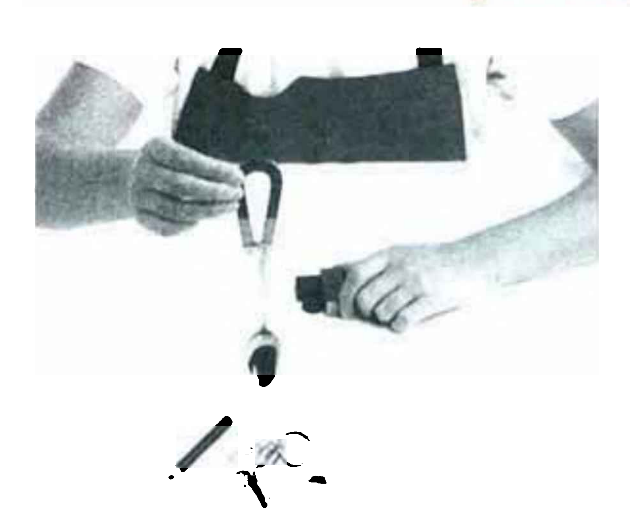
المنصورة - مصر

انظر مرارًا إلى المغناطيس، مم يصنع؟ متى اكتشفت المغناطيسات أول مرة؟ كيف تتحول قطعة من الحديد إلى مغناطيس؟ كيف ترتبط المغناطيسية بالكهربية؟ كيف تكتسب إبرة ممغنطة إحساسًا بالاتجاه الشمالي - الجنوبي؟ وهل الأرض مغناطيس كبير؟ وكيف ترتبط المغناطيسية بالكهربية؟ لقد أعطى العلماء الأجوبة عن هذه الأسئلة، ومع مرور الأيام أوجد العلماء عددًا من الاستخدامات حتى كونت المغناطيسيات أجزاء مهمة من آلات معقدة مثل التليفونات والتلفازات والتلغرافات والمحركات والمولدات الكهربائية، كما استخدمت في تصنيع القطارات والسفن الفائقة السرعة وعدد من الأجهزة الطبية البالغة الحساسية.

لا أحد يعرف كيف اكتشفت المغناطيسية أول مرة؟ لكن قدماء الإغريق قد أدركوها، إذ وجدوا خام حديد مبهم، له خاصية جذب الأجسام الحديدية. يروي الشاعر الإغريقي «لوكريتس» LUCRECE أن هذا المعدن الذي كان معروفًا منذ القدم، وقبل الميلاد بوقت طويل، كان يوجد بكثرة في منطقة «ماجنيزيا» MAGNEISA في مقاطعة ليديا إحدى المقاطعات الصغيرة بآسيا الصغرى، ومن هنا كان اشتقاق اسم المغناطيس MAGNET.

لقد سمى الإغريق القطع الخام التي اكتشفوها حجر «الماجنيت» MAGNETE STONE ثم تطور هذا الاسم إلى «المجنيتايت» MAGNETITE ومازال يعرف به حتى الآن.

لقد اكتشفت بعض خواص المجنيتايت نحو ٦٠٠سنة قبل الميلاد، ومع ذلك فإن الفيزيائيين لم يفهموا سبب سلوك المواد المغناطيسية هذا المسلك إلا في القرن العشرين!



بداية القصة

استطاع بحارة القرن الثاني عشر أن يعرفوا اتجاهاتهم عن طريق الشمس والنجوم، ولكن في الأيام غير الصافية والليالي العاصفة يصبح البحارة في عداد المفقودين. أي اتجاه هو الشمال؟ من يستطيع أن يخبرنا؟ أخيرًا وجد البحارة إجابة، فقد حملوا معهم

إبرة صلبة من الحديد وقطعة من الجنيتايت في كل رحلة. لقد حكوا الإبرة بالمجنيتايت ثم جعلوها تطفو على قطعة من الخشب في طبق من الماء. حيث لاحظوا أن الإبرة تشير دائماً إلى اتجاه الشمال، وبدا المجنيتايت وقد أعطاها إحساساً بالاتجاه، وهكذا تمت صناعة أول بوصلة بدائية.

لقد عرف بحارة القرن الثاني عشر القليل عن المغناطيسية لكنهم رأوا أداتهم تعمل. أشار هؤلاء إلى «بحث» الإبرة عن الاتجاه الشمالي بأنها «قدرة الإبرة والحجر»، يقصدون حجر المجنيتايت، في هذا الوقت سمي المجنيتايت «لودستون» LODSTONE، وهي تعني عندهم «الحجر الموصل» LEADING STONE، أي الذي يوصلهم إلى الطريق عندما يفقدون في البحر.

المغناطيس في التراث العربي الإسلامي

وقد عرف علماء المسلمين الأوائل المغناطيسية وخواصها، يقول العالم العربي أبو الريحان البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠هـ) الموافق (٩٧٣ - ١٠٥٠م) في كتابه «الجماهر في معرفة الجواهر»: «تصنع هياكل المراكب من الخشب وتربط بأحبال من النخيل مع تحاشي دق المسامير، لأن بالخليج توجد صخور مغناطيسية قد تنتزعها من الخشب، لأن المغناطيس ينزع شفرة أو طرف مشرط من الجروح»، كما بين أنه لو احترق حجر المغناطيس فقد خاصيته في الجذب وأنه يوجد بوفرة في بلاد الروم.

يوهان يصنع أول مغناطيس

وفي القرن الثامن عشر استخدمت طرق متنوعة لصناعة مغناطيسات من قضبان الحديد بدلكها بمغناطيسات طبيعية. كان النوع الأول من المغناطيسات المستعملة غالباً على شكل قضبان. وقام يوهان ديتريتش بثني القضيب لتقريب القطبين أحدهما من الآخر فصنع بهذا أول مغناطيس على شكل حدوة الفرس.

لقد ظهرت العلاقة بين الكهربية والمغناطيسية مبكراً في أوائل العشرينيات من القرن التاسع عشر. فبينما كان العالم الدانماركي هانز أورستد يجري تجاربه على الكهرباء - الحديثة الاكتشاف آنذاك، أمام طلاب الجامعة، قام بإحضار سلك يحمل تياراً كهربائياً وقربه من بوصلة، لم يكن يقصد أن يفعل ذلك، ولكن عندما اقترب السلك من البوصلة، لاحظ «أورستد» وطلابه شيئاً مدهشاً؛ لقد تحركت إبرة البوصلة!! هذه الحادثة سميت «بتجربة أورستد» وقد بينت أن سلكاً مستقيماً يحمل تياراً كهربائياً يوجد حوله مجال مغناطيسي. عند هذه اللحظة بدأ العلماء في البحث عن العلاقة بين الكهربية والمغناطيسية. بعد ذلك قام الفيزيائي جيمس كلارك ماكسويل (١٨٣١ - ١٨٧٩م) بوضع أسس العلاقة بين الكهربية والمغناطيسية بإيجاده علم «الكهرومغناطيسية».



اكتشاف المغناطيس الطبيعي



يطلق اسم المغناطيس عادة على الأجسام التي لها خاصية جذب الحديد أو الصلب، مثل هذه الأجسام أيضاً يمكن إعدادها صناعياً. المجنيتايت يعد مثالاً للمغناطيسات الطبيعية، بينما المغناطيس الصناعي عادة ما يصنع من معدن الحديد أو الصلب وقد يحوي بعضاً من الألومنيوم أو الكوبلت أو النيكل.

الخطوط المغناطيسية

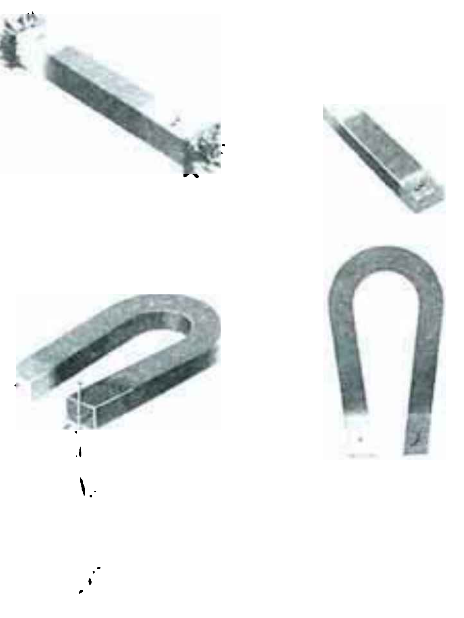
تصنع بعض المغناطيسات من السيراميك المحتوي على أكسيد الحديد، وأيضاً فإن قضيب الحديد الذي يلف حوله سلك يمر فيه تيار كهربائي مستمر يصبح هو الآخر مغناطيساً.

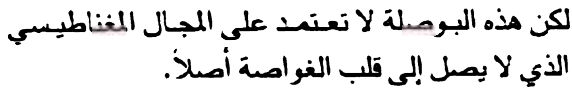
إذا أخذنا بعضاً من برادة الحديد ونثرناها بانتظام حول قضيب مغناطيسي موضوع على سطح مستوٍ، ثم قمنا بطرق هذا السطح طرقاً خفيفاً حتى نسمح للبرادة بحرية الحركة، فإن البرادة تأخذ شكلاً جميلاً على هيئة خطوط تصل بين طرفي المغناطيس بحيث تتركز هذه الخطوط عند نهايتيه. لهذا سميت هاتان النهايتان قطبي المغناطيس، حيث تبدوان كأنهما المساحات التي تشع المغناطيسية. ولو كررنا هذا العمل لأعادت البرادة رسم نفسها في خطوط، ومن هنا فقد افترض فارادي وجود خطوط قوى مغناطيسية تصل بين قطبي المغناطيس وتتركز عند تلك الأقطاب.

من ناحية أخرى إذا قمنا بتعليق قضيب مغناطيسي من منتصفه بحيث يكون حر الحركة لتوجه أحد أقطابه إلى اتجاه الشمال وتوجه القطب الآخر إلى الجنوب. يسمي العلماء القطب الذي يشير إلى الشمال «القطب الباحث عن الشمال» أو «القطب الشمالي» والقطب الآخر الذي يشير إلى الجنوب «القطب الباحث عن الجنوب» أو «القطب الجنوبي».

إن المغناطيس لا يجذب الحديد فقط، بل يجذب إليه بعض المعادن الأخرى لأنها ذات تأثير مغناطيسي ويمكن مغنطتها «تحويلها إلى مغناطيس» بينما لا يمكن مغنطة بعض المواد الأخرى مثل الزجاج والخشب وليس لها تأثير مغناطيسي.

إن المواد التي يمكن مغنطتها تجذب إليها خطوط القوى المغناطيسية ولا تسمح لها أن تعبرها، وتستخدم هذه المواد في حماية الساعات والأجهزة العلمية من المغناطيسية. فظرف «غلاف» الساعة يصنع من الحديد لأنه يقوم بتجميع خطوط القوى المغناطيسية حتى لا تصل إلى الأجزاء المتحركة من الساعة التي يمكن أن يختل توازنها إذا تمت مغنطة هذه الأجزاء. الهيكل الصلب للغواصة أيضاً يقوم بحماية أجزائها الداخلية حتى لا تتداخل المغناطيسية مع الأجهزة والأجزاء التي تعمل داخل الغواصة.





أنواع من المغناطيسات

بينما تمرر المواد الأخرى كالزجاج والبلاستيك والنحاس خطوط القوى المغناطيسية، فغلاف البوصلة يصنع من البرس BRASS وهي سبيكة من النحاس والزنك تقوم بإمرار خطوط القوى المغناطيسية حتى تتأثر إبرة البوصلة بهذه الخطوط وتشير إلى اتجاه الشمال والجنوب. على أية حال، تستخدم الغواصة البوصلة في الملاحة، لكن هذه البوصلة لا تعتمد على المجال المغناطيسي الذي لا يصل إلى قلب الغواصة أصلاً.

لقد استطاع الناس معرفة القليل عن البوصلة في سنوات سابقة حيث استطاعوا ملاحظة كيفية تأرجح مسلتها إلى الاتجاه الشمالي - الجنوبي. لكنهم لم يستطيعوا أن يفسروا لماذا تعمل البوصلة بهذه الطريقة.

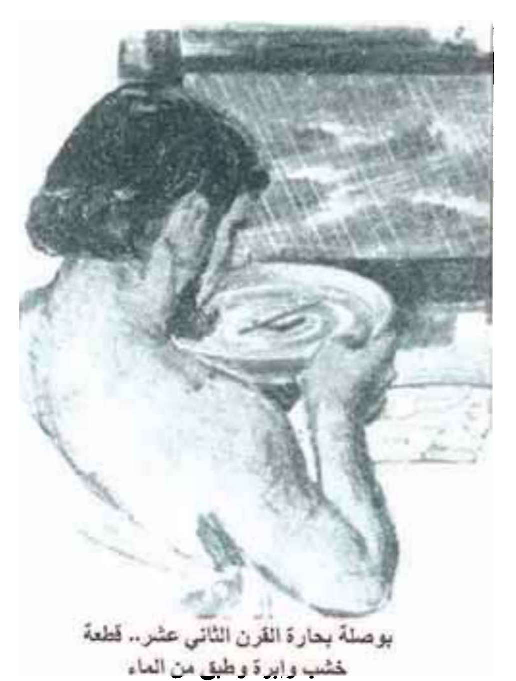
الأرض مغناطيس دائري

في البداية اعتقد عدد من العلماء أن النجم الشمالي يجذب الإبرة، ومع الوقت نبذ العلماء هذه الفكرة. بعد

ذلك قام الإنجليزي وليام جلبرت (١٥٤٠ - ١٦٠٣م) بنشر اكتشافه، فقد اقترح أن كوكب الأرض في حقيقته مغناطيس دائري وبهذا يعد أول من حاول إعطاء تفسير نظامي لظاهرة المغناطيسية الأرضية.

إننا نعيش في المجال المغناطيسي الأرضي، إنه يحيط بنا ونتحرك أيضاً خلاله، لكننا لا نستطيع أن نراه أو نشعر به، إلا أننا ندركه فقط عندما يستقر المغناطيس في الاتجاه نفسه دائماً ما دام أعطيناه حرية الحركة، فالمجال المغناطيسي يعد جزءاً من بيئتنا الأرضية.

إن العلماء لا يتفقون على تفسير وجود المجال الأرضي، شأن عدد من الظواهر الكونية الأخرى. فعندما درس وليام جلبرت مغناطيسية الأرض عام ١٦٠٠م، اعتقد أن الأرض تحتوي على كمية كبيرة من مادة ممغنطة. وربما اعتقد آخرون أن لب الأرض يتكون من الحديد والنيكل، ويمكن أن نستنتج أول وهلة أن جلبرت على صواب. فالحديد والنيكل مواد مغناطيسية قد تكون السبب في منشأ المجال المغناطيسي للأرض.



بوصلة بحارة القرن الثاني عشر.. قطعة خشب وإبرة وطبق من الماء

على أية حال، فإن الحديد يفقد مغناطيسيته عند ١٥٠٠ درجة فهرنهايت. إن لب الأرض يبقى عند درجة حرارة قدرها ٥٠٠٠ درجة فهرنهايت، أيمكن عند مثل هذه الدرجة أن يكون الحديد أو النيكل ممغنطاً؟ إن منشأ المجال المغناطيسي يكمن في لب الأرض، لكن اللب نفسه غير مغناطيسي، فإحدى النظريات تعتقد أن اللب السائلي للأرض له تأثير «المولد الكهربائي»، حيث إنه يدور بالنسبة إلى الغلاف الصخري الصلب للأرض ويعمل كأنه «دينامو»، مولداً تيارات كهربائية تدور داخل الأرض. هذه التيارات الكهربائية تكون مصحوبة بمجالات مغناطيسية لذلك تصبح الأرض مغناطيساً كهربائياً ضخماً يولد مجالات مغناطيسية توجه نحو الاتجاه العام لمحور دوران الأرض، وتتسبب في انحراف إبرة البوصلة في اتجاه محدد لا تتعداه هو اتجاه الشمال والجنوب.

حدد العلماء موقع القطب الشمالي في بواكير الستينيات وكانت النتائج مدهشة، إن القيم التي حصلوا عليها تدل على انحراف في موقع القطب الشمالي موازنة بكل القياسات السابقة!!

اتجاه مغناطيسي وليس جغرافيًا

إن الأقطاب المغناطيسية تبدو كأنها تدور، فالاتجاه الذي تشير إليه البوصلة ليس هو الشمال الجغرافي ولكنه اتجاه الشمال المغناطيسي، حيث إن الشمال المغناطيسي يميل قليلاً نحو الغرب بالنسبة إلى الشمال الجغرافي.

إن الأقطاب المغناطيسية للأرض ليس لها موقع محدد، إنها تنزاح بانتظام. ولكي يبقى الملاحون على دراية من أمرهم؛ فإن الهيئات المعنية تنشر تباعاً مجموعة من الخرائط تمد الملاحين بأشكال الميل المغناطيسي على كل الكرة الأرضية.

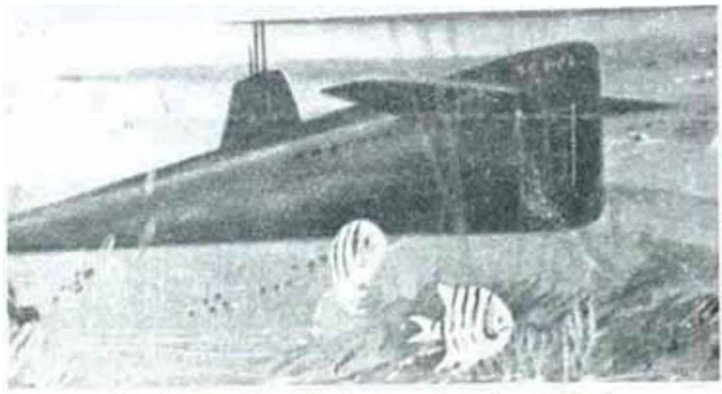
وقد اكتشف العلماء في بداية القرن العشرين مواد تستطيع نقل الكهرباء من دون أي هدر يذكر، لدى تبريدها لدرجة بالغة الانخفاض وأسموها مواد فائقة التوصيل، هذه المواد تتأثر بقوة بالمجال المغناطيسي حيث تبين تنافراً شديداً مع هذا المجال. ولو أن مصدر مجال مغناطيسي وضع بالقرب من مادة فائقة التوصيل، فإن هذه المادة تؤثر في هذا المصدر بقوة محاولة إبعاده عنها. فلو وضعنا مغناطيساً على شكل

قضيب في قاع إناء مصنوع من هذه المادة؛ فإنه يؤثر بقوة في المغناطيس، وتجعله يرتفع عن القاع ويبدو كما لو كان طافيًا ومعلقًا في فضاء الإناء كالقنديل، وتعرف هذه الظاهرة بظاهرة الرفع أو ظاهرة «مسنر» نسبة إلى مكتشفها الألماني عام ١٩٣٣م.

القطار الطائر

وقد استخدم اليابانيون هذه الظاهرة في تصميم قطار طائر، حيث وضعوا ملفات ذات توصيل فائق حول محور ممغنط تحمل فوقه عربات القطار وينتهي بالعجلات، وإذا بردت هذه الملفات تنافرت بقوة مع المجال المغناطيسي لمحور العجلات مما يتسبب في رفع هذه المحاور، ومن ثم العجلات عن القضبان عدة سنتيمترات، وعندئذ يكون القطار عائمًا فوق القضبان ويطوف بسرعة فائقة محمولاً على وسادة مغناطيسية، وبذلك يمكن له أن يسير بسرعات تزيد على ٥٠٠ كم في الساعة، وسرعة كهذه تجعل القطار منافسًا للرحلات الجوية. كما صمم المهندسون اليابانيون أول سفينة في العالم تعتمد على قوة دفع مغناطيسية، حيث يتم توليد تيار كهربائي في ماء البحر يتنافر بقوة مع مجال مغناطيسي فينساب الماء مؤديًا إلى انطلاق السفينة. وتتميز هذه السفينة بسرعتها الفائقة وقدرتها على المناورة.

وقد استخدمت المغناطيسات القوية التي على هيئة ملفات حلزونية على نطاق واسع في مجالات الفيزياء وأبحاثها لبناء المعجلات والمفاعلات النووية وحدوث الانصهار النووي وغيرها، كما استخدمت في مجال الطب في أجهزة التصوير



الهيكل الصلب للغواصة يحمي أجزاءها الداخلية ضد المغناطيسية

الطبي والرنين النووي المغناطيسي وأجهزة التخطيط الدماغي المغناطيسي. وتستخدم المغناطيسات الكهربائية في المصانع لتحريك قطع الحديد من موقع إلى آخر.

إن المغناطيسية لا تعني علم الأجهزة وبوصلتها فقط، فقد شاعت في الأسواق لعبة يابانية؛ وهي «نحلة» تدور معلقة في الهواء على قاعدة مغناطيسية ممغنطة، وعند إدارة النحلة - المغنطة أيضًا - على القاعدة ترتفع ببطء في الهواء طافية على مسافة عدة سنتيمترات وتظل تدور حتى تقل سرعة دورانها فتعود إلى الهبوط ببطء حتى تستقر على القاعدة من جديد. وتعتمد فكرة هذه اللعبة على تثبيت مغناطيسات في قاعدتها حيث تدور النحلة في المجال المغناطيسي للقاعدة الذي يحاول رفعها لأعلى في أثناء دورانها ثم العودة مرة أخرى تحت تأثير وزنها حينما تنخفض سرعة الدوران.

المراجع

1- MAIN REFERENCE: TODAY.S BASIC SCIENCE, NAVARRA AND ZAFFORONI 6, COPYRIGHT 1965, 1963, HARPER & ROW, PUBLISHERS, INCORPORATED.
2- McGRAW - HILL ENCYCLOPEDIA OF SCIENCE AND TECHNOLOGY 8, PHILIPPINES COPYRIGHT, 1960, 1966, 1971, BY MCGRAW - HILL, INC.
٣. تاريخ العلم والتكنولوجيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، «ر.ج فوربس»، «أ.ج ديكستر هوز»، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.
٤. صناع الحضارة العلمية في الإسلام، الجزء الثاني، الكتاب رقم ٨٨، سلسلة العلم والحياة، د.أحمد محمد عوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
٥. كتاب المعرفة، الطبيعة والكيمياء، دار المعارف المصرية، بلا تاريخ.
٦. العربي، العدد ٤٤٩ - إبريل ١٩٩٦م.

البوابة إلى مملكة الظلال

خالص جلبي
بريدة - السعودية

في عام ١٩٢٨م جلس شاب بريطاني خجول المظهر، قليل الاختلاط بالناس، عظيم الشغف بالرياضيات، مولع بالأبحاث الذرية الحديثة التي تفجرت مع مطلع القرن حول البناء الذري، ولكن عشقه انصبَّ بشكل خاص على حركة الإلكترون، حتى وصل إلى صياغة معادلة في غاية الجمال والأناقة، عن حياة الإلكترون الخفية، ولكن المعادلة بثوبها الجميل أظهرت تناقضًا محيِّرًا.

المعادلة تقول: إن الإلكترون ذو وجهين، ويحمل إمكانية شحنتين، كما في الرياضيات، فضرب ٨ بنفسها يعطي حاصل الرقم ٦٤ سواء انطلقت عملية الضرب من ناقص ثمانية، أو ثمانية تحمل علامة زائد (- ٨... + ٨)، فحاصل ضرب +٨ في + ٨ هو ٦٤، وكذلك حاصل ضرب - ٨ في - ٨ هو ٦٤، كذلك كانت معادلة الإلكترون. فهذه النتيجة هزت العالم البريطاني بول ديراك PAUL DIRAC وسببت له ارتباكًا وإزعاجًا وقدرًا من التثبيط والحزن، بعد كل الجهد الذي بذله في أوقيانوس المعادلات، وغوص لجج الرياضيات، واقتحام محيط الأرقام، ليصل متقطع الأنفاس إلى قاع البحر؛ فيخرج الدرة النفيسة والصدفة العجيبة من معادلته الجديدة.

كان العلم في عصر (ديراك) يرى أن المعادلات تصاغ بعد التجارب، وليس العكس. والشيء المثير في رحلة ديراك العقلية، والذي كان يومها لا يتجاوز ٢٦ سنة، أنه قلب الآية، وعكس المنهج، فالتجربة تحدث بعد المعادلة، والرياضيات النظرية المحضة تقود إلى وضع اليد على واقع متقلب ديناميكي لا يرحم.

معادلة بول ديراك تقول: (وجود) عنصر (دون ذري)، توأم للإلكترون، وليس بتوأم، بل هو خلق مشابه له تمامًا في الكتلة، مختلف عنه في الشحنة، في عالم آخر لا نعرفه، ولكن العقل ساق إليه، والرياضيات دلت عليه.

يقول ديراك عن تجربته مع الرياضيات العقلية: إن هذا الجمال في الكون والرياضيات يجعلنا نحدس الحقيقة، ونراها بنوع من الرؤية الخفية الثاقبة، والحدس المتجلي، والرؤية الشمولية (الجشتالت). هذه المعادلة الجميلة متماسكة ومتناسقة ويجب ألا تخطئ؛ ويعني هذا أن هناك بحرًا كاملاً من الوجود المادي الذي نعرفه، وفوق سطحه جزيئات من نوع متناظر، ذي شحنة متقابلة، وعالم موازٍ.

المادة وقرينها

هناك عالمان متناظران، ولكن حرِّم عليهما التلامس والاقتراب أو الاندماج. وسمح لهما فقط بالحب العذري! فإذا كان الإنسان يرى وجهه في المرآة، وظله على الأرض؛ فإن المادة لها هذا الشبيه، ويقابلها في الوجود هذا القرين،

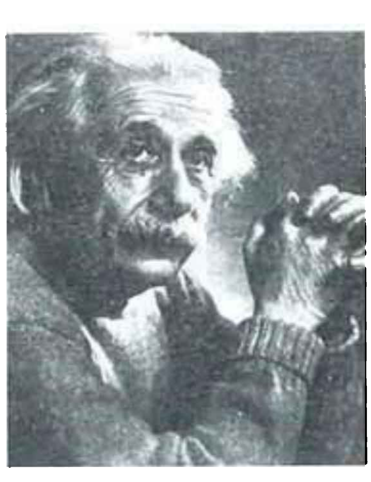
في جدلية عجيبة. ومن كلّ شيءٍ خلقنا زوجين. الذاريات: ٤٩. فالشيء أي المادة لها زوجان، وتظهر في تجليين؛ المادة: MATERIAL ومضاد المادة: ANTI-MATERIAL، فالمادة ومضادها كلاهما مادة، ولكن الكون الذي نعيش فيه يعج بالمادة فقط، ولا وجود لمضاد المادة، هذا الكائن الشبحي القرين.

إن مضاد المادة ليس روحاً ولا ظلاً لا يمكن الإمساك به، ولا فراغاً معنوياً ميتافيزيقياً، بل هو مادة مثل المادة في الأرض من شجر وحجر ومدر، ولكن بشكل متناظر، يرجع فيه التناظر إلى البناء المقلوب للذرة.

فبعد رحلة حزن نفسية عاشها الشاب الفيزيائي صمم ألا يكرر حماقة آينشتاين مع معادلته الكونية، ففي الوقت الذي قادت فيه الرياضيات آينشتاين إلى تصور كون متحرك متمدد، قرر بغلطة اعترف بها لاحقاً أنه ارتكب أعظم حماقة في حياته، عندما قرر إخراس المعادلات الرياضية وإسكاتها، وعدم الإصغاء إلى حديث الأرقام المجرد من العواطف، فأدخل تصوراته الذهنية ورؤى المجتمع وضغط الثقافة على صرامة الرياضيات التي لا تحابي في العادة؛ فحوّرها وبدّل فيها، فأدخل بعنوة بين جدران الرياضيات المتماسكة إسفيناً ضعيفاً من رؤى خاصة حول الوجود، سماه الثابت الكوني.

صائد الظل المقلوب

في النهاية قذفت الرياضيات هذه الكوابح، وجاءت الدلائل من كل جهة عن طبيعة كون عملاق لا تعرف نهايته، في حالة تمدد بدأها قبل ١٢ مليار سنة، وهو يمضي إلى أجل مسمى. جاءت الدلائل من الرياضيات، وعلم الكونيات (الكوسمولوجيا)، وتقنية المراصد (التلسكوبات)، والفيزياء مع فهم ظاهرة الزحزحة الحمراء، بتحليل الطيف اللوني



آينشتاين

للضوء. كان بول ديراك عنيداً أكثر من آينشتاين، فهو لم يستسلم لضغط الآراء السائدة، وأصغى بكل جوارحه للنداء الكوني، وحديث الرياضيات، وحسناً فعل. فإذا كانت المعادلة الرياضية تقول: إن هناك (إلكتروناً) خفياً يحمل (شحنة موجبة) فلابد من البحث عنه في جهات المعمورة الأربع وأقطار السموات. وإذا كان هذا الإلكترون السحري الخفي لا نعرفه، فسوف يطل علينا برأسه ولو بعد حين؛ هذا الحين لم يستغرق أكثر من أربع سنوات، ففي عام ١٩٣٢م استطاع شاب أمريكي فيزيائي طموح هو كارل ديفيد أندرسون CARL DAVID ANDERSON في معهد كاليفورنيا التقاني (التكنولوجي) في باسادينا CALIFORNIA INSTITUTE OF TECHNOLOGY IN PASADENA، وبتقنية خاصة من اصطياد ظل الإلكترون المستخفي بالليل السارب بالنهار. تلقى بعدها ديراك الاعتراف العالمي للتجلي العبقري، وفوقها إكرام جائزة نوبل للفيزياء، كما نال «صائد الظل المقلوب» جائزة نوبل مثله جزاءً وفاقاً، وتم مسح الإلكترون الظل القرين باسم (البوزيترون POSITRON).

قال ديراك في حفلة تسلمه جائزة نوبل في السويد: من يدري لعل هناك عوالم كاملة هي نظيرنا حذو القُذّة بالقذة، في صورة نسخ مختلفة، على شكل مقلوب جداً، فلم تبق المسألة عند الإلكترون الظل.

كان ديراك يعني بكلماته القليلة، أن الأمر لن يتوقف عند الإلكترون الحائر بين السالب والموجب، بل وجود كيان كامل للذرة على صورة معكوسة الشحنة.

فإذا كانت نبوءة ديراك عن شخصية الإلكترون السلبي (البوزيترون) العجيبة المختبئة في تضاعيف الوجود احتاجت إلى أربع سنوات لتحقيقها، فإن شخصية البروتون (سلبية

الشحنة) استغرقت ٢٣ سنة حتى أمكن الاهتداء إليها، وأعلن عنها رسميًا في جامعة كاليفورنيا في بيركلي عام ١٩٥٥م. وهكذا بدأت ملامح صورة العالم الخفي (مضاد المادة) تتكامل، وتسعى إلى الظهور تدريجيًا، بإنتاج مضاد البروتون والبوزيترون لتتم ولادة أول ذرة هيدروجين، أبسط بناء ذري في الوجود، من خلال التحام البروتون (السلبي) مع الإلكترون (الموجب) ولكن الرحلة

مضاد المادة ليس روحًا ولا ظلاً لا يمكن الإمساك به، ولا فراغًا معنويًا ميتافيزيقيًا، بل هو مادة مثل المادة في الأرض من شجر وحجر ومدر

لم تكن بهذه البساطة، ولم تسلم الذرة أسرارها بسهولة، فمازال الطريق طويلاً أمام كلمة السر.

الجن الشارد

كانت المشكلة في التقنية المتطورة، وتطوير أدوات جراحية جبارة تعمل على الجزيئات دون الذرية، للإمساك برقبتها مثل الجن الشارد، وتطويعها في ممرات مغناطيسية، وكبحها بكوابح من حقول كهرطيسية.

في مستوى دون الذرة لا توجد مشارط وعدة تشريح لقطع الذرة، فعمد العلماء إلى ضربها بعضها ببعض لتكسيرها وتشطيرها، واستخراج الجزيئات دون الذرية منها، في مفاعلات تعتمد تسريع الذرة إلى قريب من سرعة الضوء.

كان التحدي في خروج مضاد البروتون، في سخونة مرعبة، وسرعة كلمح البصر، أو هو أقرب، فيحتاج إلى كوابح تقنصه، وتحافظ عليه، فتم اختراع جهاز حصار له سمي بـ LEAR LOW ENERGY ANTIPROTON RING أي حلقة مضاد البروتون المنخفض الطاقة.

تمّ تركيب ما يشبه (مصائد الفئران) لالتقاط البروتون السلبي، وزجه في زواج مع البوزيترون، ويعتمد الترغيب في هذا الاقتران، على توليد الذرية الجديدة. ولكن عشرات السنوات انقضت، ومئات المحاولات بذلت من دون نجاح يذكر في الاحتفال بهذا الزواج الميمون.

كانت الجزيئات تظهر تمنعًا عجيبًا، وزهدًا غامضًا في هذا الزواج، وإعلانًا صارمًا للرهبنة والعزوبة.

وفي الوقت الذي آثر الفيزيائيون طريق الشقاء الطويل الممل لأجهزة تصم الآذان بطنينها المتجدد، كان الأطباء أكثر حظا في الاستفادة من التقنيات الجديدة، فهرعوا إلى (البوزيترون) يستفيدون من أسراره، فأمكن تطويعه في تقنيات متقدمة، للكشف عن وظائف الدماغ، وأورام المخ، والجملة العصبية عمومًا، فمع حقن السكر الذي يحمل ذرة الكربون المشعة، يتعرض (نظير المادة) إلى التحلل وإطلاق (البوزيترون) الإلكترون الموجب، الذي يفاجأ بغريمه وظله المقابل المتربص.

أظهرت الفيزياء النووية حقيقة مروعة عن التقاء المادة ومضادها، في تجلٍ فلسفي عصيّ. إذا اجتمعت المادة وضدها أو جزيئاتها، حصل ارتطام مروع قضى على الاثنين، وأفنى الطرفين باندثار مرعب ومحرقة هائلة، مع انطلاق طاقة خيالية من أشعة جاما في صورة فوتونات طاقة.

قال الأطباء: حسنًا، ربّ ضارة نافعة، هذا التتالي من الانفجارات الصغيرة في الدماغ بارتطام البوزيترون بالإلكترون سيعطينا النبأ اليقين عن أمكنة النشاط في الدماغ، حيث يتم استهلاك أكبر قدر من السكر عند ممارسة الدماغ فعاليات خاصة مثل النطق والتعبير، أو عند تألق الذهن بفيض التأمل ونشاط الكتابة ولحظات الإبداع، أو الانتشاء بالموسيقى، وحضور الذهن بإصغاء السمع. كذلك مادامت الأورام الخبيثة نشيطة خلويًا، يمكن الكشف عنها على هذه الشاكلة، من الحركة والوظيفة لتفجرات البوزيترون المتتالية، فيخرج علينا الورم بتألق ونبض على شكل يوحي بما يحدث فيه،

خلافًا لبقية الأنسجة الهادئة، خارج صخب الخلايا الورمية الخبيثة النشيطة وعنفها.

اعتمد الأطباء جهاز إصدار البوزيترون الماسح الذي يرمز له بـ PET POSITRON EMISSION TOMOGRAM للكشف عن التشكلات المرضية بقصد العلاج للإنسان، ولكن لعاب العسكريين سال إلى شيء مختلف.

بينهما برزخ لا يبغيان

قال العسكريون: هل يشكل ارتطام البوزيترون مع ظله، أو البروتون مع ضده، طاقة يعتد بها، وتصلح للاستخدام العسكري، كسلاح إستراتيجي حاسم؟

إن ما عرف عن قوة الانفجار بين المادة وضدها شيء هائل يفوق كل خيال، فلمسة رأس سكين لنظيره من مضاد المادة تفجر حريقًا من حجم مئة قنبلة هيدروجينية، تمسح مدنًا عامرة بملايين السكان، وهو لحسن الحظ غير موجود، فبين العالمين المادة ومضادها برزخ لا يبغيان.

يروي لنا صاحب كتاب «سجناء العالم الذري» أن الروس عندما اجتاحوا بعض معسكرات الاعتقال بعد اجتياح الرايخ الثالث وسقوط ألمانيا عام ١٩٤٥م، عثروا على عالم فيزيائي مهووس بالرياضيات كان يحسب كمية الطاقة التي تكفي لنقل الكرة الأرضية من مدارها عبر الملكوت، حين نفاد طاقة الشمس، لنقلها لمدار شمس صالحة لمد الأرض بالطاقة والدفء والنور. المشكلة كانت في العثور على طاقة كافية لرحلة من هذا الحجم!

نعرف اليوم أن أجزاء من الجرام (٠.١٤٧)ج من مضاد البروتون تكفي لحمل مركبة فضائية إلى المريخ من دون توقف. وبضعة كيلوجرامات من هذه المادة السحرية تكفي لمد الطاقة على ظهر الأرض عبر القرون!!

بدأت ملامح صورة العالم الخفي (مضاد المادة) تتكامل وتسعى إلى الظهور تدريجيًا، بإنتاج مضاد البروتون والبوزيترون لتتم ولادة أول ذرة هيدروجين

حاول العسكريون وضع يدهم على هذا السلاح المثير الفريد، ولكن تبين أن إنتاج بضعة ملجرامات من هذه المادة السحرية يحتاج إلى كل مخابر العالم المتقدمة من مستوى (فيرمي لاب FERMILAB في واشنطن، وسيرن CERN في أوربا) تعمل ليل نهار ولمدة ١٥٠ مليون سنة! هذا على الأقل حسب المستوى العلمي السائد حاليًا: *لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون*. الأنعام:٦٧.

صينية المقلاة

ويبقى السؤال عن بداية خلق مضاد المادة وأماكن وجودها؟

تذهب نظرية الانفجار العظيم التي ترى أن الكون بدأ من لحظة رياضية منفردة، حيث تنهار كل قوانين الفيزياء، وينعدم الزمان والمكان، وتختفي القوانين، ولا أثر للمادة أو الطاقة. كل الكون كان مضغوطًا في حيز أقل من بروتون واحد، ثم انفجر في أقل من سكستليون من الثانية (عشرة مرفوعة إلى قوة ٣٦) فبدأ المكان في التشكل، والزمان في الحركة، والقوانين في العمل، والمادة في الظهور، والطاقة في التألق.

عندما تشكلت وحدات الكون الأولى كانت من نوعي المادة ومضادها، ولكن التقاءهما كان يعني الفناء المتبادل، الذي ترك أثره حتى اليوم، فيما يعرف بالإشعاع الأساسي، الذي كشف عنه عام ١٩٦٥م كل من آرنو بنزياس وروبرت ويلسون ARNO PENZIAS & ROBERT WILSON، ونالا على ذلك جائزة نوبل في الفيزياء.

ويبدو أن جزءًا ضئيلاً من المادة قد كتب له النجاة من هذه المحرقة الكبرى، فشكل كوننا الحالي الذي ننتسب إليه، ويميل بعض العلماء، كما هو في نظرية العالم السويدي هانيس الفين HANNES ALVEN الفائز بجائزة نوبل، إلى نظرية (صينية المقلاة) حيث يرى أن إلقاء قطرة ماء على سطح الصينية لا يجعل القطرة تتبخر فورًا بل تتعرض للاهتزاز والتراقص

بسبب تشكل سطح حام لها عن السطح الساخن قبل تأثرها بالحرارة، وتبخرها النهائي. هذا الحاجز هو الذي يقي عالمنا من عالم مضاد المادة. هذا على الأقل ما يطرحه العلم ولكن المفاجآت أكبر من الخيال.

كون متعدد

ويرى بعض الفيزيائيين أن كوننا المتمدد ليس كل الكون، فكما يلعب الطفل بنفث فقاعات الصابون، فتخرج بالونات وفقاعات مختلفة سابحة في الأفق تتصاعد إلى السماء قبل أن تنفجر، فهناك عوالم أخرى لا يعلمها إلا هو، ومنها عالم مضاد المادة، وهي النظرية التي ترى أن الكون متعدد POLYVERSUM، وليس وحيداً UNIVERSUM.

فهل هناك مجموعة شمسية نظيرة مجموعتنا، وأرض تشابه كرتنا، وبشر يقابلوننا في الأشكال في تلك العوالم المخفية، مثل عالم الجن الواعي المغيب عنا؟

البعد الفلسفي في رؤية الكون من هذا النوع، أن الوجود أعقد مما نتصور، وأبعد عن إحاطتنا العقلية، وأدعى للتحدي لفهمه، وأقرب رحماً كذلك.

فمهما يكن من أمر فإن عالماً جريئاً هو فالتر أوليرت WALTER OELERT في معهد سيرن للفيزياء النووية في جنيف، أسعفه الحظ، والتقنيات المتفوقة، والطموح الجريء، والصبر والعناد في البحث، وتخصيص الأموال اللازمة، أن يصل إلى تركيب أول ذرة هيدرجين من عالم مضاد المادة عام ١٩٩٦م. فهو لم يرها مباشرة، وإنما مرت كالشبح الهارب، واللص المحترف، فأمكن ضبط آثارها، التي لم تزد على عشرين جزءاً من المليار من الثانية الواحدة!

فبشائر التقدم العلمي كلها باتجاه تحطيم الجغرافيا، وزحف عارم للإنترنيت، وتجاوز العنصرية والدولة القطرية، ودخول الإنسان أفق العالمية والثقافة المشتركة.

تم تركيب ما يشبه (مصائد الفئران) لالتقاط البروتون السلبي، وزجه في زواج مع البوزيترون، ويعتمد الترغيب في هذا الاقتران على توليد الذرية الجديدة

المراجع والهوامش

١. مجلة دير شبيجل الألمانية DER SPIEGEL العدد ٣. عام ١٩٩٦م. ص١٦٦. وفي هذا العدد تم الإعلان للمرة الأولى عن نجاح العالم فالتر اوليرت ٥٣ WALTER OELERT عن تصنيع أول ذرة هيدروجين معكوسة الشحنة في معهد سيرن CERN في سويسرا للفيزياء النووية من خلال النفق المسرع تحت الأرض.

٢. يراجع ايضا مجلة «صورة العلم BILD DER WISSENSCHAFT» الألمانية، العدد ٦، عام ١٩٩٤م ص ٨٤ ـ ٩٥. والمقالة بعنوان «الصعود إلى العالم المضاد» EINSTIEG IN DIE ANTIWELT بقلم جريجور هينجر GREGOR HENGER، وكيف استطاعوا الإمساك بالبروتون عند الدرجة ٢٦٩ تحت الصفر ما يقترب من درجة الصفر المطلق. وتعليق البروفسور رورولف كيبنهان RUDOLF KIPPENHAHN العالم الفلكي بتعبير لطيف عن الحظر عن التقاء المادة ونظيرها بما يشبه الحب الأفلاطوني (الحب العذري) من دون اندماج. كذلك كيف تم اكتشاف ما عرف بذرة الذهب الجديدة عن الكوارك الأخير في المجموعة الكاملة للكواركات المكونة للبروتون بواسطة ٤٤٠ باحثاً باسم المتحدث العلمي ويليام كاربنرز WILLIAM CARITHERS من مركز فيرمي لاب FERMI LAB في شيكاغو في ٢٦ أبريل ١٩٩٤م.

٣. كذلك نقرأ في العدد نفسه مقالة بعنوان «مقبرة المليارات» عن توقف امريكا عن بناء مشروع المسرع العملاق الذي كان مرشحاً أن يكون الأعظم في العالم بطول ٨٧كم في نفق تحت الأرض في صحراء تكساس قريباً من قرية واكسا هاشي WAXAHACHIE مزود بعشرة آلاف عدسة مغناطيسية. تشحن السيالة البروتون بما يزيد على ٢٠ تيرا إلكترون فولت ما يزيد على ١٣٠ ألف حقل مغناطيسي أرضي. وكان سيحمل لقب المحطم الأعظم SSC SUPERCONDUCTING SUPERCOLLIDOR ولكن قفز رقم الكلفة إلى ما فوق ١١ مليار دولار أجبر امريكا على التريث. على الرغم من تصريحات ريجان بقوله:في عالم يتربع فيه العلم على العرش يجب أن يعتلي التاج هامات الأمريكيين.

٤. يراجع أيضاً في علاقة الجمال بالمعادلات الرياضية كمشعر لصحة كتاب «العلم في منظوره الجديد» تأليف كل من روبرت أجروس وجورج ستانسيو. سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت رقم ١٣٤، فصل الجمال. ص ٤٥.

٥. في غلطة أينشتاين عن الكون الجامد الأستاتيك يراجع عدد الكون من مجلة اليونسكو شهر سبتمبر / ايلول لعام ١٩٨٥م.

٦. كتاب «سجناء العالم الذري» الذي نسب الى «ارفين أوبنهايمر» ترجمة شخاشيرو ذكرت فيه معلومات مثيرة عن تركيب الألمان أول سلاح ذري لم يتمكنوا من استخدامه. وإنما كان غنائم حرب لأمريكا. ولكن تبين لاحقاً أن هذه المعلومات غير صحيحة وأن مشروع مانهاتن في لوس آلاموس هو الذي أفضى إلى تركيب السلاح النووي بشقيه من اليورانيوم ٢٣٥ و ٢٣٩ ـ عرف بالبلوتونيوم مشتقاً من الكوكب التاسع بلوتو.

٧. يمكن مراجعة كتاب «التطور الموجه» للدكتور هاني رزق عن نظرية الانفجار العظيم. وكذلك كتاب «الثورات العلمية في القرن العشرين» لانطوان بطرس. وكذلك «العلم في منظوره الجديد» بحث: الله. وكذلك بحثي في مجلة العاقلة عنها عام ١٩٩٥م. وكذلك بحث ستيفن هوكنج في كتابه: «قصة قصيرة للزمن».

٨. فيما يتعلق بالكون المتعدد العوالم يمكن مراجعة العدد المثير الذي كتبته مجلة دير شبيجل في نهاية عام ١٩٩٨م عن المصالحة التاريخية بين العلم والدين. عدد ٥٢/٩٨.

من تراتيل المجنون

ميلود لَقاح
وجدة - المغرب

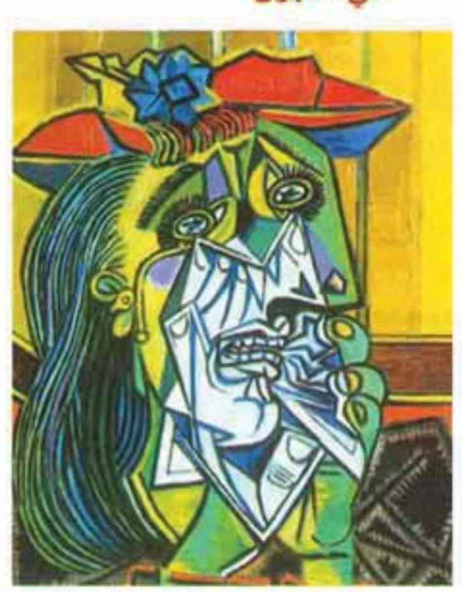


عن أناملِها
سأهيئُ للطيرِ ترتيلةً
وأهيئُ من شغفِي
بالزّهورِ التي سرقتْ
وجهَها
لحظةَ البوحِ
في غفلةٍ
زورقًا لا محالةَ
يفضي إلى ردهاتِ
الجنونْ
كلّما لاحَ في مهمهٍ
الروحِ بيرقُها
صحتِ بي:
لحظةَ أتأمّلُ
ما شاءتِ الكلماتُ
الجميلةُ في داخلي
الآنَ أنْ تنسَجَهْ
لحظةَ أصطفي
من شروديَ لي وطنًا
يستريحُ به القلبُ
إنَّ التي
أشعلتْ في دمي
- عَنْوةً -
سحرَ زينةِ أقمارِها
إذْ تهلُّ تُسلمني
لطقوسِ البنفسجِ والأقحوانِ
وتمنحُ قلبيَ
شتلةَ حلْمٍ
وشبّاكَ عينيَّ
دوحًا من الأمنياتْ

لا تُضيء

عبدالله سعد اللحيدان
الرياض - السعودية

لا تُضيءُ المدارْ
مواويلِهم
لا تَلطفُ جوَّ الحنينِ
ولايرصدونْ
فلكَ الشّوقِ في دورةِ الطيّبينْ
يعزفونْ
على وترِ الساهرينْ
كذبةً يستجيرِ بترديدها الجالسونْ
حول (بستِ) حزينْ
من حرائقِ آهاتِها
حين يستهترِ العابثونْ
بالمساكينِ
من أولَ الليلِ
حتى أواخرِهِ
الغارقونْ
في المجونْ

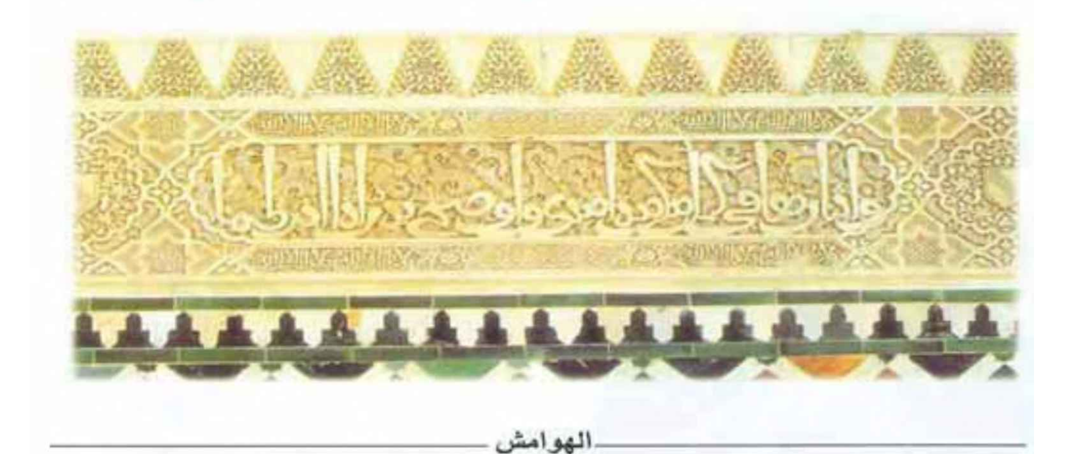




عبداللطيف عبدالحليم (أبو همام)

القاهرة ـ مصر

علوتَ خيلَ الرياح مُسرجةً، ولم تُطقْ أن تُهادنَ الذُّلا
سلاحكَ اليأسُ، والمماتُ، وأن تحتقرَ وجهَ الحياةِ مُعتلا
وأن ترى العاقلين قومكَ قدْ عنَوْا رقابًا، وآثروا العقلا
واستسلموا ناعمينَ للأسفِ الدامعِ، يرضَوْن طيفَه خلا
وخاصموا في «المنصور»(١) نخوتَه، وصادفوا من «شنجول»(٢) ماسلى
طلعتَ يا «ابنَ الغسانِ»(٣)، يقطرُ من وجهكَ ماءُ الحياةِ منْهَلا
أسطورةً ترفضُ الحقيقةَ، إن كانتْ عدوًا، مُخامرًا ختْلا
وترفضُ العقلَ ترتئيه ردًى، وتؤثرُ الأريحيَّةَ المُثلى
مُختفرًا في القفارِ أوديةً، وزارعًا في هجيرِها ظِلا
تروحُ للموتِ، للحياةِ، تلاقيك حشودٌ، فتُغمِلُ النَّصْلا
وأنتَ بين الظلامِ وحدكَ والجوادُ، تُردي غرورَهم قتْلا
حتى يخرَّ الجوادُ، يحتضنُ النهرُ شعاعًا، في موجِه ولَّى
تغيبُ بين الآفاقِ تسكبُ كالنهرِ حياةً، وتنتهي وبَلا
أسطورةً لاتزالُ في شفقِ «الحمراءِ»، حزنًا كالنَّصْلِ مُنْسلا؟



الهوامش

١. المنصور هو المنصور بن أبي عامر رأس الدولة العامرية.
٢. شنجول ولد المنصور. لم يسر على خطا أبيه. حيث كان الابن ذليلا مخذولا.
٣. ابن الغسان هو موسى بن أبي الغسان. بطل غ ناطي. اختلط تاريخه بالأسطورة اختلاطا شديدا. رفض تسليم غرناطة. وقاتل حتى قتل. ولم يعثر الا على جواده مقتولا.

الموثر

حمدي البطران

المنيا ـ مصر

تعودت أن أراه كل يوم. كان يقف متكئا على عصاه، يرتدي ملابس ممزقة، لحيته طويلة وقذرة ووجه عابس كأنه خرج لتوه من قبر. وكان يمد يده للمارة من دون أن يتحرك وكأنه أعمى.. وكنت أضع في يده قطعة النقود من مصروفي من دون أن أنظر إليه، ومن غير أن يشعر فتزداد حركة عينيه. ويدس يده في جيب سرواله وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، وعندما أستدير أسمعه وهو يردد كلمات التسول يستدر بها عطف المحسنين.

وكنت دائمة الحرص على إعطائه النقود كل صباح عند ذهابي إلى المدرسة.

ظل الرجل على هذا الحال أعواماً طويلة. ملابسه لم تتغير، ومكانه لم يتغير، وأصبحت لحيته كلها بيضاء، وامتد إليها البوار وامتلأ وجهه بالتجاعيد.

كنت لا أعرف اسمه، ولا أتذكره إلا في الصباح كأنه نبت في هذا المكان منذ زمن طويل. وكنت أعطيه ما معي من النقود.

وأنهيت تعليمي كله، وأصبحت طبيبة في المستشفى القريب من البيت. وكان من شأني الكشف على المرضى عند دخولهم المستشفى في الاستقبال وأقوم بتحويلهم إلى الأقسام الأخرى.

وتعرفت إلى زميلي طارق وجاءت والدته تخطبني. وأخبرتنا أن والده توفي منذ زمن بعيد وكان طارق لا يزال طفلاً..

ولم أنقطع عن إعطاء الرجل النقود!.

جاءني هذا الرجل بعصاه. وكانت يده لا تزال ممدودة، كأنه يطلب الصدقة واعتقدت أنه قرر نقل نشاطه بدلاً من وقوفه المستديم على ناصية الشارع إلى المستشفى يتسول به. ولكنه طلب توقيع الكشف الطبي عليه. ولأول مرة اكتشفت أنه يرى بعينيه وكنت أظن أنه أعمى.



سألته عن اسمه لأكتبه أمامي في الدفتر.

عندما نطق اسمه لم أصدقه!.

نهضت واقفة، وقلت:

ـ غير معقول..؟

وسألته بصوت منخفض أن يعيد الاسم.

وأعاد الاسم نفسه.

كان يتشابه مع اسم والد خطيبي طارق. وكأنه الاسم نفسه، وفي نهايته لقب يعرف به طارق.

وشعرت بدوار شديد لاحظته الموظفة التي تكتب الأسماء. وكان الرجل لا يزال يرقبني بذهول.

وعندما أفقت وجدته يتطلع نحوي مندهشاً..

سألته:

ـ أعندك أولاد؟

أجاب بانكسار:

ـ ابني طارق. مات من سنتين. كان طبيبا..

وقررت أن أنهي خطوبتي من طارق.

ذو الوجه المستطيل

خالد حداد
حمص ـ سورية

كان الأمر الغريب الوحيد الذي رأيته في حلمي تلك الليلة، هو ذلك الرجل النحيل بوجهه المستطيل، الذي يشبه في استطالته وجوه لوحات موديلياني. لم يكن الحلم مزعجاً كثيراً بحد ذاته، لكن الابتسامة الحادة التي ارتسمت على الوجه المستطيل، بشاربيه الرفيعين الطويلين المتهدلين، أثارت لديّ كثيراً من الاستغراب والنفور والتوجس. فقد احتوت ابتسامته مزيجاً من التربص والسخرية واللؤم. كان واضحاً أن ابتسامته تلك مسددة نحوي وحدي، أما بقية الحاضرين فلم يبد مكترثاً بهم، أو شاعراً بوجودهم.

استيقظت صباح اليوم التالي، وقد نسيت أحداث الحلم كلها، باستثناء صورة صاحب الابتسامة التي ظلت ملتصقة بذاكرتي. كان وجهه المستطيل، وشارباه الرفيعان الطويلان المتهدلان، وابتسامته الحادة المتربصة الساخرة اللئيمة تلوح في مخيلتي بوضوح يمكنني من رسم صورة الوجه بأدق تفاصيله.

حاولت أن أضحك من نفسي، وأنا أرتدي ثيابي، كي أمسح ما خلفته تلك الصورة في قلبي من إحساس بالقلق. وخرجت الضحكة من شفتي مهزولة جافة مفتعلة، بينما ظل قلبي منقبضاً قلقاً مترقباً.

خلال المسافة التي تفصل منزلي عن مكان عملي تعمدت أن أركز نظري، وعقلي من ورائه، في وجوه الناس الذين يتتابعون أمامي، لعل صورة وجوههم تتراكم في طبقة ثخينة داخل ذاكرتي، وتخفي صورة الوجه المستطيل، لكن صورة تلك الوجوه كانت تدخل مخيلتي، وفي لحظة تفقد ملامحها، وتتحول إلى رقاقة شفافة، تزيد في وضوح الوجه المستطيل، بشاربيه المتهدلين، وابتسامته الحادة.

دخلت المصعد مع الداخلين، وانزويت في ركنه، مثبتاً عيني على الأرقام الضوئية بجانب الباب، بانتظار وصولي إلى الطابق العاشر حيث مكان عملي. عند الطابق الثالث شعرت بقوة خفية غامضة تحول نظري عن أرقام المصعد نحو رجل واقف بجانبي. وتضاعفت دقات قلبي، وهبطت ارتجافة باردة منه إلى ركبتي. كان ذلك رجل الحلم نفسه، صاحب الوجه المستطيل، ذا الشاربين الرفيعين الطويلين المتهدلين، وعلى شفتيه ارتسمت تلك الابتسامة الحادة المتربصة الساخرة اللئيمة نفسها. كانت عيناه تحدقان في عيني، بتفحص مدقق ثابت.

توقف المصعد في الطابق السابع، وخرج منه ذو الوجه المستطيل. كانت مقدرتي على التفكير والمحاكمة قد تعطلت عن العمل منذ الطابق الثالث، شعرت لدى خروجه بومضة من الارتياح، وتباطأت نبضات قلبي، وخفت رعشات ركبتي، لكنني عجزت عن استخدام عقلي، في محاولة لتبرير ما رأيت، أو تحليله، أو ربطه بالمنطق والواقع.

دخلت مكتبي، وجلست إلى طاولتي، لكن تفكيري كان محلقاً بعيداً عني، بين الطابقين الثالث والسابع داخل المصعد. كان قد انفصل عني في ذلك المكان، رافضاً الخروج معي في الطابق العاشر. فقد عودته منذ سنين على ربط الأمور بمعادلة صحيحة لا تحتمل الخطأ، والآن قد اختل توازن معادلته تلك، ولم يعد قادراً على الالتحام معي قبل التوصل إلى حل يعيد إليه صفاءه واسترخاءه.

انقضت ساعات الدوام الرسمي من دون أن أنجز شيئاً من عملي. وخلال هبوطي داخل المصعد حاولت إجراء مصالحة شكلية مؤقتة مع تفكيري، وأقنعته بعد جهد بالانضمام إلى صفي كي نتعاون معاً لمواجهة هذا الدخيل الطارئ الذي تسلل بيننا.

تمكنت تدريجياً من إعادة بعض الهدوء والارتياح إلى

عقلي، لكن جسدي كان متعباً، وقدمي في حالة من الإرهاق تمنعني من مواصلة السير إلى منزلي. أشرت إلى سيارة أجرة عابرة، وصعدت بجانب السائق، وهمست إليه بعنوان المنزل، وعيناي شاردتان في زحام ساعة الظهيرة، وعقلي تتناوبه لحظات من الكبت ومحاولة التمرد والانفلات. توقفت السيارة أمام البناء الكبير الذي أسكن إحدى شققه، ومددت يدي بالنقود إلى السائق، لكنها جمدت وكاد قلبي يجمد معها، وأنا أنظر إلى السائق ذي الوجه المستطيل بشاربيه الرفيعين الطويلين المتهدلين، وابتسامته الحادة المتربصة الساخرة اللئيمة.

فتحت باب منزلي ودخلت. كنت بحاجة إلى الارتماء على أقرب مقعد لأريح جسدي، وأحاول من خلاله إراحة ذهني المجهد. مضت ساعة أو أكثر، وأنا أفرض على جسدي استرخاء قسرياً، فيقاومني بالتوتر اللاإرادي. كان الأمر قد تعدى مرحلة الصدفة وبدأ يدخل طور الإنذار الجدي المبهم. نهضت ودخلت غرفة النوم كي أبدل ثيابي، فتحت باب الخزانة، ومددت يدي أعلق سترتي، كنت أتحرك تلقائياً بالعادة والتكرار، ابتعدت عن الخزانة، واتجهت نحو السرير. ولحظة استلقائي دهمتني إغفاءة قصيرة متقطعة قلقة، أشبه بالغيبوبة أو الذهول.

استيقظت من إغفاءتي منهك الجسد والعقل، وتذكرت أنني على موعد مع صديق في المساء، قررت الاعتذار منه، وارتديت ثيابي، ونزلت إلى غرفة الهاتف العمومي القريبة. وقفت خارجها بانتظار انتهاء شاغلها، وبعد عشر دقائق انتهى الرجل من مكالمته، واستدار ليفتح الباب ويخرج، غرق جسدي في سيول من العرق البارد. كان ذاك هو رجل الحلم نفسه، بوجهه المستطيل، وشاربيه الرفيعين الطويلين المتهدلين، وابتسامته الحادة المتربصة الساخرة اللئيمة.

لا أذكر إن كنت قد اتصلت هاتفياً مع صديقي أم لا، لكنني أفقت من شرودي وأنا جالس من جديد في منزلي، أستعيد أحداث اليوم في ذاكرتي المجهدة. حاولت تغيير مسار أفكاري إلى اتجاهات مغايرة، لكنها ظلت تعود بقوة جاذبة تفوق قدرتي، وتحوم بإصرار عنيد حول محورها. شعرت بأن الأمر قد انتقل إلى مرحلة التحدي بين إرادتي وأفكاري، وقررت استخدام وسيلة الإلهاء مع ذهني المتمرد، وفتحت التلفاز كي أقيّد هذا التمرد بما أراه. استرخيت في مقعدي، وثبّت عيني على الشاشة الصغيرة لحظة قصيرة، انتفضت بعدها مندفعاً إلى الجهاز، فأطفأته، مبعداً عن عيني صورة صاحب الوجه المستطيل، والشاربين الطويلين المتهدلين، وهو يخترق بابتسامته الحادة المتربصة الساخرة اللئيمة شاشة الجهاز، فينفذ إلى أعماق عيني، ويستقر متخبطاً في معدتي.



لم يمهلني الغثيان الذي زلزل معدتي، جريت إلى الحمام أتدارك الأمر. بعد لحظات شعرت بأنني هدأت قليلاً. فتحت الماء قوياً، ووضعت رأسي تحت تياره المنهمر، لم أدر هل كنت أغسل رأسي أم ما بداخله؟ وعندما أحسست ببرودة الماء أغلقت الصنبور، وتناولت المنشفة ورحت أجفف شعري ووجهي.

انتعشت قليلاً، وأقنعت نفسي بأنني أقوى من هذه الأوهام والرؤى. وتمكنت أخيراً من السيطرة على ثورة أفكاري وتمردها.

تناولت فرشاة الشعر ورفعتها كي أعيد إلى شعري ترتيبه، وإلى ذهني هدوءه، ونظرت إلى صورتي في المرآة فأصابني الذهول، وأنا أرى مكان وجهي وجهاً مستطيلاً ذا شاربين رفيعين طويلين متهدلين، يحدق بي بابتسامة حادة متربصة ساخرة لئيمة.

صانعة الدمى

فاطمة السويدي
الدوحة - قطر

يهزني القطار في عنف، تصطك مصاريع النوافذ بين الأزيز والأنين دون أن ألتفت إليها.. تغمرني نشوة حقيقية هذا المساء، تختلط مشاعر الراحة بالخلاص.. ينحدر القطار في قمة التلة الشاهقة، أشعر بانتشاء شديد يذكّرني بألعاب القطارات في مدن الملاهي.

أنظر بابتسامة مطمئنة في عيون المحيطين بي، عيون مرهقة لا تأبه بي، تتسع ابتسامي في أنوفهم المتورمة من فعل الشتاء.. أتأكد من وجود الورقة التي تحمل خلاصي في حقيبة يدي.. (أحاكيها) هل كان العمر مرهونًا بك أيتها القصاصة؟ لقد كنت التحدي الحقيقي في حياتي.. ما أجمل أن يكون المرء حرًا من كل شيء، وما أجمل أن يكون مستقلاً عن معشر الرجال.

هل أصبحت عدوانية؟ سخرت من نفسي، وأكدت لها أنني امرأة سوية.. سوى أني أشعر في هذا اليوم بلذة الانتصار ضد ذلك الذئب الدبلوماسي.

تخلصت أخيرًا من نظرته الحاقدة، وابتسامته المريرة التي يقابلني بها كل صباح في أروقة المحكمة.. تلك النظرة التي تنطق باستهزائه الخبيث بأني البطة العرجاء.

تنبهت لتوقف الضجيج، وسكوت المحركات، وتأهب المغادرون في اندفاع حثيث للخروج من هذه الصناديق الحديدية، وجررت قدمي المحبوسة دائمًا في أسورة من حديد، دفعت الكتل اللحمية التي أمامي دفعًا؛ خوفًا من انطلاق القطار ثانية دون أن يأبه لإعاقتي.

***

في الريف الإنجليزي - الذي أعشقه - اشتريت منزلاً صغيرًا، تحيط به حديقة متواضعة، سأعتني بها في سائر الأيام.. كنت أتمنى أن أزرع في واجهتها ثلاث نخلات باسقات، لكن قسوة الطقس - كما أخبرني الخبير الزراعي - تحول دون ذلك.. تتلاحم في نفسي النخلة بالأرض والامتداد.. بطفل يشب باسقًا كصقر قريش، ولكن كعادتها تجري مقاديري بعكس ما أشتهي..

في مكتبة المدينة القريبة وجدت عملاً، أشرف فيه على قسم الاستعارة.. أقابل كثيرًا من الناس.. يسألون في ود: من أين أتيت؟! تتكلمين الإنجليزية بطلاقة!! أسكن في القرية المجاورة.. يحول المكتب الفخم بين نظراتهم وساقي البطة العرجاء.

هل أستطيع أن أمحو ماضي أيامي بمستقبل جديد في أرض جديدة.. خوف شديد يمتلكني فلم أعتمد على ذاتي يومًا.. لم أعلم عن نفسي سوى شخصية استلبت إرادتها منذ خمسة وثلاثين عامًا.. هل أستطيع مواجهة المستقبل؟ سؤال لا يكف عن الصراخ في وجهي.

***

والدي شديد الثراء والوجاهة، يملك شركات قابضة، وأرصدة خيالية في البنوك.. يتحقق له كل ما يريد بمجرد الإشارة، يهابه الناس جميعًا، فالثراء والسلطة متلازمان..

أمي شديدة الجمال والكبرياء.. تسقط شخصيتها سريعًا في حضوره، أجهضت مرات عديدة، حتى حملت بي.. أصر والدي على صنع سريري الصغير من الفضة الخالصة، وزينها بحلقات من الذهب.. أحضر مهندسًا للديكور من أشهر شركات الأثاث لصنع جناح خاص بي.. أريدها أن تحبو في الحرير.. ففرشت الأرضيات بالسجاد الحريري المزدان بالنقوش الفارسية.. وكان لابد من حضور مربيات على علم ودراية بتربية الأطفال، فكانت مربيتي «ليزا» التي علمتني النطق بالإنجليزية قبل العربية.

***

كانت الطامة الكبرى في موعد ولادتي التي حشد لها الهدايا لكل الحاضرين في غرفة العمليات.. كان المستشفى يعج بحركة غريبة، وبهمس واضح بأني أسعد الولادات في هذا المستشفى.

حتى إذا ظهرت إلى الوجود خيبت كل الآمال، طعنت

أبي في كبريائه.. رفض أن يحملني، صرخ بصوت مبحوح.. لابد أن هناك خطأ ما.. هذا ليس مشفى.. هذه فوضى.

حاول الأطباء تهدئة روعه، دون جدوى، انتقم من أمي بشراسة من هذه المولودة البشعة.. لا تقلق.. بجراحات تجميلية سيتم كل شيء.. لا تقلق.. لا ذنب للفتاة في ذلك. لم يكن يتصور أن ينجب مثل هذه الطفلة.. حمل حقائبه وسافر إلى المغرب، وبعدها لم يستقر له قرار كما قالت أمي.. أسبوع هنا.. وآخر هناك.. وهناك..

***

في الحقيقة ولدت طفلة عادية ولكن بشفة الأرنب التي لاتزال واضحة رغم العمليات التجميلية التي أجريتها، وبقدم ذات إعاقة خلقية، فقد كانت قدمي ملتوية والأخرى صحيحة! تقول مربيتي العربية أو بالأحرى مربية أمي: إن هذا انتقام من الرب لبطر والدي.. كنا نتوقع أن يحدث شيء ما... ولكنك يا طفلتي المسكينة لا ذنب لك في هذا.



لم يحملني أبداً بين ذراعيه.. كان ينظر إليّ من بعيد.. حتى حين كنت في الخامسة من العمر، أملأ البيت ضجيجاً.. تخرج أمي جزعة: صه! والدك موجود.. فتجرني ليزا وأجر قدمي لنلعب في مكان آخر..

أخذتني أمي إلى بلاد بعيدة وكثيرة لعلاجي دون جدوى.

لم تتح لي الفرصة للذهاب إلى المدرسة، فقد استبقاني في البيت، وتبنى طفلة أخرى لتؤنس وحدتي، فكان فصلنا المنزلي يتكون مني ومن مريم.

مريم مكتملة العافية.. ذات ساقين قويتين.. تتسلق الأشجار العالية لتحضر الكرة التي نلعب بها.. كانت كالقطة، شديدة الجمال، ذات عينين لوزيتين صغيرتين، ووجنات متوردة، شعرها الكستنائي ينسدل على كتفيها، ذات ذكاء مبهر، وحضور متميز..

لم أكن قبيحة فقد ورثت جمال أمي، رغم التشويه الذي أصاب شفتي، وورثت عنها أيضاً سلبيتها الشديدة.

أينعت الزهرتان في قصر أبي الشامخ، وبدأت أمي تشعر بالغيرة من جمال مريم، فأخذت تحد من قدرتها وتميزها، وتبرزني عليها.. كنت أمشي أمامها، وهي تمشي خلفي، كنت أشعر بانكسارها ثم بحقدها على الرغم من معاملتي اللطيفة معها.

صارحتني بحبها لأحد العاملين في القصر، راقبت تحركاتها وتعاملها معه، وبغيرة، لا أدري سببها، كنت أغضب منها لأتفه الأسباب.. لا لشيء إلا لتلك الابتسامة الساحرة، وحالة الهيام التي تتملكها دوني.

تنازعنا ذات يوم، فاتهمتني بعقد النقص وبإعاقاتي الكثيرة، فلم أتردد من بوح سرها لأمي التي أقامت الدنيا ولم تقعدها.. لم أكن أعلم بأن هذا الأمر خطير إلا حين أمر أبي بجلدها، «الخيانة في دمها» «لقيطة» مصطلح جديد أسمعه، لأول مرة أصبح متداولاً في بيتنا... بعدها لم تهدأ الأمور.

تم طرد الرجل من عمله، فكيف يجرؤ للنظر إلى حريم القصر.. طلب الزواج منها، تذلل في الطلب، لم يستجب له، طرده ككلب أجرب.

بين نظرات الإشفاق والغيظ تمت محاكمة مريم.. التي تحدت جبروت أبي وطلبت الزواج من حبيبها المطرود..

ثم حدثت الطامة الكبرى حين هربت مريم من البيت، فوقعت أنا وأمي تحت براثن أبي وعنفه، أصبحنا مادة دسمة تلوكنا الألسن في مجتمعنا المحافظ.. وبدا لي أن الجميع يتحدث عن إعاقتي، ويعقد المقارنات بيني وبين مريم الفاتنة.

ومضت السنون، تقدم لخطبتي كثير من الرجال الذين لم تتم الموافقة عليهم.. كلهم يطمع في ثروتي.. لن أقبل بهم.. عبارة يرددها صوت أبي.. أما أنا فأتجرع الوحدة والسأم في المنزل الخاوي من الحنان والأنس. تقدم الزمن بي دون أن أشعر...

وافق أخيراً على شاب عصامي، يتردد صوت أبي في صفته «هذا هو الإنجاب الحقيقي..» يعمل في وزارة الخارجية.. نشيط، يعرف من أين تؤكل الكتف.. حتى أكل كتفه وكتفي.

لا نعرف لماذا ساءت أحوال أبي المالية، حتى تدهورت؟!.. أصابه مرض أفقده كل قدراته العقلية.. إنه الخرف المبكر كما يشخصه الأطباء.. سارعت أمي بالتطواف به في كل أنحاء الدنيا، ليعود إلى سرير طبي في منزلنا، لا حول له ولا قوة.

استغل خالد ضعفي وقلة حيلتي واستسلامي الذي ورثته عن أمي ليأخذ توكيلاً يدير به باقي ممتلكات والدي..

التحق بعمله ملحقاً في سفارة بلدي، فواجهت البشر لأول مرة، حفلات استقبال، نظرات لا ترحم تلتصق برجلي، بين الإشفاق والدهشة.. هل يستحق خالد هذا الشاب المتألق زوجة معاقة؟ وكان هو يخجل من وجودي، أشعر بضيقه وتبرمه الذي أصبح بعد وقت قليل معلناً. لم تشفع لي بشاشة وجهي، وطيبة روحي، وثقافتي العالية للدخول في المجتمع المخملي، ثم أصبحت علاقاته النسائية مشهورة، وحديث الركبان في كل مكان على مسمع ومرأى مني.

***

حامل.. أمي أنا حامل.. بين الخوف والترقب حادثت أمي بشيء يتحرك في أحشائي.. سارعت بالحضور، فأنا أحقق الامتداد الأسري، لقد استطعت أن أنجز شيئاً، وحدي دون مساعدة الآخرين...

بهذا الكائن قد استعيد خالد.. أبذر الحياة في جدران منزلي الصامتة.. سأتغلب به على عجزي وقهري.. لقد أصبحت كائناً ذا فائدة.

هو، استقبل الأمر بذهول.. كيف ذلك؟.. يدخن ويحلق في وجهي شارد الذهن.. ابتسم ابتسامة المنتصر.. فقد حققت شيئاً.. لابد أنه ينظم حياته لمستقبل أفضل.. مستقبل أسري يجمعنا.

«في عطلة نهاية الأسبوع سنذهب في رحلة لنحتفل بوجود والدتك».

فرحت كما لم أفرح من قبل.. لقد اهتم بي أخيراً، كانت رحلتنا أو المفاجأة - كما يقول - إلى مدينة الملاهي، ببرود نظرت أمي في وجهه، وبخوف حذرتني من خطورة الألعاب على حملي، وبحب وتعلق به، أطعته.. وسط الضجيج، وصراخ الموسيقى، وزعيق اللاعبين كانت روحي تتقلص، وصفرة الإعياء والغثيان تكسو ملامحي.. يضحك من خوفي .. يشتري لي «غزل البنات».. يمازح أمي التي تحذره من خطورة ذلك على الحمل..

يضحك في وجهها المرتعب.. البقاء للأصلح يا حماتي لا تخافي إنه عبد الرحمن صقر قريش.. لا يعبأ بهذه الألعاب..

بعد أيام قليلة.. أمام غرفة العمليات.. تحققت نبوءة والدتي المستقبلية.. سقط عبدالرحمن في الامتحان... لم يصلح للبقاء... عيون أمي الهلعة تلومه في كل نظرة.. يرد «هذا قضاء الله.. لعله معاق».

في المنزل؛ خذي كل احتياطاتك.. لا أريد سرباً من البط المعاق. لا أسمع إلا صوته يتردد بين الجدران.. أصابتني حالة اكتئاب شديدة.. لا أعرف كيف أتخلص منها...

عاد لي عجزي القديم.. هل فارقني؟.. يلتصق بأنفاسي.. بعد كل لقاء يجمعني به ألتصق بمخدتي ينغرس جسدي في مرتبة السرير.. أتكور كصرصار ميت.

خربة مهجورة بقايا جسدي الذي لا يصلح لشيء ما.. تسكنني أشباح متحركة.. ومواء قطط تتخبط في ظلامي، تفور بقايا دمي في رأسي الثقيل.. أتكور.. أتمدد.. رائحة جسدي العفنة تفوح في أنفي الواسع..

أشعر بالغثيان من جنس الرجال.. دائماً هناك رجل يخذلني.. يستمرئ خذلاني.. يغتصب عجزي، يرض جسدي مراراً ومراراً في جدرانه الإسمنتية، ولا يسأم ذلك.. ولا أسأم ضعفي وتخاذلي.. أنهض نشيطة، ويرض جسدي بجسده الإسمنتي.. فينسحق الفخار ويدوسه بقدميه العملاقتين، وأجمع بقايا فخاري لأصنع دمية لأنثى جميلة تنتظر من يسحقها من جديد...

لمَ أشعر بالتمرد في هذا النهار؟؟!.. لم يجتاحني جنون ما دمت أستطيع ترويضه منذ عقود طويلة؟؟! لم أشعر كأنني مدينة تصطك بالضجيج، ملوثة بالفوضى، تدور في فلك الإهمال واللامبالاة؟؟!

***

سأصنع دمية جديدة تقاوم الانسحاق.

المرأة في اللغة: هل الأنثى هي الفرع؟

عبدالله الغذامي

مراجعة: **رشيد الإدريسي**
الدار البيضاء - المغرب

«سيبقى هناك دائماً جديد يقال عن النساء مادامت هناك امرأة على وجه الأرض».

هذا ما يقوله أحد الكتاب معبراً عن أهمية المرأة ومركزيتها في حياة الرجل الذي هو جزء منها بعد أن كانت أيام بدء الخليقة جزءاً منه.

وقد تمّ تناول المرأة في علاقتها مع أكثر مكونات هذا العالم، فتم الحديث عن المرأة والسلطة، والمرأة والأدب، والمرأة والاضطهاد، بالإضافة إلى ربطها بالكذب والاحتيال والضعف والقوة والجمال.. وكل المعاني المتناقضة التي يمكن أن ترد على الذهن.

ومع ذلك فإننا نجد كاتباً مثل سرفانتس يذهب إلى أن ما كتب بخصوص المرأة حتى الآن، وما سيكتب عنها مستقبلاً ليس في الواقع سوى سطر، ذلك لأن المرأة تتأبى على فهم الرجل، لأنه يسلك طرقاً نحوها غير تلك التي يجب عليه سلوكها لفهمها الفهم الجيد، وتقف عقلانيته المتخشبة عاجزة عن ولوج عوالمها الغامضة المتمثلة بالسحر والجاذبية والجمال والضعف الذي تختفي تحته أفتك الأسلحة.

ولقد ظل الرجل يتأمل هذه المرأة التي هي جزء منه من أجل فهمها، فوقع في اختلاط لا مخرج منه، وحيرة مؤرقة، فطوى صفحة التأمل معلناً أن المرأة لم تخلق لنفهمها، وإنما خلقت لنحبها ونروضها ونبعدها عن كل ما قد يزيد في غموضها وقوتها الكامنة فيها كمون النار في الكبريت، وكانت أنجع وسيلة اعتمدها الرجل لبلوغ ذلك حسب رأي عبد الله محمد الغذامي(١) هو تذكيره للغة، وحرمانه للمرأة من الكتابة وحبسها في حريم الحكي الشفهي المظلم.

فما أسباب هذا التذكير اللغوي والانحياز للرجل على حساب الأنثى؟ وما مفهوم تذكير اللغة وطرق الخروج من هذا التحيز الذي يعد حسب هذا التحليل أحد الأسباب والنتائج لما مارسته الثقافة الذكورية من إرهاب منظم ضد المرأة؟ وهل تذكير اللغة خاصية مشتركة بين كل اللغات بما فيها اللغة العربية الفصحى؟ كل هذه الأسئلة وغيرها كثير تطرح بإلحاح على القارئ وهو يلتهم مضمون صفحات كتاب الغذامي الماتع.



ونحن لا نرمي من خلال هذا المقال إلى عرض الكتاب المذكور، إذ لا يغني أي عرض مهما كان مستفيضاً عن قراءته والتنقل بين فصوله المتنوعة، ولكن هدفنا هو تقديم ما يوافقه من المعطيات والمناقشات، وما يعارضه منها ويبين حدود بعض تأويلاته.

فالكتاب يفيض بالطريف من الأفكار، وينطلق من منطلق اللغة ليطرق موضوعاً طالما شغل المصلحين الاجتماعيين؛ وهو حق المرأة في الوجود والكرامة، وحقها في الكشف عما عانته وتعانيه لتحسيس الرجل بجسامة ما اقترفته يداه في حقها طوال «ستة آلاف سنة من النظام الذكوري، ومن الهيمنة التي مارسها على المجتمع بمجمله»(٢) كما يقول رجاء جارودي.

تحيز يكشف عن نفسه

وقد شغلت مسألة التذكير والتأنيث في اللغة كثيراً من الباحثين الذين عرفوا باهتمامهم بقضايا المرأة، ويمكننا أن نكتفي هنا بذكر كتاب واحد يحمل عنواناً غنياً عن كل تعليق، وهو كتاب ديل سبندر DALE SPENDER الرجل صانع اللغة MAN MADE LANGUAGE(*)، الذي تذهب فيه إلى أن الرجل هو واضع اللغة الإنجليزية، وأنه يسيطر عليها سيطرة تامة تركيباً

ودلالة؛ مما يجعل اللغة تنطوي على تحيز واضح للمذكر، يتحول مباشرة إلى تحيز ملموس على أرض الواقع، وهو التحيز الذي يكشف عن نفسه في تفضيل الرجل على المرأة، وجعل الذكر أصلاً والأنثى فرعاً. فما الخلفية الثقافية التي تجعل من الذكر أصلاً ومن الأنثى فرعاً؟

سيكون الجواب عن هذا السؤال إحدى الإضافات التي نرى أن كتاب الغذامي قد أغفل ذكرها، التي لو تم استثمارها على وجه حسن لعمقت فهمنا لهذه القضية المختلف حولها.

والجواب قد نلمسه بشكل غير مباشر في قصة خلق آدم وحواء كما وردت في التوراة، التي تم تداولها في المجال العربي الإسلامي في صورة ما يسمى بالإسرائيليات.

وقد أورد ذلك ابن كثير في تفسيره فقال: ثم ألقيت السِّنة على آدم فيما بلغنا من أهل الكتاب من أهل التوراة ... ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه زوجته حواء فسماها امرأة ليسكن إليها. فلما كشف عنه السِّنة وهب من نومه، رآها إلى جانبه فقال فيما يزعمون، والله أعلم، لحمي ودمي وزوجتي، فسكن إليها(٣).

هذه هي قصة خلق حواء كما يرويها ابن كثير في تفسيره مضمناً لها التعبير المعهود «والله أعلم» كاشفاً بذلك عن الشك الذي كان يحيط بمرويات بني إسرائيل في المجال التداولي العربي الإسلامي. وهذه القصة هي بحرفها تقريباً تلك التي وردت في التوراة التي تختمها بالقول التالي: «هذه [أي حواء] تسمى امرأة لأنها من امرئ أخذت، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً»(٤).

فآدم (المذكر) كما يظهر ذلك جلياً من خلال هذه القصة هو الأصل الذي عنه تفرعت حواء (المؤنث). وهي لم توجد مباشرة بعد وجوده وخلقه، بل تطلب الأمر حسب الرواية التوراتية، فترة إلى أن أحس آدم بالحاجة إلى معين، وبعد أن دعا جميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء بأسماء محددة. فتسمية أشياء العالم، دائماً حسب هذه الرواية، أطلقت والأنثى غائبة، فكان إذن من الطبيعي أن يستحوذ المذكر على اللغة ويغلب على المؤنث الذي هو فرع عضوي (بيولوجي) من المذكر والذي لم يخلق إلا بعد أن تم إطلاق الأسماء وتشغيل آلة اللغة المعجزة.

فهل تم الأمر على هذا الشكل؟ وهل الرجال بعد أن كثرت أعدادهم بفضل المرأة الولود، وهم ينوعون في اللغات، ويبتكرون الألسن، ويخرجون بعضها من بعض، تحكمت فيهم رموز هذه القصة بطريقة لا شعورية، فطبعوا بها لغاتهم في صورة تغليب المذكر على المؤنث؟ إن الأولوية في اللغة للذكر على الأنثى؛ لأنه، في الواقع، حسب ما تحمله الذاكرة الإنسانية، وجد الرجل في غياب المرأة، فلما ظهرت هذه الأخيرة التي هي جزء مختلف عن الرجل، تطلب الأمر إظهار هذا الاختلاف في تسميتها وفي صفاتها وفي كل ما يرتبط بها، فأضيفت تاء التأنيث أو غيرها من العلامات اللغوية حتى يتم تمييز مجالها من مجال الذكر.

اللفظ جسد والمعنى روح، ولا قيمة للجسد بمعزل عن الروح، بل إن الجسد معرض للإهمال والتلف إذا فارقته روحه

هذا تفسير محتمل «لتحيز» اللغة للذكر على الأنثى، وهو صحيح على الأقل بالنسبة إلى اللغات التي نمت في بيئات شاعت فيها هذه القصة أو ما يشبهها، وهو قد يعتمد سبباً من ضمن الأسباب الخفية والمعلنة التي قد تكون وقفت وراء تذكير اللغة، وهو لا ينفي وجود أسباب أخرى قد تكون أبسط وأقدر منها على تفسير هذه الظاهرة.



عبدالله الغذامي

قول مفتوح حمال أوجه

ونعود الآن إلى اللغة العربية التي يسحب عليها الأستاذ الغذامي هي الأخرى حكم الذكورية، فيذهب إلى أن الضمير المذكر يسيطر عليها كسيطرته في اللغات الأخرى، فالتذكير حسب رأيه «هو الأصل، وهو الأكثر، ولن يكون التذكير أصلاً إلا إذا صار التأنيث فرعاً. ومن هنا فإن الفصاحة ترتبط بالتذكير، فتقول عن المرأة: إنها زوج فلان، وليست زوجة فلان إن كنت تتحرى الفصاحة والأصالة»(٥).

وقد توصل الأستاذ الغذامي إلى هذه النتيجة اعتماداً على ذكره لظواهر لغوية ارتبطت بالتذكير أكثر من ارتباطها بالتأنيث، واعتماداً على أقوال ترى أن تذكير المؤنث واسع جداً؛ لأنه رد إلى الأصل كما يقول ابن جني في خصائصه، أو ما يقوله عبدالحميد بن يحيى الكاتب من أن «خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً»، «فيذهب للرجل بذلك أخطر ما في اللغة (اللفظ) بينما يخص المرأة بالمعنى الذي ليس له وجود أو قيمة إلا تحت مظلة اللفظ»(٦).

وقبل أن نأتي بما قد يسهم في تنسيب ما يذهب إليه الغذامي، فإننا نود قبل ذلك إعادة قراءة قول عبدالحميد الكاتب قراءة مضادة تظهر بما لا يدع مجالاً للشك أنه في عمقه قول مفتوح، حمال أوجه، وليس بالقول المغلق الجامد المدلول.

إننا لو أردنا إنصاف المرأة حسب ما يفهم من كلام الغذامي

للزمنا أن نقلب قول عبدالحميد، ونربط اللفظ بالأنثى والمعنى بالذكر، وعندئذ سنجد أنفسنا أمام القول التالي: «خير الكلام ما كان لفظه بكراً ومعناه فحلا»، وبذلك نهب للمرأة أخطر ما في اللغة ويصبح المعنى/ الذكر لا وجود له إلا تحت مظلتها.

ولكن القول بهذا الشكل غير مقبول لاعتبارات، منها أن الألفاظ شيء معطى ومتوارث على عكس المعاني الدائمة التجدد والاختلاف. فنحن لا يمكننا أن نتصور كلاماً بكر الألفاظ، إلا إذا كان كلاماً في شكل طلسمات وعلامات لغوية لا يفهمها لا ملقيها ولا متلقيها، فالبكر هنا مطابق للعذراء، يقال «الدرة البكر» أي التي لم تثقب، والمفهوم الذي يجب تنشيطه في هذا السياق في لفظ «بكر» هو «كل فعلة لم يتقدمها مثلها، أي [+ الجديد]، [+ المحدث]، [+المبتدع].. وهي كلها مقومات متطابقة، فجدة المعنى في كلام ما ممكنة، لكن جدة الألفاظ مستحيلة، لأن معناها انعدام التواصل.

وحتى لو أخذنا قول عبدالحميد الكاتب كما هو، فإن بإمكاننا قراءته قراءة متحيزة للمرأة؛ وذلك من خلال تركيزنا على أهمية المعنى وقيمته في تثمين اللفظ.

وبمقايسة أولية نلمس هذا البعد؛ فاللفظ جسد والمعنى روح، ولا قيمة للجسد بمعزل عن الروح، بل إن الجسد معرض للإهمال والتلف إذا فارقته روحه، وكذلك الشأن بالنسبة إلى اللفظ، وهذا لا نقوله نحن، ولم نأت به من عندنا لتدعيم ما نرمي إلى إثباته، بل قاله الذين قعدوا للغة العربية، وجمعوا ألفاظها في عهد التأسيس، فقسموا الكلام إلى مستعمل ومهمل؛ وهذا الأخير هو الذي لا يكون مفيداً لمعنى، ولم تقع المواضعة عليه، بتعبيرنا نقول: إنه الكلام الفاقد للروح. هكذا يحتل المعنى مكان الصدارة ويصبح هو النواة الصلبة التي لا قيمة للفظ من دون وجودها، ويصبح الذكر حسب هذا التأويل هملاً في غياب الأنثى. فهل بعد هذا يصح لنا أن نقول: إن الأنثى هي الفرع؟

قسرية التفسير

إن ما قلناه على هامش قول عبدالحميد الكاتب هو أكثر احتمالاً مما أورده الأستاذ الغذامي؛ لا لشيء إلا لأن الغذامي لم يقف بما فيه الكفاية عند علامات قول عبدالحميد لاستخراج مقوماتها وتحديد تخوم ما يمكنها الدلالة عليه، واقتصر على العملية التالية، وهي الدخول على القول بمعنى يحمله مسبقاً، ومحاولة جره قسراً إلى دائرة الحقل الدلالي الذي شكله من قبل، أي ذكورية اللغة وتحيزها للرجل، قبل أي فحص وتشريح لملفوظات هذا القول.

الغذامي لم يقف بما فيه الكفاية عند علامات قول عبدالحميد لاستخراج مقوماتها وتحديد تخوم ما يمكنها الدلالة عليه

وليس معنى هذا أننا ننفي نفياً قاطعاً إمكان تحميل قول عبدالحميد ما حمله إياه الغذامي، ولكننا نرى أنه يعتوره الضعف في بعض مفاصله، وهو أكثر احتمالاً لما قلناه بصدده. وبغض النظر عن الموازنة بين التأويلين، وهي شيء مشروع، فإن الاستدلال بهذا القول في معرض إثبات ذكورية اللغة لا يثبت أمام النقد، إذ ما احتمل واحتمل سقط به الاستدلال.

والشيء نفسه يمكننا قوله بالنسبة إلى الفصاحة وربطها بالذكر، فالذكر ليس دائماً قرين الفصاحة، بل قد يأخذ مكانة التأنيث أحياناً، فها هو الذكر الذي يقال إنه رجل اللغة، وذكر اللفظ وجعله فحلاً. هذا الذكر نجده، في اللغة العربية على الأقل، عندما يبلغ أعلى درجات العلم والمعرفة، فيسمى تسمية الأنثى، فيقال له «علامة» فتصبح تسمية الأنثى أكثر دلالة وبلاغة من تسمية «عالم» المذكرة العارية من التضعيف والتاء، والشيء نفسه يمكننا قوله بالنسبة إلى أكثر من لفظ؛ فالشديد الطغيان يقال له «طاغية» والعاكف على البحث يقال له «بحاثة» والمكثر من السؤال يقال له «سؤلة».. وهلم جرا.



مصطفى الرافعي

إن ما نريد الخروج به من خلال قولنا هذا، هو أن اللغة العربية بخصوص هذه المسألة بالذات، تسعف على إثبات الشيء وعكسه، وأنها محيط من الألفاظ والأقوال المترادفة والمتناقضة والمؤكدة لما ينفيه جزء منها والنافية لما يؤكده جزء آخر، والقارئ يدخل عليها بفرضية من الفرضيات (تأنيث اللغة أو تذكيرها) فينشط فيها العناصر المؤكدة لفرضيته، ويعقم تلك التي تشوش عليها، والفرضية الأقوى دائماً هي تلك التي تحظى بأكبر قدر من القرائن المؤكدة لها.

وإذا وقفنا عند الفرضية التي انطلق منها الغذامي، فإننا سنجد بالفعل أن لها من القرائن ما يؤكدها ويعضدها، وإن سلك هو لإثباتها طريقاً وعرة، طريق الدخول من اللغة التي تسعف كل من ملك زمامها إلى إثبات ما يروم إثباته.

ولا شك أن أول ما يؤكد فرضية ذكورية اللغة، هي تلك القرينة المرتبطة بالتاريخ الذي يثبت بأن الأنثى كانت فعلاً مضطهدة، وأنه قد مورست عليها شتى أنواع الحيف والعضل من طرف الرجل الذي قد يكون هو الآخر قد ذاق أكثر مما ذاقت المرأة من آلام، وهنا كذلك يقف التاريخ شاهداً على ذلك. إلا أن الفرق بينهما هو أن ما ذاقه الرجل من اضطهاد، مارسه عليه في الغالب رجل مثله، كما أن اتجاه الاضطهاد ليس ثابتاً؛ فقد يتحول المضطهد (بفتح الهاء)

في هذه الحالة إلى مضطهد (بكسر الهاء) فينتصف لنفسه، أما الأنثى فهي لم تضطهد من طرف أنثى مثلها، بل من طرف ذكر بائن الاختلاف عنها، وهو اضطهاد غالبا ما مورس في اتجاه واحد: ذكر ــــــ أنثى.

وبذلك فقد يسّر هذا الاختلاف البائن، ويسّرت هذه العلاقة الأحادية الاتجاه، تبيّن الطرف المعتدى عليه ومحاولة إنصافه، وتحسيس المتلقي بما مورس ويمارس عليه من حيف وضرورة رفعه عنه، وهو ما حاول القيام به الأستاذ الغذامي في كتابه هذا بألمعيته المعهودة.

وعلى كل هذه الاعتبارات، فإن ذكورية اللغة العربية كما يذهب إلى ذلك الغذامي، وقبله المهتمون بمسألة المرأة، مسألة قابلة للمنازعة، ولا يمكن التسليم بها قياسا على ذكورية اللغات الأخرى التي ثبت بأكثر من دليل على أنها بالفعل منحازة للمذكر على المؤنث، وبغض النظر عن ذهاب علماء العربية إلى أننا نستعمل جمع المذكر في مخاطبة جماعة من النساء إذا كان بينهم رجل واحد، فإن هذا الرأي يبقى نظريا ليس غير، إذ يكفي ليجد المخاطب نفسه أمام ثلة من النساء يذوب فيها رجل واحد ليستعمل جمع المؤنث بطريقة تلقائية.

المنطقة المحرمة

إن في اللغة العربية ما يسميه الغذامي بالمنطقة المحرمة، التي تحرم على المرأة وعلى غير العاقل والحيوان، وهي خاصة بالمذكر العاقل فحسب، والتي يقصد بها صيغة جمع المذكر السالم التي يشترط فيها أن تكون من علم مذكر عاقل خال من تاء التأنيث الزائدة. ولتوضيح المراد بالعاقل يورد الغذامي كلاما لعباس حسن في نحوه الوافي يقول فيه: «ليس المقصود بالعاقل أن يكون عاقلا بالفعل، وإنما المراد أنه من جنس الآدميين والملائكة، فيشمل المجنون الذي فقد عقله والطفل الصغير الذي لم يظهر أثر عقله بعد..

ويعلق الغذامي على ذلك بقوله: «هنا يحق للمجنون والطفل وكذا الحيوان المذكّر أن يدخل قلعة (المذكر السالم)، أما الأنثى فلا يجوز لها الاقتراب من هذا الحق الذكوري الخالص (السالم)»(٧)، ويبقى مكانها المناسب هو جمع المؤنث السالم. وهذا الرأي في جمع المذكر السالم كما ورد لدى النحاة العرب من الآراء التي يمكن حملها على أكثر من وجه، وقد حملها الأستاذ الغذامي على ما يخدم الفرضية التي انطلق منها في دراسته للغة العربية، والتي رأينا أن لها الكثير من القرائن المؤكدة، ليس أقلها الواقع التاريخي والمعيش. ولكنه مع ذلك فإن ما ذهب إليه النحاة، يمكننا قراءته قراءة مضادة فنقول إن الذكر هنا قد تم امتهانه من طرفهم إذ سمح للمجنون والطفل وكذا الحيوان بمشاركته في الصيغة. فها هي ذي اللغة تنحاز عن الذكر فيما يشبه الانحياز إليه، وتنحاز إلى الأنثى فيما يشبه الانحياز عنها، فتخصها بقلعة لا يشاركها فيها إلا بنات جنسها، بينما تشرع أبواب قلعة الرجل ليلجها من هب ودب!!

بل أكثر من ذلك فإن هناك من المعطيات ما هو كفيل بتنسيب تأويل ذكورية اللغة إلى أبعد الحدود، فنحن إذا رجعنا إلى القرآن الكريم، وهو كتاب العربية الأول، فإننا سنجد أنفسنا أمام سلسلة آيات تحطم الحدود بين المذكر والمؤنث؛ فتؤنث الضمير العائد على المذكر والفعل المسند للمذكر، كما تذكر المؤنث مرات متعددة، وأحيانا أخرى تذكر وتؤنث اللفظة الواحدة في السورة الواحدة. وهذه بعض الآيات التي يتم التعامل فيها مع المذكر تعامل المؤنث ومع المؤنث تعامل المذكر:

- *جاءتها ريح عاصف*. **يونس:٢٢.**
- *ولسليمان الريح عاصفة*. **الأنبياء:٨١.**
- *فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضّلالة*. **النحل:٣٦.**
- *فريقا هدى وفريقا حقّ عليهم الضّلالة*. **الأعراف:٣٠.**

ومواطن تأنيث المذكر أكثر من أن تحصى، يكفينا ذكر بعضها:

- *والتفت السّاق بالسّاق*. **القيامة:٢٩**
- *قالت لهم رسُلهم*. **إبراهيم:١١.**

وقد علق الزركشي على قول من يذهبون إلى تغليب التذكير على التأنيث بما يلي: لا تستقيم إرادة أن ما احتمل التذكير والتأنيث غلب فيه التذكير لقوله تعالى: *والنّخل باسقات*. **ق:١٠**، وقوله: *أعجاز نخل خاوية*. **الحاقة:٧**. فأنث مع جواز التذكير، قال تعالى: *أعجاز نخل منقعر*. **القمر:٢٠.**

ومن ثم يصبح إثبات التاء أحسن من تركها، ويصبح ما يقوله بعض اللغويين من ترجيح حذفها على إثباتها رأي فيه نظر كما يقول الزركشي(٨). فهل هناك تأنيث للغة أكثر من هذا الذي نحن بصدده.

لا شك أن ما أوردناه في مُكْنته الحدُ من تعميم ما أورده الغذامي من آراء وتحليلات في كتابه المرأة واللغة، وهي معطيات لو تم استثمارها بشكل واسع لأمكن الخروج في نهاية التحليل باتجاهين في التعامل مع اللغة؛ الأول يذكرها والثاني يؤنثها، ولربما انتهينا إلى أن ميل بعض الناس إلى التذكير هدفه هو بالدرجة الأولى الاقتصاد في استعمال الحروف، لأن التحدث بالمؤنث يقتضي إضافة حروف أخرى كتاء التأنيث في العربية مثلا، وهو ما نجده حاضرا كذلك في اللغات الأجنبية، فضمير المذكر الغائب في الفرنسية نجده يتكون من حرفين il، بينما الضمير نفسه بالنسبة إلى المؤنث يتكون من أربعة حروف elle، والشيء نفسه في الإنجليزية إذ نجد He في مقابل She.

لا ذكورية ولا أنثوية

إن النتيجة التي يمكننا الخلوص إليها هي أن العربية حسب

المعطيات التي استشهدنا بها ليست ذكورية ولا أنثوية بل هي مفتوحة على المذكر وعلى المؤنث، وهما متساويان في الاستعمال إن لم يكن التأنيث أحياناً أحسن من التذكير كما بين ذلك الزركشي.

وقد حملت مثل هذه الاستعمالات المؤنثة للمذكر والمذكرة للمؤنث أحد مترجمي القرآن الكريم إلى الفرنسية على أن يقول إن اللغة العربية تتوافر على بعض الاستعمالات الطريفة التي ربما لا نجد لها مثيلاً في اللغات الأخرى، والتي حافظ القرآن الكريم على بعض من آثارها(٩).

يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي في سحابه الأحمر مسائلهما قصة خلق حواء كما رويناها فويقه: «ترى ما هذا الشبه بين المرأة وبين السماء؟ أكانت المرأة في أصل الخلقة مادة سماء بدأت تتخلق في الغيب فحبسها الله في ضلع الرجل عقاباً لها، ثم عاقبها الثانية فأخرجها للرجل تنظر إليه كما ينظر السجين إلى سجنه.. ويكون الله سبحانه قد عاقبها مرتين، لتتعلم هي بطبعها كيف تتجنى على الرجل وتعاقبه مراراً لا تعد؟»(١٠).

إن تساؤل الرافعي وقراءته الذكية هاته لقصة خلق حواء، تنطلق من فهم قوامه الصراع بين الرجل والمرأة، فالرجل سجن المرأة لأنها جبلت على التمرد، والمرأة جحيم الرجل لأن لها سلاحاً، قليل هم الرجال الذين يستطيعون مقاومته، والمتمثل في جمالها الفتان الذي به تتجنى على الرجل وبه تعاقبه. جمال جعل الرافعي يرى في المرأة «خلاصة سماء من السماوات خلقت عينين وخدين وشفتين، تضحك أحياناً بالنور وتلتهب أحياناً بالبرق وتنفجر أحياناً بالرعد»(١١) والمعمي بنورها، والمصعوق ببرقها، والمتحطم برعدها ليس سوى الرجل.

تكامل وتمازج

لقد بدأنا كلامنا بالإشارة العابرة إلى أن الرجل جزء من المرأة بعد أن كانت المرأة جزءاً منه أيام بدء الخليقة؛ فالمرأة انبثقت من الرجل وعن طريق التوالد انبثق الرجل فيما بعد من المرأة. فهما إذن متساويان لا فضل لأحدهما على الآخر في هذه النقطة، فلا الرجل سجن المرأة ولا المرأة سجن الرجل. لقد حمل الرجل المرأة بداخله وانتهى الأمر بتخلقها، أما المرأة فقد حملته وما زالت تحمله وهناً على وهن، وتضعه كرهاً على كره، وبذلك ترد له كل يوم مرات ومرات ما أعطاها لمرة واحدة، فهما إذن متكاملان كتكاملهما في اللغة وتمازجهما فيها وكتكاملهما في الكتابة.

لقد ركز الغذامي على (القلم) الذي هو أداة الكتابة تركيزاً كبيراً، ورآه رمزاً من رموز الذكورة ارتبط بالرجل فكان من حقه وحده أن يكتب، بينما النساء صدع أبو العلاء المعري في وجوههن «خلوا كتابة وقراءة»، ورأى خير الدين ابن أبي الثناء أن «الإصابة في منع النساء من الكتابة». لكننا على الرغم من هذه الأقوال، وعلى ما ذهب إليه الغذامي، نحسب أن الأنثى لا محيد عنها لانبجاس الكتابة، وقد ظلت دائماً حاضرة كرمز كما حضر الرجل هو الآخر بوصفه رمزاً ممثلاً في أداة الكتابة (القلم). فما رمز الأنثى يا ترى؟

إن الغذامي أشار إلى (القلم) وركز عليه، وربطه وحده بالكتابة، لكن القلم الذي تحدث عنه ليس هو ذاك القلم الذي ارتبط بالكتابة في عصر أبي العلاء المعري وأبي الثناء والجاحظ، بل هو قلم قائم بذاته مستقل عن غيره، وهو قلم الحبر الجاف الذي لم يعرف إلا في عصرنا هذا، والذي لا شك أن الغذامي لم يستحضر في ذهنه سواه. أما القلم الذي ساد في عصر أولئك وغيرهم فلم يكن مذكراً صرفاً، بل كان دائماً في حاجة إلى الأنثى، ورمزها ما هو إلا الدواة التي تمده بالحبر. فالقلم/الذكر عاجز عن الكتابة في غياب الدواة/ الأنثى، وبهذا تصبح الكتابة منطوية على الذكورة، الأنيموس Animus بتعبير كارل يونج، مثلما هي منطوية على الأنوثة أو الأنيما Anima، وتلك قمة التكامل.

والآن ما علينا إذن إلا أن نقلب قول الرافعي فنقول: ترى ما هذا الشبه والتكامل بين المرأة والرجل؟ أكانت المرأة في أصل الخلقة مادة أنثوية صرفاً بدأت تتخلق في الغيب فمزجها الله بضلع الرجل نزعاً لاختلافها المطلق، ثم زاد في تقريبها منه ثانية فأخرجها للرجل تنظر إليه كما ينظر الرائي في المرآة ويكون الله سبحانه قد قربها من الرجل مرتين لتتعلم هي بطبعها كيف تؤانس الرجل وتقترب منه مراراً لا تعد؟

المراجع والهوامش

١. انظر كتابه المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت،١٩٩٦م.
٢. في سبيل ارتقاء المرأة، ص٧، ترجمة جلال مطرجي، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨م.
(٥) DALE SPENDER: MAN MADE LANGUAGE, ROUTLEDGE AND KEGAN PAUL PLC, LONDON 1985
٣. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص ١/٨٢، دار المعرفة، بيروت،١٩٨٧م.
٤. الكتاب المقدس، سفر التكوين، الفصل٢ /٢٥، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.
٥. المرأة واللغة، ص٤١.
٦. نفسه، ص٧.
٧. نفسه، ص٢٥.
٨. البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص٤٢٥، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م
9. LE SAINT CORAN, TRADUCTION ET NOTES DE MUHAMMAD HAMIDULLAH, MOUASSASSAT ARRISSALA, BEYROUTH 1986
١٠. مصطفى صادق الرافعي، السحاب الأحمر، ص٢٣، دار المعارف، سوسة، تونس، ١٩٨٨م.
١١. نفسه، ص ٢٣.

السرد والبنية الاجتماعية: وقفة أمام رواية «دروس إضافية»

يوسف صالح يوسف
عمان - الأردن

لم أكن قبل هذه الرواية قد قرأت شيئاً للكاتب منصور محمد الخريجي. ولكنها تأتي، إن من حيث بنيتها السردية المثيرة للإعجاب، أم من حيث بنيتها الاجتماعية التي تشكل إطلالة على الواقع السعودي، لتؤكد أن صاحبها يمتلك باعاً طويلاً في مضمار الفن الروائي، بصرف النظر إن كانت هذه هي تجربته الأولى، أم إنها لاحقة لتجارب سبقتها.

عند الحديث عن البنية السردية في هذه الرواية، يمكن القول، ابتداء، إنها واقعية تقليدية. وهذا الاتجاه في المعمار الروائي إن رفضته أساليب القص الحديثة، فإن المتلقي لا يرفضه، بل إنه قد يفضله على غيره من البنى التي تجهد الذهن. وعليه فإن الواقعية التقليدية في رواية «دروس إضافية» ليست نعتاً في الحديث عن الجودة الفنية أو عدمها، وإنما هي أسلوب شأن غيره من الأساليب التي يختارها الروائيون كأوعية يصبون فيها الحكمة والمعرفة اللتين يتوخون إيصالهما إلى القارئ. وإذا كانت الرواية باتفاق نقادها والمهتمين بها، هي نوع مما يتعارف على تسميتها «بالمتواليات اللغوية»، وإنها تحتمل التدرج في إيصال هدفها إلى القارئ، خصوصاً إذا كانت من النوع الروائي الذي تنتمي إليه رواية الخريجي، فإن البناء العام يقوم على قاعدة الوحدات الثلاث (البداية، والوسط، والنهاية)، لكونها المجرى الذي ينتظم فيه الصراع كذلك، من ألفه حتى يائه. وإذا كنا قد أشرنا إلى البنية السردية المثيرة للإعجاب بصفتها امتيازاً، فإنه مما يلزم لتأكيد هذا، ضرورة إقامة الحجة التي تسوغ مثل هذا الاستنتاج.

صحيح أن الرواية متوالية لغوية، وأن التعريف الأقرب للتعبير عن كينونتها في حالة الرواية التقليدية هو ذلك الذي يرى فيها نوعاً من (فن الوصف بالكلمات)، إلا أنه مما يقال أيضاً أن (فن الرواية غير فن الدراية، وأن التأويل غير التفسير). وأحسب أن الروائي منصور محمد الخريجي قد استطاع بالاتكاء على عنصري الدراية والتأويل أن يقدم للقارئ رواية من لحم ودم، تمشي وتتكلم أمام أنظارنا تماماً مثلما الكائن الحي في حركة نموه، من مهد الطفولة إلى صخب الحياة.



النأي عن الإسراف اللغوي

وفي اعتقادي، أن من أول البديهيات التي تحرص عليها رواية «دروس إضافية»، هي مسألة القارئ، وما يعرف بأفق الانتظار عنده. فهي لا تطمح إلى توصيل ما يرمي إليه كاتبها بمعزل عن الرغبة في تطوير هذا الأفق الذي هو أفق القارئ. أي إنها، بالاستفادة من صفة التوالي، ابتعدت عن العسف في التعامل مع شخصياتها من جهة، كما أنها - من جهة أخرى - ابتعدت عن الوعظ الجمالي الذي يدمر جماليات النص الروائي. وبذلك يمكن القول: إن الإلمام بعنصري الدراية والتأويل، مكن الروائي من تقديم عمل يمتلك ألق السرد الذي ينأى عن الإسراف اللغوي، والعصف الذي يثقل من استطرادات وتداعيات وما يشاكلها. وإذا ما أخذنا في الحسبان أن هذه الرواية التي تقع في ثلاثمئة وسبعين صفحة يمكن أن تحتمل المزيد من عدد الصفحات، وأنه كان بمقدور الروائي أن يضيف أحداثاً، فإنه عندما لم يلجأ إلى ذلك، مكتفياً بما هي عليه الرواية التي أمامنا من أحداث وشخصيات، إنما

يكون قد قدّم الوجيز الذي يثير المتعة والإعجاب معاً.

ولعله مما يشير إلى قدرته في تطوير أفق القارئ، من حيث التلقي في أقل الاحتمالات، أن الرواية - على اتساعها الظاهر الذي يمتد على ما أشرنا إليه من عدد الصفحات - تمسك بالتلابيب، ولا تترك قارئها يسرح على هواه، وهو يلهث خلف ما يفضي إليه هذا الحدث أو ذاك من أحداثها التي تخضع للمنطق الرياضي القائل بفكرة التراكم النوعي، وليس الكمي. أي إن الروائي اختار من الأحداث ما يغني روايته، بأبعادها المختلفة، وبضمنها الشخصيات والفضاءات التي تسبح فيها، داخل عمل أدبي يجاهد من أجل إبراز قيمته الأخلاقية الراقية: الاندغام في الوطن السعودي، لأنه لا خلاص للشخصيات من همومها وإشكالاتها إلاّ فيه، ولعمري إنها قيمة سامية، هذه التي يحملها المسرود الذي ينقسم إلى وحدات أو «موتيفات» صغيرة أو كبيرة، تمتاز بسرعة الجريان وصولاً إلى المصبّ العام: دروس إضافية.

نظرة الطائر

لقد استعار الروائي من ضمير الغائب أهليته في السرد، وبذلك فإنه يكون قد وزّع اهتمامه بشخصياته بالتساوي، وكان من أبرز نتائج استخدام هذا الضمير خلوّ السرد من العسف، وفي اعتقادي فإن كلّ واحدة من شخصياته الثلاث (بندر، وعبدالمجيد، وسليمان) تحمل بعضاً منه، أي إنه وزّع أبعاد تجربته الحياتية في الدراسة في أمريكا عليها، وكأنه بهذا يقدم بانوراما استعراضية لحياة الطلاب العرب هناك.، وهم يجدون أنفسهم في بيئة غريبة غير مألوفة يتقاسمهم فيها اختياران أساسيان: الأول يمثّله اختيار الدراسة والعودة إلى الوطن بشهادة ومعرفة جديدة، والآخر الثاني يمثله النزوع إلى الاندماج في الحياة الجديدة على مستواها الاجتماعي. ولقد كان من نتائج هذا أيضاً، أننا رأينا ما يعرف عند السرديين (الذين يهتمون بطرق السرد) بالراوي العليم، الكلي المعرفة، الذي يطلّ على شخصياته وأحداثه من زاوية تؤهل له معرفة كلّ شيء. وعندما قلنا إن الخريجي قدم لنا رواية تمشي وتتكلم أمام أنظارنا وعلى أسماعنا، كنا نقصد تلك النظرة التي تعرف في لغة السينما بنظرة الطائر، تلك التي تطلّ منها الكاميرا على ما تحتها، فترى ما تريد أن تراه، وتغمض الخلق أمام ما لا تريده.

لقد بدا السرد متأثراً إلى أبعد الحدود بلغة السينما، وبالذات ببنيتها البصرية، وكمثال على ذلك فليس ثمة تجريد في تعامل الروائي مع الشخصيات، إذ هي جزء من فضاء أشمل وأعمّ، هو الفضاء البصري المرئي الذي يضجّ بكل مكوّنات ما يعرف بميزانسين اللقطة على صعيد السينما، والذي يعادله على مستوى الرواية ما يمكن أن نسمّيه «بالاتّساق الهندسي» أو «المعمار الاجتماعي». أي إنّ أيّاً من الشخصيات لا تظهر بمعزل عن البيئة التي تحيط بها، بصرف النظر عمّا إذا كانت هذه البيئة شارعاً أم حديقة عامة، أم صالة رقص واسعة...إلخ من الأمكنة التي تتحرك فيها. وهنا فإن الروائي يكون قد أوجد الجدل المناسب بين الشخصية وبيئتها، وبينها مجتمعة، للتأسيس للمعمار الاجتماعي المرجو، وهو غاية الصراع والبؤرة التي تلتقي عندها شخصيات الطلاب الثلاثة وهم يشقّون طريقهم إلى الحياة. وبنتيجة هذا التأثر بالسينما أيضاً، فإن الخريجي على الرغم من الإطالة أحياناً، اهتمّ بالناقل الحواري، ثنائياً كان، أم على شكل ديالوج داخلي تخاطب فيه الشخصية نفسها. وهذا الناقل الذي أتى على شكل حوار، أخذ من المحكي سلاسته، وامتلك ناصية الكشف عمّا هو جوّاني. ومن ثم يمكن القول: إن بنية السرد لا تكتفي برؤية الظاهر، وهو مما تغرم به السينما، وربما حاولت الغوص إلى ما تحته، وهو مما تحرص عليه الرواية كفن تعبيري. أي إن رواية «دروس إضافية»، على الرغم من لجّة التفاصيل الدقيقة أحياناً، حافظت على متانة عمودها الفقري، وكسته من تجربتها لحماً، فكأنما نفخت فيه الروح (روائياً)، فأصبح جسداً سوياً مكتمل الخلقة، وبقلّة من العيوب التي تثقل كاهل الرواية التقليدية عموماً.



جورج طرابيشي

وإذا كانت تلك هي أبرز مواصفات السرد، فماذا عن المسرود، أي ماذا يمكن القول بخصوص البنية الاجتماعية في الرواية؟

رصد تجربة الشخصيات

لقد أشرنا إلى أن هذه البنية تتجه إلى رصد تجربة ثلاثة من الطلاب السعوديين يذهبون إلى أمريكا بهدف الدراسة.

هؤلاء الثلاثة هم بندر وعبدالمجيد وسليمان. وباستثناء

عبدالمجيد الذي يحافظ على تماسكه الأخلاقي والديني، فإن الاثنين الآخرين سرعان ما يجرفهما تيار الحياة في (البوكيركي) حيث يدرسون، وهنا فإن المؤلف يكون منذ البدء قد قدم توصيفات لكل شخصية، أصبحت لاحقاً هي الأرضية التي تدور فوقها المواقف والأحداث. ومما يلاحظه القارئ أن هذه التوصيفات ذات السمة الأخلاقية الاجتماعية، تصبح الدافع الأساسي وراء أي اشتباك مع الواقع الجديد. لقد استل الكاتب شخصياته من "البيئة السعودية وقذفها أمام قدرها في مواجهة بيئة لا عهد لها بها. وهي بيئة ضاغطة باتجاه الاندماج فيها، والتعامل معها باستخدام مفرداتها التي يستعملها مجتمع طلابي يقوم على الاختلاط المفتوح بين الرجل والمرأة. ومع أن كلاً من بندر وسليمان سايرا هذا التيار إلى آخر مداه - وهو ما أراده المؤلف لتقديم الدروس الإضافية لهما وللقارئ على حدٍ سواء - إلا أنه (بالإبقاء على عنصر التماسك لدى عبدالمجيد، والمحافظة على أخلاقياته) يضعنا أمام الموازنة عند الحديث عن مصاير شخوصه. فبندر الذي يعود بشهادة البكالوريوس والزوجة الأمريكية (سارا) سرعان ما يواصل رحلة انحداره الذي يحمله المؤلف مسؤوليته، بينما يتأخر سليمان في دراسته، وإن كان هو الآخر يعود بالشهادة والزوجة الفنزويلية ليبدأ رحلته مع الحياة هامشياً إلى أبعد الحدود.

بدا السرد متأثراً إلى أبعد الحدود بلغة السينما، ومع ذلك حافظت الرواية على متانة عمودها الفقري

أما عبدالمجيد الذي لم يستسلم لإغراءات الحياة، فإنه يعود بالشهادة الأولى، ليبدأ رحلته مع الحياة في الوطن، حيث يتزوج، وتكون الخطوة اللاحقة باتجاه إتمام الدراسة في بريطانيا والحصول على شهادة الدكتوراه في الاختصاص الذي اختاره: التاريخ.

إن التوصيفات المشار إليها، والبنية الاجتماعية المفارقة لما هي عليه في أمريكا، حددتا مصاير الشخوص. ولعل الصراع الاجتماعي الذي حرص المؤلف على تفجيره، يمثّل موقع الصدارة في ذهنية الشاب العربي الذي يذهب إلى الغرب للدراسة وحتى للعمل والإقامة هناك، إنه الاصطدام الذي لا بدّ منه للخروج مما أسماها الناقد جورج طرابيشي «عقدة الاضطهاد الجنسي المزمن». وأحسب أن المؤلف الخريجي ما خالف الحقيقة وهو يكشف لنا عن هذه الهواجس منذ البدء، ثم يقدم لنا شخصيتين أثيريّتين (بندر وسليمان) تعيشان في الوهم أكثر مما في الواقع. إنه يبدأ من حيث يفرض علم نفس الأدب البدء.

يبدأ من الأحلام، ومما هو جواني، أي إنه فارق العسف أيضاً. ولعل من أبرز مظاهر هذه المفارقة، أنه ترك كلاً من بندر وسليمان يسير على هواه، وباستسلام كامل لنزواتهما. ولو افترضنا جدلاً تشابه التوصيفات بين الشخصيات الثلاث، لقلنا: إن الروائي أتانا بقالب اجتماعي جاهز، فصب فيه شخصياته، ومن ثم فإنها ستولد ميتة لا روح فيها ولا حياة.

وعليه يمكن القول، أيضاً: إن الرواية لا تقترح بنية اجتماعية جاهزة، وإنما تفعل ذلك من خلال إيجاد جدلها الخاص. وهو جدل يتشظّى في عدة اتجاهات متداخلة. هو جدل بين الشخصية وبنائها المسبق، وهو جدل بينها وبين بيئتها الأصلية (السعودية)، وهو جدل بينها مجتمعة، وبينها وبين البيئة الجديدة المؤقتة في الغالب، ثم هو جدل مع الوطن وكيفية بنائه. إن الدروس الإضافية التي يصبح بندر على سبيل المثال بحاجة إليها، هي تلك التي تأتي خارج ما يرتبط بالدراسة المجردة.

وهذه بحاجة إلى التجربة، وكأن المؤلف في هذا يستعير من الكيمياء نزوعها التجريبي قبل إقرار النظرية والاعتراف بها كقيمة مطلقة. إنه يود القول، في النهاية، بأنه لا يصحُ إلا الصحيح، وإذا كان هذا هو المنطق السليم عند التأسيس للبنية الاجتماعية أيّاً كانت، فإن تجارب الشخصيات الثلاث، تضع القارئ في رحاب الموازنة لاختيار ما هو أفضل: عبدالمجيد وتماسكه أمام النزوات وعدم استسلامه لها، أم بندر وفقدان هذا التماسك والاستسلام للنزوات التي دمرته شخصاً ومستقبلاً، بحيث وجد نفسه من دون الزوجة - الحلم الناصع البياض الذي كان يتخيله باستمرار. لقد حكم الروائي في المحصلة النهائية لعبد المجيد بحياة هانئة يندغم فيها مع وطنه، وهو أيضاً قد أصدر حكمه على بندر بالعذاب الذي لن يستطيع ابنه عبدالعزيز انتشاله منه بعد أن عاد إليه شاباً.

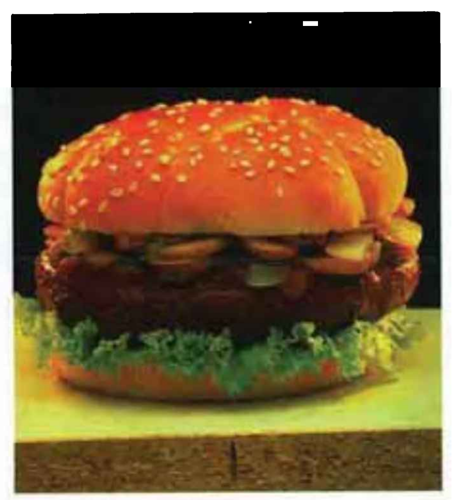
إننا أمام رواية تقول الكثير، وهي تتأجج بالصراع حتى سطورها الأخيرة. رواية تحمل هاجس الوطن والبنية الاجتماعية الغنية بمدلولاتها. ثم إنها، وقبل أي شيء، تقول إن الرواية السعودية بخير، وأنها تتألّق بتطابقها مع الواقع الاجتماعي المعيش.



حول جماليات اللغة العربية والمسميات الأجنبية

ما أذى البيتزا والهمبرجر؟!

اتسع باب «لغة» في عدد الفيصل ٢٧٨ إلى مثالين أساسيين، فبينما نجد باسمة العسلي تبرز جماليات اللغة العربية على مستوى الحروف والأصوات، يفاجئنا السيد أكرم محمود بالمسميات الأجنبية التي تخترق الحياة العربية، وتحديدًا - اللغة - والتي هي وسيلة التفاهم الأساسية في منطقتنا. ويصب في هذا المحور ما أباح به القفاري من إشكاليات النظام المعرفي والقراءات المعاصرة. على أن نظام المعرفة لا يعتمد على الإيحاء المرئي والمسموع وحسب، بدلالة وجود نظام «برل» لتعليم العميان، ووجود لغة الإشارة التي يعتمد عليها الخرسان. كما يتضح لي أن الخط العربي الحالي، تعرض بدوره إلى تنقيح مستمر، وربما كان هنالك خلاف في كتابة بعض الحروف بين المشارقة والمغاربة. وباختصار شديد، فإننا لم نعد نسمع بالخط المسند، والذي نجد إشارات له في كتاب الأغاني، في أخبار المرقش، وأخبار أبي الطمحان القيني، ولم نعد نكتب كل الحروف كما هو وارد في المصحف الشريف.



فتعدد البشر، وتفرقهم، ومسألة تبلبل الألسنة مسألة قديمة لا يعرف لها أحد تاريخًا مضبوطًا مؤكدًا، ولكننا جميعًا نعترف بأن الشيء الذي نشربه هو الماء عندنا، ولكنه WATER عند الإنجليزي، و H2o عند الكيميائي أي لغة العلم. والمسألة الأخيرة هي مربط الفرس. وقد نجحنا إلى حد ما في تعريب المعادلات، إلا أن الكثير من الأسماء مازالت تلاحقنا لعدم وجود ما يقاربها في العربية. فما البديل عن حلقة البنزين، أو عن قاعدة البيراميدين أو عن الحمض الأميني ثريتوفان؟ ويقال: إن هنالك نحو أربعة ملايين مادة كيماوية تتجول بيننا، ولكنّا لا نستعمل أو نعتمد إلا على عدد محدود، وأما الباقي فتعتمد عليه المعامل والشركات في الصناعة.

وكان العربي الذي لم يتح له الاختلاط بالأجنبي، كالعربي في عصر ما قبل الإسلام، متفوقًا في التعبير عمّا يصادفه. أجاد وصف الخيل، والنوق، وأدوات الحرب والصيد وما إلى ذلك، حتى الظباء والقطاة أجاد وصفها وقدّم لنا معارف جيدة يستطيع أن يعتمد عليها علماء الأحياء. وعندما اختلط بالمجتمعات الأخرى اضطر إلى الاستعانة بإنتاجها المادي واللغوي. عبدالله بن جدعان الجاهلي يعمم صنع الفالوذج الذي اشتهر به الفرس. ولكن الفالوذج بقي، وسيبقى اسم بيتزا هات لأنه طبق ليس من صناعتنا في الأساس، ولا يستطيع أحد إطلاقًا أن يلغي طبق التبولة أو المجدرة.

على أنه من المؤكد أن لغات بعض الأقوام الآخرين، كالفرس والسريان، قد أخذت لها موقعًا في العربية لا مجال لإنكاره، وعلينا أن نحترم السندس والإستبرق الموجودين في القرآن الكريم.

وتخضع التقنيات المعاصرة لقانون ماندل، فبعض مخترعاتهم ذات صفة قاهرة يصعب التخلي عنها مهما حاولنا من جهد. فلو أخذنا تقنية المركبة، على سبيل المثال لوجدنا أنه يصعب علينا التخلي عن

البنشر، والأكسموست، والدسبراتور، لأن الجراجات (مرآبات إن شئتم) ما استطعنا أن نضع لها بديلاً عربياً، فهي تقنية مستوردة ولا بد من طلبها من القوم وبلغتهم. وحتى لو حاولت أن تستعمل البديل لكلمة «بريك»، كما هو موجود في معجم المورد، فإن العامل لن يفهم ما تقوله، وستجد نفسك مضطراً إلى اللحاق برغبته وتعبيره. وأحياناً نجد أن بعضهم كرنش بعض الألفاظ مع وجود ما يقابلها.. مثل هورن بدلاً من زامور. وتعدت الكرنشة على المصطلح الأصلي، فالـ CHOHOL COHOL، نكتبها كحول، مع أن حرف الحاء غير موجود بالإنجليزية. بينما نجد أن بعض المصطلحات خضعت للمألوف العربي. كالمروحة والمطحنة. باختصار شديد، فإن الاختراع التقني فرض نفسه علينا كثيراً. وقد تمكنا من مواجهة ذلك أحياناً. فالشوكة الرنانة هي ترجمة حرفية لـ: TUNNING FORK والملعقة هي ترجمة إلى SPOON، على أن يرد أن اللغة الأجنبية استعانت أيضاً بالعربية، وهناك الكثير من الكلمات التي مازالت مثبتة في لغتهم وهي ذات أصول عربية، توجد في المورد مجموعة منها. وظني، أننا لو سبقنا إلى اكتشاف الراديو أو التلفاز وصنعناه عندنا، لأوجدنا له الاسم اللائق به، كالذي اخترعه الأخ أكرم مثلاً. وأنا أنظر إلى ذاتي، عندما كنت طفلاً، ألعب إلى جوار أبي وهو يضع «عيدان الحراثة»، فقد كان نجاراً مختصاً بها (ليس نجاراً إفرنجياً، أو طوبرجياً)، فعرفت كل شيء يلزم لصناعة العود: الكابوسة، الناطح، الوصلة، العبوة إلخ.. ولكنّ كل ذلك سيموت بعد أن أخذنا نعتمد على الآلة.

ونسأل الآن: ما الأذى الذي يلحق بنا من استخدام كلمة بيتزا أو همبرجر؟ وإذا كان هناك أذىً ما فلماذا نستقدمهما؟.



فالمكيف مثلاً، فرض نفسه، وقد استطعنا أن نتقبل المصطلح العربي، وذلك لأن التكيف عملية قديمة قد استخدمها الطبيب السرياني ابن بختيشوع في العصر العباسي. ولكننا لا يمكن أن نترك «راديو» لو اجتمع كل العالم علينا وقدم لنا أي مصطلح أليق وأشكل. ومع ذلك، فقد عربنا الكثير من المصطلحات، الطائرة السمتية بدلاً من الهليوكبتر، ولكن سنبقى نتزود بهذه الطائرة من الغرب، ولنا أن نسميها بالطائرة السمتية، أو العمودية.. ما شئنا. ولقد تمكنت سوريا من تعريب الكثير من العلوم، فهل حذت حذوها سائر الجامعات العربية؟.

لن أطيل في هذا الموضوع، فإن الأصل عندي هو «الريادة» في البحث العلمي والاختراع التقني. الحصبة التي عرفناها من قبل، وذكرها جران العود في شعره، ستبقى الحصبة حتى لو تدافعت كتب الإنجليز الواحد تلو الآخر. ولكن لماذ يصر طبيب حديث على استخدام الهربز، مع أنه يوجد مصطلح العقبولة؟ ومع أن هذا الطبيب متحمس للعربية والإسلام...

أرى أنه لا بأس من الترويج للمصطلح العربي، ولكن الأساس هو محاولة السبق صوب الابتكار التقني ذاته، فسيظفر ذلك بالمصطلح العربي اللازم، وسيلصق به لصوق الطفل بأمه. ومع ذلك فإنه لابد من وجود جهة متخصصة تنوب عن هذا الشتات العربي، ويكون لها نشاط دائب وشامل، ويعالج الأمور من البدايات. ولا مناص من ذلك. ولابد أيضاً من مواجهة عاجلة لقضايا التطبيع السائدة، والترويج للأجنبي: فلتر، ميني ماركت، بارك، أوتو ستوب، أوكي، هاللو، وغير ذلك الكثير.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

د. محمود عبدالعزيز الزعبي

إربد - الأردن ص.ب ٢٨٤.

ردًا على خنوس يعقوب

إنها عامية تنخر في اللسان العربي !!

استوقفني تعقيب الأستاذ الكريم خنوس يعقوب بن محمد المنشور في العدد ٢٧٨ على مقالة الأستاذ عبدالله بن سليم الرشيد المنشورة في العدد ٢٥٧ المتضمنة جملة من الأخطاء الشائعة في كتابة الأعلام.

والحق أن تعقيب الأخ خنوس كان مبالغًا فيه، وغضبه من المقالة لم يكن له ما يسوّغه، فالأستاذ الرشيد لم يقصد الإساءة إلى أحد، وإنما كان يعرض الخطأ بموضوعية، وينبه عليه، ويذكر مكان وقوعه وانتشاره، ثم يشير إلى الصواب وهكذا. وكان من ضمن ما عرض، الخطأ الشائع الذي يقع فيه إخواننا في المغرب العربي عندما يصلون كلمة «ابن» بما بعدها في الكتابة، ووقوع هذا الخطأ معروف عند إخواننا، وكونه خطأ أمر لا يختلف فيه اثنان، وحتى الأخ خنوس اعترف بذلك عندما قال: (إن قول الكاتب «وصل كلمة «ابن» بما بعدها في الكتابة، وهي ظاهرة تشيع عند المغاربة فتجدهم يكتبون: محمد بنعيسى، وبنيونس، وهكذا، وصارت تكتبها بخطئها الأصلع» لا يجانب الحقيقة ألبتة).

لكنه راح - في مكان آخر من المقالة - يناقض نفسه، ويزعم أن هذا الخطأ اتهام باطل لا أساس له من الصحة، وسأل: كيف تحصل الكاتب على هذه الصيغة؟!

ثم راح الأخ خنوس يكيل التهم الغريبة إلى الأستاذ الرشيد، ويتجنى عليه، ويتهمه بالتجني على العلم باسم العلم؟! وأنه كال المغالطات، وتجنى على أمة يفوق عددها التسعين مليون مسلم!! وراح الأخ خنوس يتحدث عن اللهجات المنتشرة في المغرب العربي، وكيف أن بعضها يباين بعضًا، حتى أصبح لكل قبيلة لسان خاص بها، و«لغة» تتفرد بها، وكأنهم - جميعًا - ليسوا أمة واحدة يجمعها اللسان العربي الذي به يتخاطبون، ويفهم بعضهم بعضًا على تلك اللهجات التي لا تمت للعربية بصلة، وكيف أصبحت تلك اللهجات ردًا على مقالة الأستاذ الرشيد؟!.

والواضح أن الأخ (خنوس) لم يفهم المراد المقصود من مقالة الأستاذ الرشيد، لذا راح يتهجم - دون وجه حق - وهذه مع الأسف مشكلة مزمنة في الأقلام!!

إن الأستاذ الرشيد كان يتحدث عن اللغة العربية الفصحى التي يتحدث بها العرب من المحيط إلى المحيط، والأخطاء التي ذكرها إنما كانت أخطاء في اللغة العربية، أما ما راح الأخ خنوس يتحدث عنه فهو أشلاء لهجات «عامية» ما أنزل الله بها من سلطان، والحق أن الأخ(خنوس) «أراد أن يكحلها فأعماها!!» إذ أراد أن ينفي الخطأ عن أهل المغرب العربي فجاء بأخطائهم الفاضحة التي كنا على جهل بها، وإلا كيف انمسخ ضمير المخاطب فأصبح تخاطب به الأنثى؟! والعكس؟! وكيف أصبحت «ما بك» «شابيك»؟!، و«نعم» «واه»؟! وهلم «شرا»!!

وأي تجنٍ على الحقيقة أعظم من تسويغ هذه الاستعمالات الخاطئة بحجة اختلاف النمط البيئي، والتركيبة الاجتماعية، وتأثيرات أخرى؟! إن ما تحدث عنه الأخ خنوس هو عامية مقيتة تنخر في اللسان العربي، وتكاد تجهز عليه، هي عندهم في المغرب، وعندنا في شبه الجزيرة العربية، وفي الشام ومصر، وغيرها من بلدان أمتنا العربية، وكان الأحرى بالأخ خنوس أن ينكرها، وينفر منها كما فعل الأستاذ الرشيد، وألا تأخذه العصبية لقومه فيقرهم على خطئهم، ولو تأملنا مقالة الأستاذ الرشيد لوجدناها مشرقة بالموضوعية، فهو قد ذكر أخطاء يقع فيها ساكنو جنوب المملكة والشام وغيرهما - إضافة إلى المغرب العربي، وكان من المفترض أن يضع الأخ خنوس يده في يد الأستاذ الرشيد في سبيل الحفاظ على لغتنا الأم لغة القرآن، ومصدر فخرنا وتميزنا، دون الحاجة إلى الدخول في نقاش حول أمور تبرأ الموضوعية منها، ولكنها أزمة التعصب المقيت والفهم بالهوى - أعاذنا الله منها -.

ختامًا أشكر الفيصل المنبر الحر - أن أتاحت لي هذه الفرصة، وأسأل الله التوفيق للجميع. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

صالح بن عبدالعزيز المحمود

ص.ب ١٧٣ الرياض ١١٣٤٢ - السعودية

ردًا على طه عبدالرحمن محمد علي

الإعلام الإسلامي وتكنولوجيا الاتصال: عرض لا يفي بالغرض

الإعلام الإسلامي وتكنولوجيا الاتصال

طالعت في العدد ٢٧٣ من مجلة الفيصل مراجعة الأستاذ طه عبدالرحمن محمد لكتاب «الإعلام الإسلامي وتكنولوجيا الاتصال» للدكتور عبدالعزيز شرف، وقد ترددت كثيرًا في إيجاد العبارات الملائمة للرد.

قبل البدء - أقول بكل صراحة - كنت أتمنى أن يتسم ركن قراءات بالانتقاء عن بصيرة للكتب المعروضة لمساعدة القارئ على تكوين فكرة حقيقية عن مضمون ما يعرض من إنتاج فكري، وحتى يتسنى للمتابعين الحكم على المؤلفات: هل هي جديرة بالقراءة؟ وأين تكمن مواطن القوة والضعف فيها؟

ما آسف له أنني لم أجد في مراجعة الأستاذ طه أي شيء من ذلك كله، مع أن الفيصل عودتنا تقديم المادة الإعلامية التي تسد رمقنا، وتجيب عن أسئلتنا الفكرية.

فقد وجدت الأخ المراجع يقدم مادة الكتاب كما لو كانت مسلمات وحقائق لا يدانيها أي شك.

يقول المؤلف:«..إن الإعلام يعد تعبيرًا موضوعيًا، وليس ذاتيًا من جانب الإعلامي...»، هذا الكلام من العسير أن تجد له أثرًا في واقع المذاهب الإعلامية السائدة اليوم في العالم، لأنه إذا سلمنا بقول المؤلف نكون قد نزعنا عن العملية الإعلامية لباس التحيز والتحريف والتشويه والمنظور، وبمعنى أدق معيار القيم الإخبارية، وألغينا دور الحارس على الذاكرة الجماعية في الوسيلة الإعلامية.

وأشير هنا إلى قول مؤلفي كتاب «دليل الصحفي في العالم الثالث»: «... ولكن حتى إذا منحت قدرًا كبيرًا من الحرية من جانب أولئك الذين تعمل لصالحهم فسيكون عليك أن تتعامل مع أولئك «الرقباء» أو «المشوهين» الكامنين الذين يسكنون في عقلك والذين يجعلونك تصوغ تصورك للحياة بأساليب معينة وبألوان معينة».

وكذلك إذا جارينا كلام الدكتور عبدالعزيز شرف فأين نضع الافتتاحية EDITORIAL كنوع إعلامي يعبر عن رأي المؤسسة الإعلامية.

وينقل المراجع قول صاحب الكتاب كمسلمات، ومن ذلك مثلاً: «... ولذلك، فإن الإعلام يخاطب العقول لا الغرائز...»، بيد أنه لم يعد يخفى على كل ذي بصيرة أن الإعلام بشتى أصنافه يؤثر في الناس ويحرض الغرائز فور التعرض لمواده... فكم من بحث إعلامي، وكم من حكم قضائي أثبت أن عددًا من الجرائم قد أعقب عمليات مشاهدة أفلام العنف، وأن اعتداءات جنسية قد جاءت بعد التعرض لأفلام الجنس.

وهنا نتساءل أكان التأثير عقليًا أم غريزيًا؟!

ويقول المؤلف أيضًا: «... ومازالت التقنيات الاتصالية الحديثة مصادر ذات مضامين خافية على بعض الناس، ولم يدرس تأثيرها في المستويين العام والخاص...».

والواقع يكذب هذا القول، فدراسات التأثير تكاد تظهر بمعدل دراسة واحدة في العالم في اليوم، ويخصص الباحثون الجامعيون جل دراساتهم لمسألة التأثير، كما تجري الجمعيات والهيئات المعنية تحقيقات ميدانية لا حصر لها.

وعندما قرأت قول المؤلف: «إن الإعلام الإسلامي لا يصطدم بطبيعة الإنسان وخصائصه الثمينة، ولا يحطمها ولا يكبتها...»، أجد نفسي - مع اختصاصي في الإعلام - أمام معادلة فيزيائية يصعب عليّ فك رموزها، فكيف يكون الأمر بالنسبة إلى القارئ غير المطلع.

أما العبارة التي تعذر علي ربط دفتيها والتي جاءت في شكل سؤال وجواب، فهي: «يسأل المؤلف: هل التعليم الإعلامي السائد في العالم العربي اليوم يساعد الطلاب على استيعاب المنافع واكتساب المهارات في التعامل مع (التكنولوجيا)؟» ويجيب: «إنه من الصعب بالنسبة إلى علوم الاتصال أن تؤسس شرعيتها على هذا المشروع الذي يعتمد على توحيد المعارف الإنسانية، ولا سيما أن عددًا لا بأس به من الأنظمة قد بدأ يدخل الاتصال في مجاله منذ الأربعينيات، إلى جانب الأنظمة التقليدية التي تطرقت إلى دراسة الاتصالات».

نور الدين بليبل - أستاذ إعلام

حي ساقية - سيدي يوسف - عمارة ١٤٢ رقم ٩٢٧
قسنطينة - الجزائر.



انطلاق فعاليات الرياض عاصمة
الثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م

مهرجان الجنادرية
في دورته الخامسة عشرة

منح جائزة الملك فيصل العالمية
لخدمة الإسلام للأزهر

افتتاح مركز الملك عبد العزيز لدراسات
العلوم الإسلامية في بولونيا

ندوة مكانة الوقف وأثره
في الدعوة والتنمية

رحيل الندوي والعويس والصافي
وأوبريان وهيبير

المؤرخ البريطاني إيرفينج يقاضي
منتقديه لإنكاره «محرقة اليهود»



خاتمة المطاف:

الحلي
والمصوغات
الذهبية في
الآثار السورية

انطلاق مهرجان الجنادرية في دورته الخامسة عشرة

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رعى صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني، في ٢٦ شوال الموافق ٢ فبراير/ شباط الماضي انطلاقة فعاليات المهرجان الوطني للتراث والثقافة «الجنادرية» في دورته الخامسة عشرة.

تضمن حفل افتتاح المهرجان سباق الهجن الرئيس، والحفل الخطابي والفني وتكريم الشخصية الثقافية السعودية لهذا العام وهو الفريق المتقاعد يحيى عبدالله المعلمي، وقصيدة للشاعر الدكتور صالح بن سعيد الزهراني وقصيدة نبطية للعميد خلف بن هذّال العتيبي، وعرض الأوبريت الغنائي الذي كتب كلماته عبيد دخيل الله الدبيسي ولحّنه صالح الشهري بمشاركة نخبة من الفنانين السعوديين هم: طلال مداح ومحمد عبده وعبادي الجوهر ورابح صقر وخالد عبدالرحمن وراشد الفارس.

المحور الرئيس للنشاط الثقافي لهذا العام بعنوان «الإسلام والشرق» يتكون من مجموعة من الندوات هي: «الخلفيات التاريخية للعلاقات بين الإسلام والشرق» و«الأسس المعرفية والفلسفية للإسلام والفكر الديني في المشرق»، و«الجهود السعودية في خدمة الإسلام في الشرق»، و«الاستراتيجيات الاقتصادية والوطنية والدولية في الشرق ودور الإسلام فيها»، و«آفاق العلاقة بين العالم العربي والعالم الإسلامي من جهة والعالم المسيحي من جهة أخرى»، و«علاقات الشرق مع الوطن العربي»، و«التقريب بين المذاهب الإسلامية واحتواء الصراعات المذهبية»، و«العولمة والوطن العربي»، إلى جانب عدد من الندوات الشعرية بمشاركة شعراء سعوديين وعرب.

ويختم النشاط الثقافي فعالياته بأمسية شعرية لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير.

ويصاحب المهرجان أيضاً معرض للكتاب ومسابقات ثقافية، وعروض مسرحية، وعروض للفنون التشكيلية، ومازالت فعاليات المهرجان مستمرة حتى مثول المجلة للطبع، حيث ستتم تغطيتها كاملة في العدد القادم بإذن الله.



سمو الأمير عبدالله لدى رعايته المهرجان

منح جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام للجامع الأزهر

برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، عقد اجتماع لجنة جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام مساء يوم السبت العاشر من رمضان سنة ١٤٢٠هـ الموافق ١٨ ديسمبر الماضي عام ١٩٩٩م بمقر المؤسسة بمدينة الرياض، حيث تقرر منح الجائزة لهذا العام للجامع الأزهر بجمهورية مصر العربية. وجاء في حيثيات هذا الاختيار ما يؤكد تقدير الخدمات الجليلة التي يقدمها الأزهر للعالم الإسلامي والتي منها:

- «أنه كان ومازال مأوى لآلاف الطلاب للتعلم الديني.
- له دور كبير في حفظ التراث العربي الإسلامي.
- قاوم محاولات التغريب وأدى دوراً كبيراً في تعميق الأصالة الإسلامية العربية.
- قام ومازال يقوم عبر جامعته وفروعها ومعاهده داخل مصر وخارجها بجهود عظيمة في سبيل نشر الإسلام وتعليم أحكامه ونشر اللغة العربية».



الشيخ سيد طنطاوي

وقد حضر هذا الاجتماع نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله الفيصل رئيس مجلس الأمناء، صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير والمدير العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية، وسمو الأمير بندر بن سعود بن خالد الأمين العام للمؤسسة، ومعالي رئيس مجلس الشورى الشيخ محمد بن إبراهيم بن جبير، والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي الدكتور عز الدين العراقي، والأمين العام لرابطة العالم الإسلامي الدكتور عبدالله العبيد، والأمين العام لجائزة الملك فيصل العالمية الدكتور عبدالله بن صالح العثيمين.

وتعد هذه أول مرة يتم فيها منح الجائزة لإحدى المؤسسات الإسلامية، إذ حصل عليها منذ تأسيسها في عام ١٣٩٧هـ وبدء منحها في عام ١٣٩٩هـ، عدد كبير من الشخصيات العربية

والإسلامية وهم: السيد أبو الأعلى المودودي حيث فاز بها عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، والسيد أبو الحسن علي الحسني الندوي (بالاشتراك) عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، والدكتور محمد ناصر (بالاشتراك) عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، وجلالة الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز عام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، والشيخ حسنين محمد مخلوف (بالاشتراك) عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، وتنكو عبدالرحمن (بالاشتراك) عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، و عبد رب الرسول سياف عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، وأحمد حسين ديدات، والدكتور رجاء جارودي (بالاشتراك) عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، والشيخ أبو بكر محمود جومي عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، والدكتور أحمد دوموكاو ألونتو عام ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ومحمد الغزالي عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، والشيخ علي الطنطاوي، والدكتور خورشيد أحمد (بالاشتراك) عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، والدكتور عبدالله بن عمر بن محمد نصيف عام ١٤١١هـ/١٩٩١م، والدكتور حامد الغابد عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، والرئيس علي عزت بيجوفيتش عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، والشيخ محمد بن صالح العثيمين عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، والشيخ جاد الحق علي جاد الحق عام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، والدكتور عبدالرحمن حمود السميط عام ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، والدكتور محاضر بن محمد عام ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، وفخامة الرئيس عبدو ضيوف رئيس جمهورية السنغال عام ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، والأستاذ جمعة الماجد عام ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

والمعروف أن جائزة خدمة الإسلام فرع من خمسة فروع تضمها «جائزة الملك فيصل العالمية» وهي تمنح «لكل من يخدم المسلمين ويرتقي بهم ويساعدهم على مواكبة العصر واستيعاب مستجداته».

وصرح الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر أن قيمة هذه الجائزة، والتي تبلغ ٢٠٠ ألف دولار، ستنفق على بناء المعاهد الأزهرية وترميمها.

وأكد أن حصول الأزهر على هذه الجائزة يمثل تقديراً كريماً من المملكة العربية السعودية ممثلة في خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - حفظه الله - الذي عرف بحبه للإسلام وللعلم والعلماء ليس في المملكة فقط، بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

الأمير سلطان يفتتح مركز الملك عبدالعزيز لدراسات العلوم الإسلامية في جامعة بولونيا



سمو الأمير سلطان في مركز الملك عبدالعزيز بجامعة بولونيا

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام يوم الإثنين العاشر من شوال الموافق ١٧ يناير الماضي مركز الملك عبدالعزيز لدراسات العلوم الإسلامية في جامعة بولونيا الإيطالية التي تعد من أعرق الجامعات في أوربا.

وأقيم بهذه المناسبة حفل خطابي حضره وزير الدفاع الإيطالي سيرجيو ماتاريلا ورئيس جامعة بولونيا الدكتور فابيو روفرسي موناكو والدكتور حسن سورافيا رئيس قسم الدراسات الشرقية بجامعة بولونيا.

تحدث في بداية الحفل رئيس جامعة بولونيا مقدماً شكره لصاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز لزيارته للجامعة ولتبرعه بإنشاء هذا المركز، متناولاً أهمية إقامته لخدمة الثقافة الإسلامية والعربية وتطرق للمجالات التي سيهتم المركز بدراستها.

ثم تحدث في الحفل صاحب السمو الملكي الأمير سلطان مشيراً إلى ما قامت به جامعة بولونيا من إنشاء مركز الملك عبدالعزيز، وقال: إن ذلك يعد خطوة موفقة ونقلة حضارية أورثت الرضا في النفوس، وإن إطلاق اسم الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - على هذا الصرح لهو لفتة رائعة ولمسة توضح بكل جلاء ما كان عليه - يرحمه الله - من حرص شديد وتمسك بدين الله وتقديمه لأمر الله على غيره، وجهوده في سبيل إعلاء كلمة الإسلام وتبني قضايا المسلمين في أنحاء المعمورة كافة، وتمنى سموه أن يستلهم المركز هذه السيرة العطرة في خدمة العقيدة الإسلامية، وأن يكون نافذة واسعة، ونقطة إشعاع تضيء لتبيين ما حفلت به الشريعة

الإسلامية السمحة من أحكام وقواعد ومبادئ وأسس تحكم قيام المجتمعات، وتحافظ عليها وتصونها.

وتعد جامعة بولونيا من أقدم الجامعات، ليس في إيطاليا فقط، وإنما في أوربا قاطبة، وقد أسست في بداية القرن الحادي عشر الميلادي، ويوجد فيها ١٧ كلية، ويدرس فيها نحو مئة ألف طالب من مختلف أنحاء إيطاليا، ويعمل بها عدد من الأساتذة الجامعيين المعروفين على نطاق العالم.

انطلاق فعاليات الرياض عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م

تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة الرياض، انطلقت بقاعة المؤتمرات بمبنى الرئاسة العامة لرعاية الشباب بالرياض، صباح السبت ١٥ شوال سنة ١٤٢٠هـ الموافق ٢٢يناير/كانون الثاني الماضي عام ٢٠٠٠م فعاليات برامج الرياض عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م.

وألقى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، كلمة بهذه المناسبة قال فيها: إن انتخاب الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م جاء والرياض لا تزال في نشوة احتفالاتها بمئويتها الأولى، لتتوالى أفراحها، وتتوالى مسيرتها المعطاء، وقدم شكره لكل من ساهم في هذا الاختيار منوهاً بالدور الكبير الذي قام به صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز - يرحمه الله - الرئيس العام السابق لرعاية الشباب وتبنيه هذا المشروع أمام وزراء الثقافة العرب في الشارقة، كما أشاد بدور صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب وسمو نائبه الأمير نواف بن فيصل في مواصلة المسيرة والعطاء في رعاية الشباب والعناية بهم، وأعلن في ختام كلمته انطلاق برامج «الرياض عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م».

كما تحدث في الاحتفال أيضاً صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب رئيس اللجنة العليا المنظمة لبرامج الرياض عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م مشيداً بالعناية الكبيرة التي يوليها صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة الرياض، لمدينة الرياض حتى أصبحت مدينة حديثة ترفل في حلل عصرية محافظة على الأصالة في آن واحد، كما أشاد بالدور الكبير الذي قام به صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز - يرحمه الله - في تحمل هموم الثقافة في المملكة، إذ كانت هاجسه الأول، وكان شغوفاً بها، حفياً بمفكريها ومبدعيها، مشجعاً روادها مرتاداً



سمو الأمير سلمان وسمو الأمير سلطان بن فهد

أعراسها ومغانيها، كما أنه استطاع - يرحمه الله - أن يزاوج بين الرياضة والثقافة تحت سقف واحد، وأن يطوّع معطيات كل منها لمصلحة الشباب لتستثير طموحاته وملكات الإبداع لديه.

وأعلن سموه في ختام كلمته خلاصة أعمال اللجنة من البرامج والفعاليات التي ستكون بداية عمل هذه المناسبة معلناً عن ترحيب اللجنة بمشاركات القطاعات الحكومية والجمعيات والهيئات والشركات والمؤسسات والأفراد، والتي ستتم جدولتها ضمن أعداد الكتاب الشهري الذي سيصدر تباعاً، إن شاء الله، كما سيتم إصدار كتاب توثيقي بلغات مختلفة يوزع على نطاق واسع داخل المملكة وخارجها ليكون مرجعاً دقيقاً لإنجازات هذا الحدث التاريخي.

وأعرب المدير العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» كويتشيرو ماتسوورا عن سروره أن تكون المملكة العربية السعودية أرض مكة التي هي مهد الإسلام الذي يمثل إحدى الديانات الكبرى للبشرية، أولى المحطات التي يزورها رسمياً بعد أن تولى هذا المنصب، وأشار إلى أن المملكة تعد من أعرق حلفاء اليونسكو، ومن أشدهم التزاماً بها في قضايا التربية والعلم والثقافة، كما أعرب عن شكره وامتنانه لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز وسمو ولي عهده الأمين على ما لقيه من حفاوة وترحاب.

وتحدث المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم محمد الميلي عن مدينة الرياض حاضرها وماضيها، كما تحدث عن جهاد الملك عبدالعزيز طيب



شعار الرياض عاصمة الثقافة

الله ثراه ـ والعبر والدروس التي نخرج بها من استقراء سيرة هذا الرجل الفذ.

وتحدث الدكتور محمد عبده يماني، نيابة عن الأدباء والمفكرين مشيراً إلى أهمية الثقافة في حياة كل فرد وحياة كل مجتمع، وتطرق إلى الأبعاد التي تتمثل في برنامج العواصم الثقافية.

وعقب ذلك ألقى الدكتور أحمد عثمان التويجري قصيدة بهذه المناسبة، قام بعدها صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة الرياض، بإزاحة الستار عن مجسم شعار الرياض عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، ثم قدم صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن فهد هدية تذكارية لصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز ولعدد من الضيوف.

والمعروف أن الاستعدادات للاحتفال بهذه المناسبة، التي ستستمر عاماً كاملاً، قد بدأت منذ وقت مبكر حيث جرى التحضير لمشاركة عدد كبير من القطاعات المختلفة بلغ عددها ٦٣ جهة حكومية وخاصة، منها ١٣ وزارة، و ٢٥ هيئة ومؤسسة حكومية، و ٩ منظمات إقليمية ودولية، وجمعيات ثقافية، و ٨ من الشركات والمراكز، و ٨ من المدارس الأهلية. وستقدم هذه القطاعات نحو ٤٨١ برنامجاً ثقافياً، ستنفذ داخل الرياض وخارجها.

ومن المقرر أن تستضيف الرياض ضمن فعاليات اختيارها عاصمة للثقافة العربية، اجتماعاً لوزراء الثقافة والشباب في الدول العربية في نوفمبر/ تشرين الثاني القادم، واجتماعاً مماثلاً لوزراء الثقافة والشباب في الدول الست الأعضاء بمجلس التعاون الخليجي يعقد في مايو/ أيار القادم.

وثائق تاريخية وصور قديمة من الشيخ جاسم آل ثاني لمكتبة الملك فهد الوطنية

أعرب صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض المشرف العام على مكتبة الملك فهد الوطنية عن شكره وتقديره لسمو الشيخ جاسم بن سعود بن عبدالرحمن آل ثاني إثر تلقي المكتبة هدية سموه المتمثلة في مجموعة من الوثائق التاريخية الأصلية والصور الفوتوغرافية القديمة التي تعد إضافة قيمة لمقتنيات المكتبة لما لها من صلة وثيقة بتاريخ المملكة، وتؤكد العلاقات المتميزة بين قادة المملكة العربية السعودية وشقيقتها دولة قطر.

وتضم المجموعة سبع وثائق أصلية تغطي جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عهد الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ منذ عام ١٣٤٣هـ، وثلاثاً وستين صورة فوتوغرافية قديمة لقادة الدولتين من الملوك والأمراء تبرز اللقاءات والزيارات التي تمت في مناسبات وفترات مختلفة خلال خمسين عاماً تقريباً.

ندوة عن «مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية»


سمو الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز

رعى صاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة المكرمة صباح الثلاثاء ١٩ شوال سنة ١٤٢٠هـ الموافق ٢٥ يناير / كانون الثاني الماضي بفندق الشهداء بمكة المكرمة، الندوة التي نظمتها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بعنوان «مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية».

وتطرق سموه في كلمة الافتتاح إلى عناية الإسلام بالفرد وتحدث عن مكانة الوقف عبر الحقب الزمنية التي مر بها المجتمع المسلم عبر مراحل التاريخ الإنساني، ونوه بأهمية الوقف ودوره في دعم مسيرة الدعوة إلى الله ودعم عجلة التنمية في المجتمع المسلم اقتصادياً وثقافياً وصحياً وجميع ما يحافظ على حيوية المجتمع وازدهاره.

وقد تواصلت جلسات هذه الندوة مدة ثلاثة أيام عقدت خلالها تسع جلسات شملت عدة محاور: أهمية الوقف في نشر الدعوة وتوجيه المجتمعات، ومكانة الوقف وتشجيع الحركة العلمية، وخدمات البحث العلمي، وأهمية الوقف في الرعاية الصحية، ودور الوقف في دعم المؤسسات الإنتاجية، والوقف في خدمة الإعلام الإسلامي، وإسهام الوقف في دعم الاقتصاد وتنمية المجتمع، وأهمية الوقف في التخفيف من أعباء النفقات العامة في البلدان الإسلامية، واهتمام الملك عبدالعزيز رحمه الله بدعم الأوقاف ورعايتها، وتمت زيارات ميدانية لمؤسسات وقفية وأقيم معرض مجسمات وصور عن الأوقاف والبنك الإسلامي للتنمية.

وخلصت الندوة في ختام أعمالها إلى عدد من التوصيات منها: اتخاذ كلمة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز آل سعود أمير منطقة مكة المكرمة وكلمة معالي وزير الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ في حفل افتتاح الندوة وثيقتين من وثائق الندوة والإفادة مما ورد فيهما من توجيهات، وبيان فضل الوقف، وحث الناس

والعمل على توسيع مجالات الوقف لكي تشمل جميع احتياجات المجتمع المسلم في هذا العصر من خلال الوسائل الدعوية والإعلامية المختلفة والعمل على إيجاد صيغ ومجالات جديدة للوقف والتعريف بها وحث الموسرين على الإيقاف في المجالات العلمية والتعليمية والإعلامية والاجتماعية والصحية وغيرها من المجالات، والعناية بنشر تراث أئمة الدعوة من الرسائل والفتاوي وإبراز دورهم في توجيه الناس وإرشادهم في مجال الأوقاف واقتفاء أثرهم في وقف الوقوف على الدعوة إلى توحيد الله، ونبذ الشرك والبدع ووسائلهما، والاستمرار في تنظيم الندوات واللقاءات العلمية المتعلقة بالأوقاف بصفة دورية وإشراك المعنيين من العلماء ورجال الأعمال العاملين في مجال إدارة الأوقاف فيها.

والجدير بالذكر أن مشروع ندوات الأوقاف لعام ١٤٢٠هـ يرمي إلى التأهيل لمفهوم الوقف ومكانته في الشريعة الإسلامية وتوعية المجتمع بأهمية الأوقاف الخيرية، وفضل الإسهام في أوجه الوقف المختلفة وطرح صيغ جديدة للوقف بما يتناسب مع متطلبات العصر وتتبع الوقف عبر التاريخ الإسلامي وإلقاء الضوء على وظائفه قديماً وحديثاً، وتوكيد أهمية الوقف في نشر الدعوة إلى الله وتوجيه المجتمعات وإبراز دور الوقف في دعم الاقتصاد الوطني وتنمية المجتمع ورصد الآثار المباركة للعمل الوقفي على الفرد أو المجتمع المسلم ،وإبرازها، وبلورة خطة إعلامية لإذكاء الوعي بمسؤولية الأفراد والمؤسسات عن الوقف وضرورة تنمية المحافظة عليه.

وقد أعرب معالي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد رئيس مجلس الأوقاف الأعلى الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ عن شكره وتقديره للرعاية الكريمة التي أولاها صاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز آل سعود أمير منطقة مكة المكرمة لهذه الندوة منوهاً بالرعاية المتواصلة من سموه لمناشط الوزارة وأعمالها كافة.

وأضاف معالي الوزير أن وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد كانت قد استهلت مشروع ندوات الأوقاف لهذا العام ١٤٢٠هـ بندوة «المكتبات الوقفية في المملكة» التي عقدت في رحاب المدينة المنورة، وحققت بحمد الله تعالى الهدف من إقامتها وأثمرت نتائجها عدداً من التوصيات التي ستعود بمشيئة الله تعالى بالفائدة على تطوير المكتبات الوقفية وإحياء الحياة الثقافية، وكانت الثانية في مكة المكرمة، وستعقد الندوة المقبلة بالرياض في شهر محرم القادم ١٤٢١هـ بعنوان «الوقف في الشريعة الإسلامية ومجالاته»، وقد بدأت اللجان أعمالها بالفعل.

عبدالله شطا يهدي مركز الملك فيصل مجموعة من المخطوطات والكتب النادرة


سمو الأمير تركي الفيصل

وجه صاحب السمو الملكي الأمير تركي الفيصل رئيس مجلس إدارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية خطاب شكر وتقدير إلى السيد عبدالله هاشم شطا، على إهدائه مجموعة من المخطوطات والكتب النادرة إلى المركز.

وهذه المجموعة هي بقايا من مكتبة العالم المكي المشهور السيد أبي بكر شطا (١٢٦٦هـ - ١٣١٠هـ)، الذي كان من أبرز العلماء في العصر العثماني، وله مؤلفات كثيرة نشر بعضها، ومن المخطوطات التي تضمها هذه المجموعة:

- إجازة لمحمد بن عوض الشريف وثبت عبدالرحمن بن محمد الكزبري (مكة المكرمة ١٢٧٤هـ)، وثبت عبدالرحمن بن محمد الكزبري (مكة المكرمة ١٣٠٠هـ)، ووصية النبي عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة رضي الله عنه، وأربعون حديثاً (١٢٦٠هـ)، وثبت محمد الأمين (مكة المكرمة ١٣٠٠هـ)، وكفاية المستفيد لما علا من الأسانيد للترمسي، وحواشي على شرح سبط المارديني على متن الرحبية (١٢٣٠هـ)، والجبر والمقابلة لسبط المارديني، والكشف التام في توريث ذوي الأرحام لحسين المحلي، والمورد العذب الهنيء الروي في حل ألفاظ الإمام النووي لمحمد صالح بن إبراهيم الريس الزبيدي (١٢٧٥هـ).

ومن المطبوعات: السوانح الجازمة في التعاريف اللازمة لمحمد علي بن حسين، مفتي المالكية (المطبعة الميرية في مكة المكرمة ١٣٢٢هـ)، ومسلك السادات إلى سبيل الدعوات لمحمد علي بن حسين، مفتي المالكية (المطبعة الميرية في مكة المكرمة ١٣٢٢هـ)، والقول المنقح المضبوط في جواز التعامل ووجوب الزكاة فيما يتعلق بورق النوط (المطبعة الميرية في مكة المكرمة ١٣٢٩هـ)، وعمدة السالك وعدة الناسك لأبي النقيب (المطبعة الميرية في مكة المكرمة ١٣٠٧هـ).

وهناك أيضاً مجموعة من الوثائق والمسودات، والمجموعة دون شك مفيدة للباحثين لما تعكسه عن الوضع الثقافي والعلمي في مكة المكرمة في فترة مالكها الأصلي المرحوم السيد أبي بكر شطا.

معرض للكتاب الإلكتروني بمركز الملك فيصل

في إطار جهود مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية المستمرة لمواكبة التطورات المتسارعة في بيئة تقنية المعلومات، وبمناسبة اختيار مدينة الرياض عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٠م، ينظم المركز في الفترة من ٢١ ـ ١٤٢٠/١٢/٣٠هـ الموافق ٣/٢٧ ـ ٢٠٠٠/٤/٥م معرض «الكتاب الإلكتروني» في مدينة الرياض بمركز الخزامى جوار فندق الخزامى بحي العليا.

ELECTRONIC BOOK EXHIBITION

شعار المعرض

ويرمي هذا المعرض إلى مواكبة التطورات العلمية في مجال تقنية المعلومات، وتسليط الضوء على أهمية النشر الإلكتروني ودوره، في دعم النشر العلمي وتنشيطه، كما يهدف أيضاً إلى الوقوف على حقيقة الكتاب الإلكتروني ومميزاته في مجال البحث والدراسة والتعريف بكل ما هو جديد في عالم النشر الإلكتروني.

ومن أهداف المعرض أيضاً إتاحة الفرصة للجهات المهتمة بالمعلومات «مكتبات، باحثين وغيرهم» للحصول على الأوعية الإلكترونية بأسعار مناسبة، وتمكين ناشري الأوعية الإلكترونية من تسويق إصداراتهم والترويج لها، مع إتاحة فرصة الالتقاء وتبادل الرأي للمهتمين بالنشر الإلكتروني لمناقشة قضاياه التقنية والتسويقية وغيرها.

وقد وضعت اللجنة المنظمة للمعرض شروطاً لنظام الاشتراك وكيفية التسجيل ودفع الرسوم، كما أنها تقدم الكثير من التسهيلات للمشاركين تعميماً للفائدة، وتشجيعاً لخدمة العلم.

ولمزيد من المعلومات والاستفسارات يمكن الكتابة أو الاتصال على العنوان التالي:

الإدارة المنظمة لمعرض الكتاب الإلكتروني:
مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣، المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٦٥٠١٤٣ (٩٦٦١+) ناسوخ: ٤٦٥٩٩٩٣ (٩٦٦١+)
بريد إلكتروني: Sjameel@ kff. com

رحيل أبي الحسن الندوي

انتقل إلى رحمة الله تعالى صباح الجمعة آخر أيام شهر ديسمبر من القرن الماضي الموافق ٢٣ رمضان ١٤٢٠هـ العالم والداعية الإسلامي المعروف أبو الحسن الندوي عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ورئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، والأمين العام لندوة العلماء في مدينة لكنهؤ بالهند عن عمر يناهز ٨٦ عاماً.

قضى الشيخ الندوي عمره في الدعوة إلى الله والتعريف بالإسلام الصحيح والدعوة إلى الدين الحنيف بالحكمة والموعظة الحسنة واتباع السلف الصالح، منادياً المسلمين بالتمسك بالقرآن والسنة النبوية، وكان شغله الدائم نشر العلم مع تثبيت الإيمان وإصلاح القلوب والترفع عن المهاترات السياسية التي لا طائل من ورائها، مما جعله من أعلام الدعاة المسلمين المعاصرين، ومن المجددين المتميزين بالوسطية والاعتدال والبعد عن مناهج التطرف، والتعامل مع الآخرين بمنطق التسامح الإسلامي، والدعوة بالتي هي أحسن، فلم يلجأ إلى العنف في حياته، ولم يحمّس الشباب على التشدد، ولم يصطدم بالآخرين حتى وهو يجاهد ضد الاستعمار في الهند، وظل يقود مسلمي الهند الذين يبلغ تعدادهم ١٥٠ مليون مسلم خلال العقود الأربعة الماضية قائداً وموجهاً ومصلحاً، وقد عم الحزن الأوساط الإسلامية في الهند جمعاء، وصدرت بيانات من كل المنظمات والجمعيات والمؤسسات الإسلامية الكبرى تنعى وفاته، وتعدها خسارة لاتعوض لمسلمي الهند والعالم الإسلامي، وكان في طليعة المعزين أمير الجماعة الإسلامية الشيخ محمد سراج الحسن، ورئيس جمعية العلماء الشيخ أسعد المدني، وإمام المسجد الجامع بدهلي عبدالله البخاري، وأمين مجمع الفقه الإسلامي الشيخ مجاهد الإسلام القاسمي إلى جانب مسؤولي الحكومة الهندية كرئيس الوزراء أتال بيهاري وأجباي، ورئيسة حزب المؤتمر سونيا غاندي، حيث توالت التعازي من كل أقاليم الهند وأقيمت صلاة الغائب على روح الفقيد في عدة مناطق من الهند.



أبو الحسن الندوي

ولد الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي في محرم عام ١٣٣٢هـ الموافق (١٩١٤م) في قرية «تكية» بمديرية «رأي بيلي» بالهند، ونشأ في بيت علم ودين، فقد تلقى العلم على يد والده العلامة الشيخ عبدالحي الندوي الذي استحق أن يسمى بجدارة «ابن خلكان الهند» لمؤلفه القيم في تاريخها والمسمى «نزهة الخواطر».

وتوفي الوالد والابن في العاشرة من عمره، فواصل تعليمه على يد والدته التي كانت لها عدة مؤلفات ومجموعة من الأشعار وكانت تحفظ القرآن، إلى جانب أخيه الأكبر الدكتور عبدالعلي الحسني، وعلى يد عدد من علماء الهند، ثم واصل دراسته في جامعة لكنهؤ وجامعة دار العلوم التابعة لندوة العلماء، فدرس العربية وآدابها، والعلوم الشرعية ولاسيما الحديث والتفسير. كما اهتم بدراسة اللغات، فأتقن العربية والإنجليزية والفارسية إضافة إلى الأردية كتابة وتحدثًا.

ساهم الندوي في تأسيس رابطة العالم الإسلامي حيث حضر اجتماعاً في قصر الملك سعود - يرحمه الله - في حج عام ١٣٨١هـ ضم إلى جانبه مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم، ومفتي الديار المصرية الشيخ حسنين مخلوف، والشيخ القلقيلي مفتي الأردن، وتمخض ذلك الاجتماع عن قيام الرابطة.

أدرك الشيخ أبو الحسن بفكره الثاقب الدور المهم الذي يؤديه البيان الدعوي؛ لأن الدعوة لاتكون إلا باللسان والقلم، وقوام اللسان والقلم الأدب، لذا جعل أحد همومه تخريج جيل من الدعاة يجيد استخدام هذا السلاح، فسعى بصحبة نفر كريم إلى تأسيس رابطة الأدب الإسلامي، وتولى رئاستها.

كما شارك الشيخ الندوي في تأسيس كثير من الجمعيات الخيرية التي ساهمت في خدمة الدعوة الإسلامية، مثل تأسيسه جمعية الدعوة إلى الإسلام بين الهندوس، فقد أصدرت هذه الجمعية الإسلامية عدة رسائل وبحوث باللغة الإنجليزية، وهي اللغة المنتشرة هناك. كما شارك في تأسيس هيئات إسلامية دعوية وعلمية مختلفة واختير عضواً في مجالسها، مثل رابطة العالم الإسلامي، والمجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ورابطة الجامعات الإسلامية، ومركز الدراسات الإسلامية في أكسفورد في بريطانيا، ومجمع اللغة العربية في دمشق، والمجمع الإسلامي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن، ومجمع اللغة العربية في الأردن

وتعددت إسهامات الشيخ الندوي في كل مجالات الدعوة الإسلامية وفي كل الميادين، فاشتغل بالتأليف بالأردية، وظهر له فيها كتاب «سيرة السيد عرفان أحمد الشهيد» ووجد إقبالاً عظيماً حتى أعيد طبعه ثلاث مرات وترجم إلى عدد من اللغات.

وكان يكتب أيضًا في مجلة «الضياء» العربية التي تصدرها ندوة العلماء، ثم رأس تحرير مجلة «الندوة العلمية» التي كانت تصدر بالأردية، وأصدر مجلة «التعمير» بالأردية أيضاً.

كُلف من قبل الجامعة الإسلامية في عليكرة بوضع منهاج لطلبة البكالوريا في التعليم الديني فألّف كتاب «إسلاميات» فقررته الجامعة على طلابها، كما ألّف «كتاب مختارات من الأدب العربي» الذي أصبح ضمن مقررات جامعة دار العلوم وجامعات هندية أخرى، ودعي إلى إلقاء محاضرة في دلهي فألقى محاضرة عن الدين والمدنية نالت إعجاب جميع الحضور، وطبعت في كتاب مستقل.

بلغ عدد مؤلفات الشيخ الندوي أكثر من ٧٠٠ عنوان، منها ١٧٧ عنوانًا بالعربية، وقد ترجمت أغلب هذه المؤلفات إلى الإنجليزية والفرنسية والتركية والبنغالية والإندونيسية وغيرها من لغات الشعوب الإسلامية.

ولعل أشهر كتب الشيخ أبي الحسن الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، وقد جلّى في هذا الكتاب رؤية دقيقة لعطاء الحضارة الإسلامية موازنًا بإفلاس الحضارات المادية قديماً وحديثًا، وهو أول كتاب للمؤلف باللغة العربية.

كُرِّم الشيخ الندوي في عدد من جامعات العالم وأقطاره الإسلامية لجهوده في خدمة الإسلام ومنح عدداً من الجوائز والشهادات تقديراً لإسهامه المتميز في الفكر الإسلامي، منها فوزه بجائزة الملك فيصل العالمية فرع خدمة الإسلام عام ١٤٠٠هـ مناصفة مع الدكتور محمد ناصر، وذلك تقديراً لنشاطه الواسع في مجال الدعوة الإسلامية في الهند وأقطار كثيرة زارها وقدم فيها عدداً من المحاضرات، ثم عنايته بأطفال المسلمين؛ إذ خصهم بنوع من التأليف يركز الإيمان في نفوسهم وينشئهم نشأة إسلامية صحيحة، كذلك لدوره البارز في إنشاء المجمع الإسلامي العلمي في الهند، إضافة إلى غزارة إنتاجه في اللغات العربية والإنجليزية والهندية والأردية من أجل الدعوة الإسلامية وبيان المنهج الإسلامي، ورد الشبهات ومواجهة التحديات التي تعترض الدعوة. وفاز أيضاً بجائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٩٩٨م التي تمنحها جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وتبلغ قيمتها مليون درهم، تبرع بها - يرحمه الله - لصلحة التعليم الديني في الهند.

القطيف تكرم الشاعر أحمد الكوفي

شهدت مدينة القطيف شرق السعودية التقاء عدد من الشعراء والأدباء في أمسية شعرية لتكريم الشاعر الراحل أحمد سليمان الكوفي بعد رحيله بأربعين يوماً عن عمر شارف القرن.

وتناول المتحدثون المراحل التي مر بها الشاعر أحمد سليمان في حياته، كما تخلل الحفل إلقاء بعض المقتطفات من شعر الشاعر وبعض الأشعار الأخرى التي كرمته ولم ترثه.

وقد شارك في الحفل عدد من أدباء القطيف منهم: عدنان العوامي، وعلي العوامي، ومحمد رضا الشماسي، ومحمد سعيد البريكي، وحسن السبع، وسعود الفرج، وشفيق العبادي، وعباس خزام، وعبدالله بو خمسين.


أحمد الكوفي

مؤتمر عالمي حول الهوية الثقافية الخليجية

تحت شعار «المؤتمر الخليجي الثاني للفولكلور والتاريخ الشفهي» يقام في مدينة العين في الفترة من ٢٦ إلى ٢٨ مارس/ آذار القادم عام ٢٠٠٠م المؤتمر السنوي الثاني لـ «مركز زايد للتاريخ والتراث» بمشاركة أكثر من ١٠٠ عالم وباحث بهدف صياغة رؤية واضحة حول الفولكلور وتعريف الهوية الثقافية الإماراتية والخليجية في إطار التراث المشترك والحفاظ على هوية مجتمعات الخليج وثقافتها وتراثها، مستخدمين في ذلك الوسائل التقنية الحديثة في التسجيل والتوثيق والتصنيف.

والمعروف أن «مركز زايد للتاريخ والتراث»، الذي يقوم بتسجيل التاريخ الشفهي، قد أسس في العام الماضي بأمر من الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان.

وفاة الشاعر الكويتي علي الصافي

شيعت الأوساط الثقافية والإعلامية والصحافية الكويتية في التاسع من يناير الماضي جثمان شاعرها الشاب علي الصافي الذي توفي إثر حادث مروري أليم.

ويبلغ الشاعر الراحل الثلاثين من عمره، وكان يعمل في الباب الثقافي لجريدة «الرأي العام» الكويتية، كما مارس العمل في أكثر من مطبوعة مسؤولاً عن القسم الثقافي.

يعد علي الصافي من شعراء الحداثة في الخليج والمنطقة العربية، ومن أعماله المنشورة ديوان بعنوان «خديجة لا تحرك ساكناً».

رحيل صاحب جائزة العويس

شيعت دولة الإمارات العربية المتحدة في الخامس من يناير (كانون الثاني) الماضي عام ٢٠٠٠م الشاعر ورجل الأعمال المعروف سلطان بن علي العويس، صاحب جائزة العويس الثقافية التي تقدم كل سنتين تكريماً للمبدعين العرب، وكان سلطان العويس، الذي ناهز الـ ٧٥ عاماً من العمر، قد توفي بسكتة قلبية على متن الطائرة وهو قادم من إسلام آباد.

ولد سلطان بن علي العويس في بلدة الحيرة في إمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٢٥م، ونشأ في بيت علم وأدب، فنهل من معينه مما أهله لأن يكون شاعراً، كما تربى منذ صغره على التجارة التي امتهنها فيما بعد، فبدأ بتجارة اللؤلؤ، وانتقل منها إلى بقية أنواع التجارة، فبرز فيها حتى أصبح من كبار رجال المال والأعمال داخل الإمارات وخارجها.

عرف عن سلطان العويس حبه للخير وخدمة الناس، فسخر ماله وثروته لمنفعة الناس ومساعدتهم، فصدّق بذلك ما قاله في بعض أشعاره:

وإن ترزق من الأموال وفراً
فدعه عند من تهوى وقوداً


سلطان بن علي العويس

فأقام عدداً من المشروعات التنموية التي تعود عليهم بالنفع والفائدة سواء أكان ذلك داخل الدولة أم خارجها، وقد قدرت المبالغ التي أنفقها على أعمال الخير داخل الإمارات العربية بأكثر من ٣٠٠ مليون دولار، كما قدرت قيمة مؤسساته الخيرية التعليمية والعلاجية خارج الإمارات بـ ٢٠٠ مليون دولار شملت كلاً من مصر وسورية ولبنان والمغرب وباكستان، وقد نعاه ديوان رئيس دولة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان واصفاً إياه بأنه «رفع اسم الدولة عالياً في الأوساط الثقافية وفي ميادين عمل الخير داخل الدولة وخارجها».

ولعل من أشهر أعماله الثقافية «جائزة العويس الثقافية»، فقد أنشأها عام ١٩٨٨م جائزة ثقافية تحمل اسمه أوقف لها جزءاً من أمواله تمنح سنوياً لعدد من المبدعين العرب.

ومن المقرر أن توزع الجائزة هذا العام الشهر المقبل في دبي، أول مرة في غيابه، وقد فاز بها هذا العام كل من «محمد عفيفي مطر والشيخ يوسف القرضاوي وناصيف نصار وعبدالله الغذامي وفؤاد التكرلي وصالح أحمد العلي»، وكان قد سبق لعدد من المفكرين والأدباء العرب الفوز بهذه الجائزة كان أبرزهم: نزار

قباني، ومحمد مهدي الجواهري، وإحسان عباس، وعبدالله البردوني، وسعدالله ونوس، وسعدي يوسف، وفدوى طوقان، ومحمود درويش وغيرهم.

باكورة السلسلة العالمية للتربية والتعليم

تصدر سلسلة كتب الـ «فاست باك» عن مؤسسة فاي دلتا كابا للتربية في بلومنجتون بالولايات المتحدة الأمريكية، وتقوم دار المعرفة للتنمية البشرية بالرياض بترجمتها تحت مسمى «السلسلة العالمية للتربية والتعليم»، ويشرف على ترجمتها د.إبراهيم بن حمد القعيد.

غلاف أحد الإصدارات

وتتناول السلسلة الموضوعات التربوية التي تهم العاملين في الإدارة المدرسية، والإشراف التربوي، وكل المشتغلين في حقل التربية.

وقد صدر من هذه السلسلة عشرة كتب مترجمة، تمثل المرحلة الأولى من هذا المشروع، وهي:

التعليم الياباني والتعليم الأمريكي «دراسة مقارنة»، وفن إدارة الفصل الدراسي، وفن طرح السؤال الصحيح: جوهر العملية التعليمية، وموهوبون.. ولكن في خطر، والانضباط الفصلي عن طريق كسب ود الطلاب واحترامهم، وبرامج فعّالة للمراهقين المعرّضين للخطر، وكيف تضبط الفصل الدراسي (استراتيجيات عملية للمدرسين)، وإعادة هيكلة برامج إعداد المعلمين، وكيف يعد المعلم اختبارات (دليل عملي)، والتلاميذ الذين يستعملون اليد اليسرى (أقلية منسية).

إشهار مركز زايد للتنسيق والمتابعة

وافق المجلس الوزاري لجامعة الدول العربية في دورة انعقاده العادي الثاني عشر بعد المئة يومي ١٣و ١٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٩م على إشهار مركز زايد للتنسيق والمتابعة برئاسة سمو الشيخ سلطان بن زايد نائب رئيس مجلس الوزراء في دولة الإمارات العربية المتحدة، وذلك بناء على البيان الختامي لندوة مستقبل الوطن العربي ودور جامعة الدول العربية، التي عقدت في مدينة أبو ظبي في الفترة من الثاني إلى الرابع من شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٩٧م.

ومن المقرر أن يعمل المركز تحت مظلة جامعة الدول العربية بوصفه هيئة سياسية عربية غير حكومية، ومقره مدينة أبو ظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة.

صالون ثقافي يمني في القاهرة

صرح سفير اليمن في مصر السيد أحمد محمد لقمان أن الإعلان عن تأسيس صالون «الهمداني» الثقافي في القاهرة مؤخراً يرمي إلى تسليط الأضواء على تاريخ اليمن وحاضره الثقافي والسياسي والاقتصادي، وكذلك توسيع دائرة المهتمين باليمن من الباحثين والكتاب والمفكرين غير اليمنيين.

وأضاف أنه تم اختيار الهمداني ليحمل الصالون اسمه لموسوعيته الثقافية، وتعدد الجوانب العلمية التي تناولها في مؤلفاته، ولأنه أيضاً شخصية تجاوزت في أثرها حدود الزمان والمكان، واحتلت قلب التاريخ الثقافي العربي. وقد باشر صالون الهمداني بالفعل نشاط ندواته الشهرية التي ستكون على دورات تبلغ مدة كل منها ستة أشهر حيث عقدت ندوته الأولى مؤخراً تحت عنوان «الهمداني لسان اليمن.. حياته وفكره وأثره». وستتناول الندوة الثانية موضوعاً تحت عنوان «قراءة جديدة في ملف الاستقلال الوطني في اليمن».

أما آخر ندوات الدورة الأولى للصالون فستتناول موضوع «الوحدة اليمنية» وستعقد في شهر مايو / أيار القادم.

شهر زاد الـ (٢١)

عن دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع في دمشق، صدرت مجموعة من قصص الأطفال في طباعة أنيقة وإخراج رشيق، وقبل ذلك في أسلوب قصصي شائق، وهذه القصص هي:

العصافير تستحم بماء البركة، وهديل اليمام لفاضل السباعي، وحكايات النملة مبروكة وطبيبة الغابة لرامه عمر باشا الإدلبي. ولا شك أن هذه المجموعة التي تحمل اسم «شهرزاد الـ ٢١» تعد

غلاف إحدى المجموعات

إضافة طيبة إلى أدب الأطفال في اللغة العربية.

ومن الإصدارات الحديثة لدار إشبيلية ديوان شعر بعنوان «لك أغني» لجمانة طه، وكتاب «حوار مع الرواية المعاصرة في مصر وسورية» للدكتور حلمي محمد القاعود.



استعراض



المجلات والصحف العربية والأجنبية بالأردن

بدأت دائرة المطبوعات والنشر بالأردن، ابتداء من يوم الأحد أول يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٠م باستعراض الصحف والمجلات العربية والأجنبية التي ترد إلى السوق الأردنية.

وقال السيد عبدالله العتوم المدير العام للمطبوعات والنشر: إن «١٤٠٠» صحيفة عربية وأجنبية تدخل السوق الأردنية شهرياً بالإضافة إلى «٥٠» مجلة أسبوعية وشهرية.

وأضاف أن أربعة آلاف كتاب عربي وأجنبي تمثل الإصدارات العالمية بمختلف اللغات تدخل السوق الأردنية سنوياً موضحاً أن الدائرة تجيز إصدار «١٤٠» مخطوطة شهرياً من الإنتاج المحلي.

وقال: إن عرض إصدارات الصحف والمجلات العالمية وتحليلها يرميان إلى تمكين المسؤولين والإعلاميين والصحفيين من متابعتها والاطلاع على محتوياتها.

المؤرخ البريطاني إيرفينج يقاضي منتقديه لإنكاره «محرقة اليهود»!!

تدور في بريطانيا حالياً رحى حرب قضائية حامية في قضية مثيرة للجدل انشغل بها الرأي العام، وجذبت اهتمام كثير من المراقبين، فقد رفع المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج قضية تشهير ضد دار «بينجوين بوكس» للنشر، والأكاديمية الأمريكية الدكتورة ديبورا ليبستات التي اتهمته «بنفي حدوث» المذابح النازية ضد اليهود إبان العهد النازي في الحرب العالمية الثانية، ومن المقرر أن يمثل ضمن الشهود في هذه القضية عدد من أبرز الخبراء العالميين المتخصصين بموضوع المحرقة وألمانيا في عهد هتلر.

وكانت دار النشر البريطانية قد نشرت كتاب الدكتورة ليبستات أستاذة الدراسات اليهودية المعاصرة في جامعة إيموري في أتلانتا بولاية جيورجيا في الولايات المتحدة، بعنوان: «نفي حدوث الهولوكوست: تنامي الهجمة ضد الحقيقة والذاكرة»، الذي تقول فيه: «إن المؤرخ إيرفينج ينكر حدوث الهولوكوست» أي المحرقة اليهودية، ووصفته بأنه ناطق خطر باسم ناكري





ديفيد إيرفينج — هتلر

المحرقة و«نصير لأدولف هتلر يضع غمامتين على عينيه ويحرف الوثائق ويشوه المعلومات بهدف الوصول إلى استنتاجات لا يمكن الدفاع عنها تاريخياً، على وجه التحديد تلك التي تبرئ هتلر».

وقال المحامي رابيتون في معرض دفاعه عن دار النشر والمؤلفة: «إن إيرفينج الذي يعتبر نفسه مؤرخاً، ليس في الواقع مؤرخاً على الإطلاق، وإنما هو مزور للتاريخ. وبصراحة، إنه كذاب. لقد استعمل وسائل عديدة لتزوير التاريخ: اختلاق المعلومات وطمسها، وتحوير الاقتباسات والتلاعب في الترجمات. ولهذه الأشياء تأثير واضح: هو تزوير الحقيقة»، وأضاف رابيتون «أعني بكلامي هذا أنه ينفي أن النازيين خططوا، مع سبق الإصرار وبشكل مبرمج، لذبح الملايين من اليهود، مثل حرقهم بالأفران في أوشويتز ببولندا».

ودافع إيرفينج عن نفسه قائلاً: إنه لم ينكر أبداً حدوث هذه المذبحة، وأضاف «ليس بمقدور أي إنسان متمتع بكامل قواه العقلية، أو أن يكون عنده أدنى معرفة بما حدث في الحرب العالمية الثانية، أن ينكر حدوث المأساة، مهما اختلفنا نحن المؤرخين حول الوسائل أو تاريخ أو حجم المأساة أو أي جوانب أخرى منها».

وأضاف إيرفينج أنه غير مقتنع على الإطلاق بحدوث هذه المحرقة بالشكل الذي يتم تصويره. إذ من الصعب تماماً تنفيذ الإبادة على هذا النحو الذي جرى تضخيمه، لأن حرق مليون شخص يعني التعامل مع مئة ألف طن من اللحم البشري ومن الناحية المكانية فقط يعد هذا من المستحيل تماماً، فالمجزرة، في رأيه، حدثت، ولكنها تشمل الحرب العالمية الثانية وكل الضحايا الذين سقطوا خلال المواجهة الكونية، ويشمل الضحايا ما أصاب هيروشيما وناغازاكي في اليابان بعد أن أطلقت عليها الولايات المتحدة القنابل الذرية، وأضاف أن اليهود ليسوا هم وحدهم الذين

أبيدوا خلال الحرب العالمية الثانية وإنما الإبادة لحقت بفئات أخرى مثل الغجر في الدول التي سيطر عليها النازيون.

وكانت محكمة ألمانية قد دانت إيرفينج في مايو / أيار عام ١٩٩٢م، وحكمت عليه بغرامة، لتصريحه في اجتماع عام ضم نحو ٨٠٠ شخص في ميونيخ عام ١٩٩٠م بأنه لم تكن هناك أي غرف غاز في «أوشويتز»، وأن غرفة الغاز في معسكر الاعتقال هذا «أقامها البولنديون هناك بعد الحرب تماماً مثل تلك التي أنشأها الأمريكيون في داخاو»، وقد مُنع إيرفينج إثر هذه الإدانة من دخول ألمانيا كما رُفض السماح له بدخول كندا وإيطاليا والنمسا وأستراليا.

وظل ديفيد إيرفينج يتعرض، ولمدة عشرين عاماً، لملاحقة المنظمات المعادية للنازية في أوربا حيث كانت تلاحقه في كل مرة يحاول تنظيم اجتماع ترويجي لكتبه.

وقال إيرفينج أمام المحكمة إنه متمسك بموقفه من هذه القضية على الرغم من الحملات الشرسة التي يتعرض لها، وحالة الحصار المضروبة حوله، التي جعلت دور النشر البريطانية ترفض التعاون معه ونشر كتبه، وقال إنه: سيواصل الدفاع عن موقفه بوصفه مؤرخاً، ولن يتراجع عما توصل إليه من حقائق حول الحرب العالمية الثانية.

ومع نفيه التعاطف مع الزعيم النازي هتلر إلا أنه استبعد قيامه بإعطاء الأوامر بحرق اليهود أو إبادتهم، وقد ذكر في كتابه «حرب هتلر» أن الفوهرر لم يكن على علم بإبادة اليهود حتى أكتوبر / تشرين الأول عام ١٩٤٣م.

وكان إيرفينج قد ألف عدة كتب تاريخية منها: «حرب هتلر» و«جوبلز: العقل الموجه للرايخ الثالث» وفيه تناول سيرة الزعيم النازي جوبلز - وعدّ إيرفينج هذه المؤلفات صندوقاً تقاعدياً وتركة لأولاده الأربعة، مضيفاً أن كتاباته كانت تدر عليه، قبل الحملة، أكثر من ١٠٠ ألف جنيه إسترليني سنوياً، ولكن هذا المبلغ تناقص كثيراً من جراء هذه الحملات.

وقد عرف عن إيرفينج أنه باحث دقيق تفحص وثائق الدولة النازية وتتبع النازيين من كبار السن في قرى الألب ومزارع معزولة في الأرجنتين.

باحث ياباني ورضيعة مغربية يفوزان بجائزة التواصل الثقافي

فاز بجائزة التواصل الثقافي «شمال - جنوب» هذا العام، مناصفة، الباحث الياباني «غيشي فوجي وارا» أستاذ العلاقات الدولية بجامعة طوكيو، والحاصل على درجة الدكتوراه سنة ١٩٨٤م، والرضيعة المغربية «أمال بوجمعة» التي لم تكمل بعد شهراً من عمرها.

وقد منحت الجائزة للباحث الياباني تقديراً لأبحاثه القيمة في مجال علاقات اليابان مع جيرانها، حيث عرف بانتصاره لحقوق شعوب الجنوب في التنمية والعيش الكريم. ومنحت الجائزة للرضيعة المغربية لكونها أول مولودة مغربية خلال عام ٢٠٠٠م، والهدف من ذلك هو تكريم المرأة المغربية في بداية القرن الجديد من أجل غد أفضل خلال الألفية الجديدة.

والجدير بالذكر أن مؤسس هذه الجائزة هو الباحث المغربي المهدي المنجرة المتخصص في علم المستقبليات، وقد أنشأ هذه الجائزة عام ١٩٩٠م بغرض تشجيع «الأبحاث القيمة التي ترمي إلى إيجاد التواصل الثقافي والدعوة إلى تحقيق السلم في العالم».

مركز بومبيدو يفتح أبوابه

جورج بومبيدو

أعاد مركز جورج بومبيدو الوطني للفنون والثقافة في باريس المعروف اختصاراً بمركز بوبور، فتح أبوابه أمام الجمهور بعد إقفاله ٢٧ شهراً بسبب أعمال الترميم.

وتشكلت طوابير انتظاراً على طول مئات الأمتار حول المركز الذي يفترض أن يكون في آن واحد متحفاً لفنون القرن العشرين ومكتبة ومركزاً للعروض الحية والإبداع الموسيقي والمناقشات.

فالمتحف الوطني للفنون الحديثة الذي يشغل طابقين كاملين في المركز بمساحة ١٤ ألف كيلو متر مربع بات أكبر متحف في العالم لفنون القرن العشرين إذ يبلغ عدد الأعمال والمجموعات المعروضة فيه ١٤٠٠ عمل من أصل ٤٤ ألفاً.

وقد أعيد ترميم داخل المبنى كلياً لكسب مساحة وتحقيق تنظيم وتقسيم أكثر وضوحاً لمختلف الأجنحة: متحف فنون القرن العشرين، ومكتبة، ومركز العروض الحية والإبداع الموسيقي.

وبلغت كلفة الترميم ١٣٥ مليون يورو. كما أقيمت في أثناء إقفال المركز معارض تحت عنوان «بوبور خارج الجدران» أتاحت لبقية المناطق الفرنسية وكذلك الخارج اكتشاف غنى مجموعاته.

المليح يستقر في الرباط

قرر الكاتب المغربي أدمون عمران المليح أخيراً الرجوع إلى وطنه، والاستقرار في العاصمة المغربية الرباط.

ويعد المليح الكاتب المغربي اليهودي الذي يقيم في فرنسا، ويكتب بالفرنسية، ملهم جيل كامل في المغرب أثّر فيه أدبياً وفكرياً، واشتهر بمواقفه السياسية الراديكالية، ومناصرته للقضية الفلسطينية، مما جرّ عليه كثيراً من المصاعب مع دور النشر الفرنسية.

وينحدر المليح من مدينة الصويرة في جنوب المغرب، وهي المدينة التي عاش فيها أكثر يهود المغرب الذين عرفوا باسم «الملاح»، وكانوا يتوزعون على ثلاثة أحياء في هذه المدينة.

الماندارينية الصينية أوسع لغات العالم انتشارا

في آخر إحصائية نشرت حصيلتها خدمة «كريستيان ساينس مونيتور» لترتيب اللغات العشر الأوسع انتشاراً في العالم، جاءت اللغة الماندارينية الصينية بلهجاتها وتفريعاتها كأوسع لغات العالم، انتشاراً حيث قدر عدد المتحدثين بها بأكثر من ١٫٠٧ مليار نسمة.

وجاءت اللغة الإنجليزية، على الرغم من النقلات التقنية (التكنولوجية)، والعولمة بوجهها الأمريكي ولغتها الإنجليزية، في المرتبة الثانية، إذ يتحدث بها نحو ٥٠٨ ملايين نسمة، وتلتها في المرتبة الثالثة اللغة الهندوستانية بقسميها الهندي «المكتوبة بالسنسكريتية» والأوردو «المكتوبة بالعربية» بنحو ٤٩٧ مليون نسمة، ثم الإسبانية في المرتبة الرابعة بنحو ٣٩٢ مليون نسمة تلتها الروسية في المرتبة الخامسة بنحو ٢٧٧ مليون نسمة.

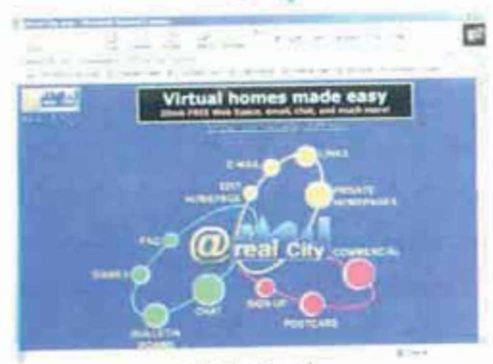
أما العربية فجاءت في المرتبة السادسة بنحو ٢٤٦ مليون نسمة، تلتها البنغالية بنحو ٢١١ مليون نسمة، ثم البرتغالية بنحو ١٩١ مليون نسمة، ثم الملايوية - الإندونيسية بنحو ١٥٩ مليون نسمة، وأخيراً جاءت اللغة الفرنسية في المرتبة العاشرة بنحو ١٢٩ مليون نسمة.

صدور صحيفة «جمهوريت» بألمانيا

أعلن رئيس تحرير صحيفة «جمهوريت» التركية حكمت شيتينكايا أن الصحيفة ستبدأ في أواخر فبراير/شباط الجاري إصدار طبعة لها في ألمانيا بينها عدد من الصفحات التي ستحرر هناك.

وسيكون مركز التحرير الأوربي للصحيفة وقوامه عشرة صحفيين في ايسن «غرب» وسيتولى هؤلاء تحرير عدد من الصفحات في الطبعة اليومية للصحيفة التي تصدر في إستانبول. وستطبع النسخة الألمانية للصحيفة في فرانكفورت. ويذكر أن «جمهوريت» التي أسست عام ١٩٢٤م هي أقدم الصحف التركية وذات اتجاه ليبرالي وعلماني.

ارتفاع مشتريات الإنترنت في أمريكا



أحد مواقع الإنترنت

أجرى مركزا الأبحاث الأمريكية بي. سي. داتا وجوبيتر كومونيكايشن استطلاعاً للرأي شمل «٢٦٠٣» أشخاص خلال الفترة من ٢٧ ديسمبر/كانون الأول إلى الأول من يناير/كانون الثاني الماضي حيث تبين فيه أن حجم المشتريات عبر الإنترنت في الولايات المتحدة خلال عطلة نهاية السنة الميلادية تراوح بين خمسة وسبعة مليارات دولار بين الأول من نوفمبر ونهاية ديسمبر ١٩٩٩م.

وقال كامرون مئير هاوفر المحلل في شركة بي. سي. داتا من المبكر جداً القول ما إذا كان هذا الارتفاع الكبير في المشتريات عبر الإنترنت يدل على تغير في عادات المشترين في المستقبل.

كما كشف الاستطلاع الذي شمل ٨١٠ مستهلكين على الإنترنت أن ٩٠ في المئة من المشترين كانوا راضين عن تجربتهم خلال الشراء عبر الإنترنت مقابل ٧٤ في المئة خلال الفترة نفسها من عام ١٩٩٨م.

وأعلن ٤٥ في المئة من الأشخاص أنهم باتوا أكثر استعدادا للشراء عبر الإنترنت.

وعزت الشركة زيادة المبيعات عام ١٩٩٩م إلى زيادة الإعلانات عن المواقع التجارية وإلى الوضع الاقتصادي الجيد في الولايات المتحدة.

وفاة الكاتبة آن هيبير

توفيت في كيبيك الكندية في الأيام الماضية الروائية والكاتبة المسرحية والشاعرة آن هيبير عن عمر يناهز ٨٣ عاماً بعد أن أصيبت بسرطان العظم.

ولدت آن هيبير في الأول من أغسطس / آب عام ١٩١٦م في قرية صغيرة بالقرب من كيبيك، وبدأت تنشر أول إنتاجها في

آن هيبير

المجلات الأسبوعية قبل أن تصدر أول دواوينها «الرؤى المتوازنة» عام ١٩٤٢م، وأصدرت هيبير عدداً من المؤلفات، ونالت الكثير من الجوائز، فقد أصدرت مجموعتها القصصية «السيل» عام ١٩٥٠م، و«الغرف الخشبية» عام ١٩٥٨م.

ومن مؤلفاتها المشهورة التي لقيت رواجاً قصة «كاموراسكا» التي صدرت عام ١٩٧٠م فقد حصلت على جائزة المكتبات في فرنسا في السنة ذاتها، وتحولت إلى فيلم سينمائي بواسطة كلود جوترا، وحصلت روايتها «مجانين باسان» التي صدرت عام ١٩٨٢م على جائزة فمينا، وتحولت أيضاً إلى فيلم سينمائي، وعلى جائزة الحاكم العام لكندا في عامي ١٩٦٠، ١٩٧٥.

وكانت هيبير قد وضعت اللمسات الأخيرة على روايتها «ثوب من نور» قبل بضعة أشهر من مرضها، كما صرح بذلك ناشر مؤلفاتها في كيبيك باسكال إسانياتي.

وأعرب لوسيان بوشار رئيس وزراء كيبيك عن حزنه لوفاة «هذه السيدة النشيطة والكتومة والنبيلة» التي «وضعت الحياة فوق كل اعتبار، واستمدت منها المادة الأولية لمؤلفاتها».

رحيل الكاتب البريطاني أوبريان

ودعت الأوساط الثقافية البريطانية في الأيام الماضية أحد كتاب الرواية التاريخية في بريطانيا، الكاتب باتريك أوبريان الإيرلندي الأصل البريطاني الجنسية عن عمر يناهز ٨٦ عاماً.

ولد أوبريان في إيرلندا عام ١٩١٤م، وأصيب بمرض صدري ألزمه الفراش مما جعله يمارس القراءة، وهو على سريره، وقد بدأ ممارسة الكتابة وعمره لم يتجاوز خمسة عشر عاماً.

وتعد روايته «ربان السفينة»، التي تقع في ٢٠ جزءاً، من أشهر أعماله الروائية، وقد عرف عن باتريك عشقه للبحر فكتب روايته «المحيط الذهبي» التي تروي مغامرات الأميرال «انسون» في المحيط الهادي.

حملة لإنقاذ منزل ييتس

اشترى مستثمر منزل الشاعر الإيرلندي وليام بتلر ييتس بغرض هدمه وبناء مبنى سكني محله بعد أن تحولت الضاحية إلى منطقة سكنية، وقدم طلباً بذلك إلى المجلس المحلي، مما دفع مجموعة من الكتاب والأكاديميين إلى قيادة حملة لإنقاذ هذا المنزل الذي عاش فيه الشاعر أيامه الأخيرة.

ودعا براون أستاذ الأدب الإنجليزي في كلية ترينيتي الدولة إلى شراء المنزل ودمجه في خططها لإقامة أكاديمية إيرلندية لفنون الدراما.

وقد ذكر ييتس الحاصل على جائزة نوبل عام١٩٢٣م منزله هذا الواقع في ريفرسديل في قصيدتين من ديوانه الصادر في عام ١٩٣٨م.

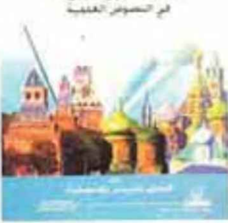
عودة الملكة ميريت إلى مصر



لحظة تسليم تمثال الملكة ميريت

بعد معركة قانونية امتدت مدة ثلاث سنوات ضد المتحف البريطاني في لندن، استردت مصر تمثال رأس الملكة «ميريت»، الذي يعود تاريخه إلى القرن ١٣ قبل الميلاد، والذي سرق من مخزن في منطقة سقارة التي تقع جنوب القاهرة في أوائل تسعينيات القرن الماضي، وكان التمثال قد تعرض لتشويه متعمد قصد به المهرب تغير معالمه حتى يستطيع تهريبه، لكن المتحف البريطاني، الذي استحوذ على التمثال، استطاع أن يقوم بترميمه وإعادته إلى حالته الطبيعية. وتنظر المحاكم البريطانية حالياً قضية مماثلة هي إعادة رأس أمنحتب الثالث الذي بيع إلى المتحف البريطاني عبر عدد من الوسطاء.





موساروف، شاه رستم شاه / النحو الوظيفي للغة الروسية في النصوص العلمية.. الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٦٩ص.

صدر الكتاب باللغة الروسية، ويرمي الكاتب من ورائه إلى مساعدة المتخصصين والمترجمين على التعرف الدقيق إلى نحو الجملة الروسية وصرفها بطريقة تمكنهم من الترجمة، وإيجاد البديل للمصطلح العلمي، كما قصد أيضاً إلى مساعدة القارئ على الفهم الدقيق لقواعد اللغة الروسية، ودلالتها، وسلامة التحدث بها بطريقة علمية سليمة، ومعرفة معانيها الدلالية المختلفة وتوضيحها، وطرائق التعبير عنها، وشرحها وتبسيطها.

اتبع الكاتب طريقة الجداول في عرض المادة العلمية مما يساعد الطلاب على سهولة الفهم والاستيعاب.

يقع الكتاب في مقدمة كتبها الدكتور علي أبو الفتوح الشيخ، وثمانية فصول، جاء الفصل الأول عن «علاقة المبتدأ والخبر»، والثاني عن «الجملة التابعة المعبرة عن التمني (الرجاء)»، والثالث عن «الجملة التابعة النعتية»، والرابع عن «الجملة التابعة الدالة على الحال أو الهيئة». أما الفصل الخامس فقد جاء عن «الجملة التابعة الدالة على هدف الحدث (أو الغرض)»، والسادس عن «الجملة التابعة الزمنية»، والسابع عن «الجملة التابعة الشرطية»، والأخير عن «الجملة التابعة السببية».

وختم الكتاب بالملاحق والمراجع وكشاف الموضوعات.

أمانة مدينة الرياض / الرياض التاريخ والتطور.. الرياض: مؤسسة التراث، ١٤٢٠هـ. ٣١٠ص.

«مدينة الرياض، حاضرة الصحراء، ودرة نجد، وعاصمة المملكة العربية السعودية.

قليلة هي المدن التي شهدت تجربة من التحول والتطور شبيهة بمدينة الرياض. فقد تطورت من مدينة مسورة محدودة المساحة والسكان إلى حاضرة عالمية مزدهرة يزيد سكانها على ثلاثة ملايين نسمة...».

بهذه العبارة قدمت أمانة مدينة الرياض إصدارها الحافل بالصور عن الرياض، مشاركة منها في ذكرى مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

ويمثل هذا الإصدار مكتبة فوتوغرافية للرياض عاصمة المملكة - وعاصمة الثقافة العربية هذا العام (٢٠٠٠)؛ ليبقى في الذاكرة ما كانت عليه المملكة قبل ثلاثين عاماً، والقفزة الحضارية التي هي عليها اليوم، في شتى المجالات.

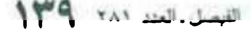
ويغطي الإصدار الرياض في عدد من المراحل بدءاً من أوائل الصور الملتقطة لها بين عامي (١٣٣٠ - ١٣٣٢هـ)، ثم مرحلة المدينة المسورة ١٣٣٥ - ١٣٥٢هـ، واختيارها عاصمة للمملكة في الخمسينيات الهجرية، تليها مرحلة التوسع في الستينيات، ثم مرحلة التحول من القديم إلى الجديد في سبعينيات القرن الماضي، وأخيراً الرياض اليوم.

ويذكر أن الصور ملتقطة بعدسات عدد كبير من الرحالين العرب والأجانب الذين زاروا المنطقة وهم: ليتشمان سنة ١٣٣٠هـ، وشكسبير سنة ١٣٣٢هـ، وفيلبي سنة ١٣٣٥ - ١٣٣٦هـ و ١٣٥١هـ، والريحاني سنة ١٣٤٠هـ، ومحمد أسد سنة ١٣٤٨هـ، وتويتشل سنة ١٣٥٢هـ، ودي غوري نحو سنة ١٣٥٤هـ، ورندل سنة ١٣٥٦هـ، وستاينكي سنة ١٣٥٦هـ، وفيوليت ديكسون سنة ١٣٥٦هـ، وباتيغللي سنة ١٣٧٠هـ، والأميرة أليس سنة ١٣٥٧هـ، ولاندري سنة ١٣٦٢هـ، وفان دير مولن سنة ١٣٦٣هـ، و د.ي. ريتشي سنة ١٣٦٦هـ - ١٣٦٧هـ، وت. ف. والترز سنة ١٣٦٨ - ١٣٦٩هـ و ١٣٧٤ - ١٣٧٥هـ و ١٣٨٥هـ و ١٣٨٧هـ، ومولر سنة ١٣٦٨ - ١٣٧٤هـ، وف. ك. أنتوني سنة ١٣٧٩هـ.

نجاري، عمر فوزي / التهاب الكبد البائي والمستجدات المتعلقة بالمناعة والتحصين.. اللاذقية: مركز غار، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٧٨ص.

يجيب الكتاب عن الأسئلة التي تشغل أذهان الأطباء وطلبة كليات الطب فيما يتعلق بمرض التهاب الكبد البائي وطرق الوقاية منه، والمستجدات المتعلقة بالمناعة واللقاح.

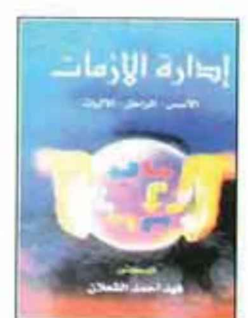
يقع الكتاب في أربعة فصول، يناقش فصله الأول الوبائيات، وعوامل الخطورة عند عناصر الهيئة الطبية، وخطر الإصابة عقب نقل الدم، والنقل حول الولادة. وجاء فصله الثاني عن الاستجابة المناعية لحمة التهاب الكبد B، والتطور الطبيعي للخمج، وعقابيل التهاب الكبد ب، ولا يوجد علاج فعال له. وكان الفصل الثالث عن فكرة اللقاح



وتطور فكرته وطرائق تحضيره. وجاء الفصل الرابع عن الجديد في التمنيع من التهاب الكبد البائي، وفعالية اللقاح وسلامة اللقاح، ورد الفعل الناجم عن اللقاح، والمناعة الناجمة عن اللقاح، والعوامل المؤثرة في الاستجابة المناعية، والتمنيع المنفعل، والتمنيع الفاعل، والتمنيع الفاعل ـ المنفعل، والأشخاص الواجب تلقيحهم، ومضادات استطباب التلقيح، والجرعة وطريقة الإعطاء، وخطة التلقيح، والنتائج العلمية للتلقيح.

استعان المؤلف بالجداول والأشكال في شرحه لأطوار هذا المرض، وأماكن تواجده، وكيفية الإصابة به، وغير ذلك من المعلومات المتعلقة به.

وختم الكتاب بالمصادر والمحتويات.



الشعلان، فهد أحمد/ إدارة الأزمات: الأسس ـ المراحل ـ الآليات.ـ الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٣٠٩ص.

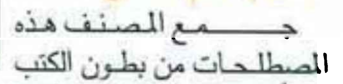
يقول المؤلف: إن ما دفعه إلى تأليف هذا الكتاب هو الاهتمام الملحوظ للأكاديميين بهذا الموضوع وحاجة المكتبة العربية، ومؤسسات التعليم، ومعاهد التدريب إلى مرجع متخصص في إدارة الأزمات، ويضيف أن هذا العلم لم ينل حظه من الاهتمام الأكاديمي إلا في أوائل الستينيات، وبالتحديد على أثر أزمة الصواريخ الكوبية في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٦٢م عندما قال ماكنامارا وزير الدفاع الأمريكي السابق عبارته الشهيرة: «لم يعد هناك بعد الآن مجال للحديث عن الإستراتيجية، وإنما عن معالجة الأزمات فقط».

يقع الكتاب في تسعة فصول تناول فيها الكاتب أهم الجوانب المتعلقة بإدارة الأزمات، فجاء الفصل الأول حول مفهوم الأزمة وتعريفاتها وإيضاح الفارق بينها وبين الكارثة، وتناول في الفصل الثاني تصنيف الأزمات وتطورها، وناقش في الفصل الثالث المنظور الإداري للأزمات، وجاء الفصل الرابع عن دور المعلومات والاتصالات في أثناء الأزمات والكوارث، واستعرض في الفصل الخامس أهم مقومات نموذج إدارة الأزمات، حيث شمل مرحلة ما قبل الأزمة (التلطيف والتحضير)، ومرحلة (المواجهة)، ومرحلة ما بعد الأزمة «إعادة الأوضاع»، وتناول في الفصل السادس دور الإعلام قبل الأزمات وفي أثنائها وبعدها، وأسلوب الخطاب الإعلامي للأزمة، والتعامل مع الحملات المعادية والشائعات في أثناء الأزمات.

وخصص الفصل السابع للحديث عن النواحي النفسية والاجتماعية في أثناء الكوارث والأزمات، وسلط الضوء في الفصل الثامن على أجهزة الحماية الحديثة لمواجهة الكوارث والإشارة إلى منظماتها مع توضيح دور الدفاع المدني بالمملكة العربية السعودية (كنموذج لإدارة الكوارث).

وختم الكتاب بعرض لنماذج مختارة من الأزمات والكوارث المختلفة، ثم ثبت بالمراجع باللغة العربية وآخر باللغة الإنجليزية.

الربداوي، محمود جبر/ كشاف العبارات النقدية والأدبية في التراث العربي.ـ الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٣٢٦ص.



جمع المصنف هذه المصطلحات من بطون الكتب بعد أن كانت مبثوثة بغير انتظام وصنفها ورتبها ترتيباً يسهل الرجوع إليها لسد حاجة الدارسين، ولتكون معينا لهم لفهم النصوص، لأن المصطلحات تشكل أكبر عنصر من أدوات النقد وآلياته.

رتب المصنف هذا الكشاف ترتيباً هجائياً، فأورد العبارة حسب الحرف الأول الذي تبدأ به، مع إيرادها مرة أخرى في مكان آخر إذا ما اختلفت صياغتها، أو إذا كانت العبارة مؤلفة من أكثر من جملة أو فقرة وكل واحدة منها تصلح لأن تفرد عبارة قائمة بذاتها.

درج المصنف إلى نسبة العبارة إلى مبدعها الأول، وتحري ذلك في غير ما مصدر، مع إيراد اسم المصدر ورقم الصفحة.

نوه المصنف بفضل كتابين استعان بهما وبغيرهما، في إخراج هذا العمل، الأول: «نصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث والرابع للهجرة»، جمعه الدكتوران جميل سعيد، وداود سلوم، والثاني: «نصوص النظرية النقدية عند العرب من العصر الجاهلي إلى أوائل القرن الثالث»، للدكتور وليد قصاب، كما رجع المصنف إلى بعض كتب الحديث في توثيق الأحاديث النبوية ذات الصلة بموضوع العبارات النقدية.

خُتم الكشاف بإيراد قائمة بالمصادر والمراجع، وأخرى بفهرس الأحاديث النبوية ذات الصلة بموضوع النقد مستخرجة من كتب الأحاديث والأدب، وأخيرا فهرس الأشعار مرتباً حسب القوافي، وفي القافية حسب الترتيب الأقوى في قواعد الإملاء «كسرة فضمة ففتحة فسكون».

فلايكوفسكي، إيمانويل/ عوالم في تصادم: الكوارث الكونية والحضارة الفرعونية، ترجمة: رفعت السيد.. القاهرة: جماعة حور الثقافية، ١٩٩٩م، ٥٧٥ص.

هذا الكتاب «عوالم في تصادم» هو الجزء الثاني من الموسوعة التي صدر الجزء الأول منها مترجمًا عام ١٩٩٥م بعنوان «عصور في فوضى».

يحاول الكاتب أن يوصل ما انقطع من تاريخ اليهود في مدة تربو على ألفي عام، عندما تشتتوا في بقاع الأرض بعد هدم الهيكل الثاني، وبحث اليهودية السياسية من جديد عن إيجاد مكان لها بين حضارات الشرق القديمة العظمى، وهو هنا يحاول أن يواصل ما بدأه في الجزء الأول من الموسوعة «عصور في فوضى» الذي حاول فيه إضفاء الشرعية على الوجود اليهودي المعاصر.

يجزم المترجم أن جهداً مؤسسياً وراء إصدار هذه الموسوعة، فالجهد المبذول فيها يفوق كثيراً طاقة إنسان بمفرده وإمكاناته، وهو يأمل أن نجد باحثين ومفكرين يفنون أعمارهم بالقدر نفسه من الولاء لقضية وجودنا ذاته.

وينبه المترجم على الخطر اليهودي القادم الذي يسعى لامتلاك قلب المنطقة العربية ليحقق الوعد الإلهي المزعوم لليهود بإقامة الهيكل الثالث على أنقاض المسجد الأقصى.

إن ما يستحق البحث في هذا الكتاب، بخلاف ما وظف لخدمة اليهودية السياسية، هو وجهة النظر التي تقول: إن هنالك أحداثًا كونية أثرت في الأرض وحركتها واتجاهها وزاوية ميل محورها في عصور تاريخية قديمة، ومن ثم أثرت بشكل أو بآخر في مسارات الحضارات القديمة وتطورها دون أن نضم إليها الحضارة اليهودية كما يدعي الكاتب.



بيادر (ع ٢٨، رمضان ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)
ملف ثقافي إبداعي يصدر عن نادي أبها الأدبي

افتتح المشرف العام وأعضاء هيئة تحرير الملف بكلمة تأبين لأمير الشباب صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز آل سعود - يرحمه الله - والإشادة بدور سموه الداعم للأندية الأدبية والمجلات الثقافية.

واحتوى العدد على نص محاضرة د. تركي الحمد «خصوصياتنا والعولمة» وبعض مداخلاتها، ثم مقال لعبدالله الحقيل عن «أهمية غرس السياحة الداخلية في نفوس الناشئة»، وقراءة في كتاب «المعجم الجغرافي في البلاد العربية السعودية - منطقة عسير» أعدها أ.د. السر سيد أحمد العراقي، و«قراءة في رواية المهدي لـ (كوتيل)» للدكتور (أبو بكر أحمد باقادر)، ثم بحث/ إبراهيم محمد شحبي بعنوان «الفن التشكيلي ممثلنا المشرق».

وحفل العدد بمجموعة من القصائد والقصص القصيرة.



دراسات (س ١١، ع ١٢، ١٩٩٩م)
مجلة فصلية محكمة تعنى بالدراسات الاجتماعية والإنسانية تصدر عن اتحاد كتاب وأدباء الإمارات.

اشتمل العدد على ثلاث دراسات؛ إذ كتب د. عدنان عبيد العلي عن «صحيفة بشر بن المعتمر وأثرها في النقد العربي القديم»، وتناول د. خالد محمود جمعة في دراسة «الأسلوبية اللسانية: مفهومها واتجاهاتها في المدرسة الغربية»، كما أن هناك دراسة ميدانية على طلبة المدارس الثانوية في مدينة إربد موضوعها «اتجاهات الطلبة نحو التعليم المهني».

وفي باب آراء وأفكار: كتب د. حسن مدن عن «الثقافة في بلدان الخليج.. أسئلة برسم المستقبل»، وعن «أدب الطفل: القدمة والمفهوم» كتب الدكتور مبارك الصوري.

وفي باب القراءات قراءتان نقديتان: الأولى للدكتورة فوزية الدريع بعنوان: «نزار قباني.. سيكولوجية الطفل الغاضب»، ثم «تجليات المكان في القصة القصيرة (قراءة في مجموعة «السيدة كانت» لبزة الباطني)» كتبها د. طارق سعد شلبي.

الإداري (س ٢١، ع ٧٩، رمضان ١٤٢٠هـ/ديسمبر ١٩٩٩م)
دورية علمية محكمة متخصصة في مجال العلوم الإدارية ربع سنوية تصدر عن معهد الإدارة العامة - مسقط.

جاء العدد مشتملاً على مجموعة من الموضوعات، أهمها: «العوامل المؤثرة في اختيار مراقب الحسابات: دراسة تجريبية على الشركات المساهمة بسلطنة عمان» للدكتور علي إبراهيم طلبه، وكتب د. حسن أبشر الطيب في «الإدارة العربية وتحديات القرن القادم»، ثم د. عبدالناصر نور و د. محمود إبراهيم في دراسة ميدانية عن «التخطيط الضريبي في الشركات المساهمة العامة العاملة في قطاع الخدمات في الأردن»، وكتب د. حسن زكي عن «فعالية قواعد القرارات المستندة إلى التكلفة في تخطيط الطاقة»، ثم دراسة ميدانية مقارنة في الجامعات الحكومية والخاصة الأردنية عن «أسباب ومعالجة الترهل الإداري واختزال التكاليف الإدارية».

تضمن العدد تقارير عن مؤتمر المعهد الدولي للعلوم الإدارية - بالمملكة المتحدة المنعقد من ١٢ - ١٥ يوليو / تموز ١٩٩٩م، ومؤتمر الاتحاد الدولي لمدارس ومعاهد الإدارة الذي انعقد في برمنجهام من ١٩ - ٢٢ يوليو/تموز ١٩٩٩م.

الحلي والمصوغات الذهبية في الآثار السورية

سعد بشير فنصة
دمشق - سورية

كانت الحلي على الدوام مثار اهتمام الناس عبر التاريخ، ولاسيما النساء، فمن خلالها يمكن الركون إلى مفاهيم الإنسان الجمالية قديماً، وذوقه الفني، ورقيه الصناعي، ونشاطه التجاري، بل وحتى تاريخه الاجتماعي. وكانت عادة التجميل بالحلي منتشرة في كل المجتمعات، ولاسيما الطبقات الثرية التي كانت حريصة على التظاهر والتفاخر، وهم يحاولون فرض أذواقهم على الصائغين، ويحثونهم على التجديد والابتكار، فيلبي الصائغون طلباتهم ويصوغون لهم الحلي الجميلة التي تنال رضاهم، لأنهم يعدونها ثروة ثابتة ذات قيمة مادية في الأزمات المالية، فهي قطع نادرة وبضاعة رابحة، وسلعة سهلة الحمل والتداول.

فمنذ أقدم العصور وحتى في عصور ما قبل التاريخ اهتم الإنسان البدائي بالتزين والتجمل، فأحاط جيده بأطواق من العظام والأحجار الملونة المنحوتة، إلى أن اكتشف المعدن الثمين الذي خلب الألباب، ولا يزال، ألا وهو الذهب، فكان مصدراً للغنى والسعادة وضمان أسباب العيش، كما كان مدعاة سيطرة للطبقة السائدة أو المحتكرة للقوى الاقتصادية والسياسية عبر التاريخ، ولو استعرضنا تاريخ الحضارات لوجدنا رغبة الإنسان في التزين بالحلي والتجمل بها تعد من أقوى الرغبات تأثيراً، وأقدمها عهداً، إذ لم تخل من هذه الرغبات التي هي أكثرها استمراراً وأوسعها انتشاراً حتى أطماع الفاتحين والقادة المغامرين شرقاً وغرباً، ويستوي في ذلك البدائيون والمتمدينون، القدماء والمعاصرون، فقد تسابق البشر إلى اقتناء الحلي وجمع الكنوز، وتنافسوا في سبيل الحصول عليها، حتى غدت في مراحل متشابهة ومتنوعة من التاريخ شراً عظيماً للصراع بين الإخوة من البشر، حذرت منها الأديان السماوية في نصوص واضحة وصريحة.

قرط ذهبي مصنوع من نسيج مفرغ بشكل طائر يحمل بمنقاره كرة ذهبية اكتشف في «الرقة»، ويعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي



طوق من العقيق الأحمر واللازورد مكتشف في «ماري» - تل الحريري - الألف الثالثة ق.م

الحلي وحماية الإنسان

كان القدماء يعتقدون بأن للذهب مفعولاً عجيباً من شأنه أن يعيد الشباب، ويطيل الحياة، ويكثر النسل وبأنه المعدن الذي لا يتغير، فهو معدن الآلهة، وواسطة إلهية، وسبيل تقرُّب تزين به أدوات المعابد، ويزوَّد الموتى بزينة منه، حتى غدت المقابر في العصور التاريخية الغابرة مستودعاً غنياً للكنوز الثمينة، وغدا الترف الذي يتمتع به الأموات يفوق ما كان يتمتع به الأحياء، ولا شك أن الاعتقاد بأهمية الحلي ودورها في حماية حاملها جعلها بمنزلة تميمة مقدسة، والاعتقاد بدور الحلي في حماية الإنسان قديم قدم ذلك الإنسان الذي أخذ يختار ويميز أنواعها، ويختبر ويتعرف إلى خواصها، وينجذب نحو ألوانها، فوصلت تخيلاته إلى الاعتقاد بأن ألوانها رموز لقواها السحرية، وأن حملها أو اقتناءها من شأنه أن يغير مصير الإنسان في هذا الوجود، مما جعله يعتقد بأن الحجر الحليبي اللون من شأنه أن يوجد الوئام بين المحبين، وأن تقبيل الياقوت بالفم يفرح القلب، وأن

الفيروز يدفع الصواعق ويقوي القلب، والزمرد يحيي الفضيلة، وعين الهر تدفع أذى عين الحاسد، والمرجان يمنح الحياة، والكريستال يجعل الأحلام جميلة، وامتد خياله أكثر بربط الحلي والأحجار الكريمة بالأفلاك والأبراج السماوية عندما وازن بين بريقها وتلألؤ النجوم.

وقد أظهرت الأبحاث والتنقيبات الأثرية خلال العقود الماضية في سورية غنى متنوعاً وجميلاً من الحلي والمصاغ من مختلف العصور والمواقع الأثرية، ولعل الاكتشاف المهم الذي يعود إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد كان من حضارة أوغاريت - رأس شمرا على الساحل السوري - الغنية، حيث عثر في أحد مساكن هذه المملكة على ميزان صائغ مع مجموعة كاملة من الأوزان، وقطع ذهبية وفضية، إضافة إلى قوالب لصب الحلي، مما أعطى صورة متكاملة لطريقة صياغة الحلي في تلك الفترة التاريخية ومعالجة أشكالها، وتذكر المصادر أيضاً أنه عندما ازدهرت حضارة تدمر السورية، وأصبحت عاصمة سياسية مهمة ومحطة كبرى في الشرق القديم للقوافل التجارية العالمية، ظهر البذخ وانتشر الترف وأخذت الحسان يطلبن الحلي الجميلة ويتزيّن بالأقراط والأساور، ويستدل على ذلك بالتماثيل التدمرية الكثيرة التي اكتشفت في مواقع حضارة تدمر: مما يوضح مدى اهتمامهن بالحلي وميلهن إلى التزين في عصر تربع فيه بعض السوريين على عرش روما، مثل الإمبراطور (كاراكالا - ٢١١ - ٢١٧م)، و(فيليب العربي - ٢٤٤ - ٢٤٩م) فظهر فيه نفوذ السيدات السوريات مثل (جوليا دومنا ١٥٨ - ٢١٧م) مما جعل السوريات مثال الأناقة، وتطلّب فيه الترف الاجتماعي والازدهار الاقتصادي الافتنان والإبداع في صياغة الحلي الذهبية. ويكفي أن نذكر أنه في تدمر وحدها كان هناك ما يشابه الآن نقابة لصانعي الذهب والفضة، مما يدل على كثرة المتهنين لفن الصياغة ورغبتهم في حماية مصالحهم وتنظيم أعمالهم، كما قدمت الحفريات التي أقيمت في (حوران) ومناطق سوريا، مصاغاً وحلياً غاية في الإتقان والروعة، وتعود بغالبيتها إلى العصور الهيلينية والبيزنطية.

ويروي التاريخ أن الملك (أنطيوخس الرابع ١٧٤ - ١٦٤ ق.م)، ملك أنطاكية كان يتجول بنفسه في أسواق الصياغ، ويلتقي بهم، ويتأمل في إبداعهم الفني، ويتمتع بما كانوا يصوغونه من أعمال فنية، وكانت احتفالاته تتميز بظهور الترف المبالغ فيه بكثرة الأواني والتروس والتيجان الذهبية التي تدل على مدى تقدم فن الصياغة السورية، حتى قيل: إن معبد الملك (أنطيوخس) كان مغطى بالذهب، وجدرانه مستورة بصفائح ذهبية. وعندما أشرقت شمس الإسلام تورع الرجال المسلمون عن التزين بالذهب والتدثر بالحرير، فأخذ الصائغ المسلم يبدع الحلي للنساء فقط ويفتن في مظهرها الزخرفي وشكلها الأنيق. وعندما تعرضت منطقة الهلال الخصيب للحملات المغولية والغزوات التترية، انحطت الصناعات السورية، وهلك الآلاف من البشر، ونهبت المدن وأحرقت. أضف إلى ذلك أن مصادرة الماهرين من الصناع وتهجيرهم إلى موطن الفاتحين جعل المدن السورية تمر بفترة جمود صناعي وشلل فني طويل استمر قروناً.



مشبك ذهبي مرصع بالحجر السيلاني وفي الوسط الحجر الكريم المسمى بعين الهر، مكان الاكتشاف مجهول ويعود إلى القرن الأول الميلادي



بيت حجاب من نسيج ذهبي مفرغ ومزين بأشكال هندسية وحقل كتابي يقول (عز يدوم وإقبال لصاحبه)، مكتشف في الرقة، القرن الثاني عشر الميلادي

أحدث إصدارات
مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية







الدكتور مانع بن حماد الجهني

١٤٢هـ-١٩٩٩م

صدر بمناسبة الاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

يطلب من: إدارة التسويق، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ص.ب: ٥١٠٤٩ الرياض: ١١٥٤٣
هاتف: ٤٦٣١٦١٣ ناسوخ: ٤٦٥٩٩٩٣